البابا شنوده الثالث

معالم الطريق الروحي

Characteristiics of the
Spiritual Way
by H. H. Pope Shenouda III

1st Print
Nov. 1987
Cairo

الطبعة الأولى
نوفمبر 1987
القاهرة

الكتاب : معالم الطريق الروحي .
المؤلف : قداسة البابا شنوده الثالث .
الطبعة : الأولى ــ نوفمبر 1987 م .
المطبعة : الأنبا رويس (الأوفست) العباسية ــ القاهرة .
الناشر : الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس .
رقم الإيداع بدار الكتب : 8120 / 1987 .

مقدمة

من بين مقالات عديدة جداً ، ألقيتها في الكاتدرائية المرقسية الكبرى بدير الأنبا رويس ، خلال الستينات والسبعينات ، اخترت لك هذه المجموعة لتشرح لك الطريق الروحي ، وعلاماته ومعالمه ، وكيف تسير فيه ...

أولاً : ما هو الهدف الروحي السليم ؟ وكيف تثبت فيه .

ثم ينبغي أن تبدأ ، وكما تبدأ تستمر .

وبعدها نناقش البدء ، ونعرض كيف أن مخافة الله هي البدء حسب تعليم الكتاب (أم9 : 10) .

ومخافة الله تدعو إلى السير في الطريق السيلم ، ولو بالتغصب إلى أن يصل الإنسان إلى محبة الروحيات ومحبة الله ...

ثم نعرض بعد ذلك للعمل : **العمل الإيجابي ، والعمل الداخلي** .

وبعد هذا نورد ثلاث مقالات عن الحكمة والإفراز ، حيث أن الحكمة يجب أن تتخلل كل عمل روحي وتمتزج به .

ثم نتحدث عن عناصر عامة لا يمكن أن يستقيم بدونها العمل الروحي . وهي صفات الجدية ، والالتزام ، والتدقيق ، والأمانة في العلاقة مع الله ، وتبدأ بالأمانة في القليل ، حتى يقيمنا الله على الكثير .

وكل هذا يقود إلى حياة الانتصار . ولا يمكن أن ينتصر الإنسان في حياته الروحية إلا إذا انفصل عن كل المجالات الخاطئة . وهنا نكتب لك مقالاً عن (الفصل بين النور والظلمة) .

وإذا ما وصل الإنسان إلى قمة العمل الروحي ، إنما يصل بالتالي إلى حياة التسليم ، وفيها يعيش الإنسان في حياة الشكر الدائم . فكان لابد أن نتحدث عن هذين الموضوعين باعتبارهم من معالم الطريق الروحي . على أنه من صفات الطريق الروحي في كل ما ذكرناه خاصية ذكرها رب المجد في العظة على الجبل ، وهي الدخول من الباب الضيق (متى7 : 13) .

هنا ونسأل ما هي نهاية الطريق الروحي ؟

الطريق الروحي هو رحلة نحو الكمال ، الوسيلة فيها هي النمو الروحي الدائم .

وعن هذا الموضوع حدثناك أيضاً في آخر هذا الكتاب ، وأضفنا إلى ذلك موضوعاً آخر عن عوائق النمو . أترانا قد شرحنا لك كل ما يتعلق بمعالم الطريق الروحي ؟ كلا بلا شك . فالحديث عنه هو الحديث عن الحياة الروحية كلها .

ولا تزال هناك موضوعات أخرى ، أحب أن أضيفها في جزء آخر إن أحبت نعمة الرب وعشنا .

البابا شنوده الثالث

الفصل الأول

الهدف الروحي وثباته

الهدف الروحي
أسباب النجاح .
الهدف الوحيد هو الله .
أهداف زائفة .

ثبات الهدف
فائدة ثبات الهدف .
أمثلة ممن سقطوا .
أمثلة للتائبين .
أمثلة من التائبين .
ثبات الشهداء .

الهدف الروحي

أنت يا أخي سائر في طريق الحياة وأود أن أناقش معك خطة لمسيرتك هذه . ولعل أول سؤال يقابلنا هو : ما هي أسباب نجاح الكثيرين ؟

أسباب النجاح

والإجابة هي أن مقومات النجاح كثيرة . وفي مقدمتها أن الذين نجحوا في حياتهم ، كانت لهم أهداف قوية وضعوها أمامهم ، واستخدموا كل إمكانياتهم لتحقيقها .

ومحبة الهدف والرغبة في تحقيقه منحهم حماساً وقوة ونشاطاً وروحاً .

كما منحهم الهدف تركيزاً في حياتهم وتنضيماً لها . أصبحت كل إمكانياتهم وطاقتهم : وكذلك كل أعمالهم سائرة في الطريق هذا الهدف في اتجاه واحد بلا انحراف .

والهدف جعل لحياتهم قيمة .

إذ شعروا بأن هناك شيئاً يعيشون من أجله . فأصبحت حياتهم لها لذة .. حياة هادفة لها قيمتها . وكل دقيقة من دقائق حياتهم صار لها ثمن .

وكلما كان الهدف في حياة سامياً عالياً ، تكون قيمة الحياة أعظم ، وتكون الحمية في القب ناراً متقدة لتحقيقه .

أما الذي يعيش بلا هدف ... فإن حياته تكون مملة وثقيلة عليه ...

حياة لا معنى لها ولا طعم ، ولا اتجاه ولا ثبات . ويكون مقلقلاً في كل طرقه . وغالباً ما ينتابه الملل والضجر في أحيان كثيرة بأن حياته رخيصة ، وضائعة وتافهة ، يبحث فيها عن وسائل لقتل الوقت ! لأن الوقت لم تعد له قيمة ولا رسالة ...

وكثيراً ما يتساءل هؤلاء : لماذا نحيا ؟ لماذا خلقنا الله ؟

ما معنى الحياة ؟ وما هو غرضها وهدفها ؟ إنهم مساكين . يعيشون ولا يعرفون لماذا يعيشون ! تجرفهم دوامة الحياة دون أن يشعروا . وإن شعروا : يسألون ... إلى أين ؟

أما إن وجدوا لحياتهم هدفاً ، فإن كل هذه الأسئلة تبطل ...

هنا ونود أن نبحث أهداف الناس التى تحركهم في الحياة .

لأنه ، حسبما يكون الهدف ، هكذا تتحد الوسيلة التى تقود إليه ... البعض هدفه المال ، أو الوظيفة ، أو اللقب ، أو السلطة : أو السيطرة أو النجاح في العمل . والبعض شهوته اللذة ، سواء كانت لذة الحواس أو لذة الأكل والشرب ، أو لذة الجسد ، أو لذة الراحة . والبعض هدفه الزواج والاستقرار في بيت ، أو النجاح في الدراسة .

ولا نستطيع أن نسمى كل هذه أهدافاً . إنما هي رغبات وشهوات .

وإن حسبت أهدافاً ، تكون مجرد أهداف عارضة ، أو مؤقتة ، أو زائلة أو سطحية لا عمق لها . كما أنها محددة بزمن . وكلها تدخل تحت قول الرب لمرثا " أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة ، والحاجة إلى واحد " (لو10 : 41) .

الهدف الوحيد هو الله

الإنسان الروحي هدفه الله وحده لا غيره . كل هدفه هو أن يسعى إلى الله ، ويعرفه ويحبه ويعاشره ويثبت فيه . ويكون علاقة معه ، يسكن الله في قلبه ويسكن هو في قلب الله . ويقول لله في حب :

" معك لا أريد شيئاً على الأرض " (مز73 : 25) . وهكذا بالتصاقة بالله يمكنه أن يستغنى عن كل شئ فمحبة الله تقود إلى التجرد وإلى الزهد وكلما يختبر الله ويذوق حلاوة العشرة معه بأن كل شئ في الدنيا باطل وقبض الريح (جا2 : 11) ــ وكما يقول المثل ــ النفس الشبعانه تدوس العسل (أم27 : 7) . هكذا النفس الشبعانة بالله تدوس كل شهوات الأرض .

أهداف زائفة

ولكن الشيطان لا يعجبه هذا إنه يجول في الأرض يوزع أهدافاً .
ويبذر ويزرع أغراضاً وآمالاً ورغبات وكل ذلك بغية أن يتوه الإنسان عن هدفه الروحي الوحيد الذي هو الالتصاق بالله ، والاستعداد للأبدية . وبالأهداف العالمية التي يوزعها الشيطان : يتلظى أهل العالم في جحيم من الرغبات ، لا يمكن أن تشبعهم إذ أن في داخل حنيناً إلى غير المحدود . وكل ما في العالم محدود ...

أول هدف يقدمه الشيطان هو بالذات ...

فتصير الذات صنماً يعبده الإنسان وتصير ذاته هي محور ومركز كل تفكيره يريد أن يبنى هذه الذات ، ويكبرها ويبنيها ، ويجعلها موضع رضي الكل ومديحهم . وينشغل بذاته بحي يهمل كل شئ في سبيلها ، حتى علاقته بالله .

هكذا تصير الذات منافساً لله ...

تدخل أولاً إلى جوار الله في القلب ثم تتدرج حتى تملك القلب كله ، وتبقي وحدها فيه ، فيتحول الإنسان إلى عبادة الذات ويظل كل يوم يفكر : ماذا أكون ؟ ومتى أكون ؟ وكيف أكون ؟ وكيف أتطور إلى أكبر وأعظم ... ؟

ويا ليته بذاته اهتماما روحياً ...

إذن لكان يبذل من أجل الله ومن أجل الآخرين ، ويحيا من أجل الآخرين ، ويحيا حياة المحبة التي تضحي ، وتبذل نفسها فدية عن الآخرين . وحينئذ يجد ذاته ، أعنى الوجود الحقيقي يجدها في القاسة وفي البر والكمال ، في الله نفسه ... إن بولس الرسول ، من أجل الحياة مع الله قال " ولا نفسي ثمينة عندي " (أع20 : 24) . أما الذي يهتم بذاته بربطها بشهوات العالم فإنه بالتالي :

يجعل شهوات العالم هدفاً له .

وهكذا يضع أمامه بريق العالم الحاضر وأمجاده ، وملاذه ولهوه ، وأحلامه وأمانيه ، وينشغل بكل هذا حتى ما يتفرغ لأبديته . ويبقى مخدراً بشهوات الدنيا ، ما يضيق منها إلا ساعات الموت ، حينما يتركها كارهاً ...! أما أنت ، فلا يكن لك هذا الفكر ولا هذا الاتجاه ، وإنما :

كل هدف يبعدك عن الله وعن خلاص نفسك اعتبره خدعه من الشيطان وارفضه في حزم ...

وكذلك أرفض كل وسيلة تبعدك عن هدفك الروحي . ولا تسمح مطلقاً بأن تكون ذاتك منافساً لله في قلبك ، ولا تسمح بأن يصير العالم هدفاً . فإن الكتاب يقول إن " العالم يبيد وشهوته معه " (1يو2 : 17) . ويقول أيضاً إن محبة العالم عداوة لله (يع4 : 4) .

إذن راجع منذ الآن كل أهدافك وكل وسائلك ، في ضوء اهتمامك بأبديته : وفي ضوء هدفك الروحي الذي هو محبة الله .

إن كل هدف ضد ملكوت الله هو انحراف عن الخط الروحي .

وكل شئ يصطدم بمحبة الله في قلبك ، اتركه مهما تكن قيمته . كما قال القديس بطرس للرب " تركنا كل شئ وتبعناك " (متى19 : 27) .

إن يوسف الصديق خسر حريته حينما بيع كعبد وخسر سمعته حينما ألقي في السجن ، وخسر أبوية وأخوته ووطنه حينما عاش في بلد غريب ... ولكن كان يكفيه وقتذاك ، الله وحده . كان هو هدفه .

الذي هدفه هو الله لا يتأذى إن خسر أي شئ عالمي .

إبراهيم أبو الآباء كان الله هو هدفه لذلك سهل عليه أن يترك أهله وعشيرته ووطنه (تك12 : 1) ويتغرب وهو لا يعلم إلى أين يذهب (عب11 : 8) بل سهل عليه أن يأخذ أبنه ليقدمه محرقة للرب ... وبولس الرسول سهل عليه أن يترك المركز السلطة والصلة بالقادة ، إذ لم يكن شئ من هذا هو هدفه ... واستطاع أن يقول " خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية ، لكي أربح المسيح " (في3 : 8) . وهذا هو هدفه الذي من أجله خسر كل شئ ، دون أن يحزن .

ودانيال النبى : لم يأبه بالقصر الملكي ، ولا بالوظائف ، ولا بكل أطايب الملك ، ولم يأبه حتى بحياته إذ ألقى في جب الأسود ، إذ كان له هدف واحد تضائل أمامه كل شئ ...

إن الذي هدفه هو الله لا يجعل حتى الأمور الروحية هدفاً له !

البعض قد يجعل الصلاة هدفاً له ، فيصلى ليس من أجل محبته لله ، وإنما لكي يكون رجل صلاة ! ويتهم بالدراسة اللاهوتية كهدف ، لا لكي يعرف الله فيثبت فيه ، إنما لكي يصير من علماء اللاهوت ، يعطية العلم شهرة ومكانه وعظمة ! وهكذا ، أيضاً ، قد يتحول الصوم إلى هدف ، ويتحول كل عمل روحي إلى هدف ، يعمل الإنسان لكي يرضي عن نفسه ، أو لكي يرضى الناس عنه !!

بينما كل هذه وسائط وليست أهدافاً ، فالهدف هو الله .

الصلاة والصوم والمعرفة : وكذلك التأمل والقراءة ، كل هذه هي مجرد وسائل توصلك إلى هدفك الوحيد الذي هو الله ومحبته . والارتباط به . فإن جعلتها هدفاً تكون قد قصدتها لذاتها ... وقد تتقدم فيها ، وتكون بعيداً عن الله الذي قال " هذا الشعب يكرمني بشفتيه . أما قلبه فمبتعد عني بعيداً " (متى15 : 8) .

وقد تصبح الرهبنة والتكريس هدفاً !

ولكن الرهبنة هي مجرد وسيلة توصل إلى الله . ولذلك عرفوها بأنها ــ الانحلال من الكل للارتباط بالواحد ــ فإن تحولت إلى هدف ، تحولت الوحدة إلى هدف ، والصمت إلى هدف فما أسهل أن تكسر وصايا الله من أجلها ! فيتخاصم الراهب مع الدير من أجل حياة الوحدة . يعيش كمتوحد دون أن تكون له فضائل الوحدة ، دون أن ينمو في محبة الله . وفي هذا قال مار اسحق " هناك من يجلس خمسين سنة في القلاية ، وهو لا يعرف طريقة الجلوس في القلاية " .

والبعض قد يجعل الإصلاح هدفاً ...

وبسبب الإصلاح يثور ويتخاصم : ويدين الآخرين ويشهر بهم ، ويفقد محبته للناس ، ويفقد هدوءه وسلامة ويشتم ويسب ، ويتحد ويصخب ، ويتحول إلى قنبلة متفجرة تقذف شظاياه في كل مكان . وفي

كل ذلك تبحث عن علاقته بالله ، فلا تجدها . لقد أصبح ــ إصلاحاً ــ بدون الله وبدون محبة وصارت غيره بلا تدين !
وهكذا أيضاً في الخدمة :

كثيرون بدأوا بالخدمة .. وأنتهوا بأنفسهم !

بدأوا بالسعي إلى مجد الله ، وانتهوا بمجد أنفسهم ! بدأوا الخدمة وهدفهم هو الله . ثم وضعوا الخدمة إلى جوار الله : وأحياناً قبله . ثم تركزوا في الخدمة وصارت لهم هدفاً ونسوا الله . ثم بحثوا عن نجاح الخدمة . ثم صار نجاح الخدمة هو نجاحهم الشخصي . وانتهوا إلى الذات وإذ وصلوا إلى هذا ، تحولت الخدمة إلى مجال للسيطرة والظهور ، وأصبحت مجرد نشاط واستخدام للطاقة وربما أصبحت وسائلها بعيدة عن الله تماماً ، فيها الذكاء والحيلة والدهاء . وضاع الهدف الروحي الذي هو الله !
أما أنت ففي كل عمل روحي ، قل مع داود النبي :

جعلت الرب أمامي في كل حين :

وليكن الله هو هدفك الوحيد . أنت من أجله تخدم . وإذا تعارضت الخدمة مع الله ، اتركها . لأنه ما أسهل على الشيطان أن يتيهك حتى في داخل الكنيسة . وتذكر إن الإبن الضال الكبير ابتعد عن محبة أبيه وهو في صميم الخدمة " يخدمه سنين هذا عددها " (لو15 : 25 ــ 32) .

لذلك كله فإن الله يسألك أين أنا في وسط أهدافك ؟

أجب عن هذا السؤال بصراحة كاملة : هل الله أحد أهدافك ؟ أم هو الهدف الأول ؟ أم الهدف الوحيد ؟ أم أنه ليس هدفاً على الإطلاق ؟ أم تضعه في آخر القائمة : قد تتذكره أحياناً ، وقد لا تتذكره ! أم أن الله قد تحول في نظرك إلى مجرد وسيلة لتحقيق أهدافك ! وإن لم يحققها لك : تغضب منه وتثور ، وقد تقطع صلتك به .

هل تحب الله كما أحبك ؟

وهل قلبك كله له ؟ أم هناك أهداف جانبية إلى جوار الله ، تسعي أن تكون هي الأصل ؟
هل تفكر في أبديتك ــ وقبل أن تصل إلى أحضان القديسين ، تصل إلى أحضان الله ؟

حسبما يكون هدفك هكذا تكون حياتك وهكذا تكون وسائلك . فراجع نفسك ...

ثبات الهدف الروحي

الإنسان الروحي هو شخص مستقر في هدفه وفي وسائله . له هدف واضح ثابت لا يتغير . وقد ركز كل اهتمامه بهذا الهدف . وأصبح يتجه نحوه على الدوام ، بكل طاقاته وكل رغباته ، لا يتحول عنه . وكل وسائله توصل إليه . إنه مثل سهم البوصلة يتجه دائماً في اتجاه واحد مهما حركت وضعه أو موضعه .
إنه إنسان راسخ ثابت لا تغيره تطورات الأيام والظروف الخارجية .
وقد صدق ذلك الأديب الروحي حينما قال عن الرجل الحق إنه [يتطور دون أن يتغير . ويكبر دون أن يتكبر . ويحتفظ بثباته في وثباته] . أما الإنسان الضعيف فإنه متزعزع : خبراته في الحياة ، وصدماته وتجارية وضيقاته وظروفه ، تجعله يغير خط مسيرته ويتحول عنها . وقد يتحول نتيجة لاغراءات أو لمخاوف ، أو لدنيا قد تفتحت أمامه ...
وهكذا كثيرون بدأوا بالروح ، وكلموا بالجسد . بدأوا بالله وكلموا بالعالم .
كم من أناس عرفناهم ، وكان يبدو أن لهم هدفاً روحياً وحالياً لا وجود له ولا لهم ، داومة العالم جرفتهم وجرفت روحياتهم ، فساروا مع التيار ... وليس في جيلنا فقط ، بل إن الكتاب المقدس يقدم لنا

أمثلة عجيبة من شخصيات بدأت ولم تكمل . أو أن هدفها انحراف في الطريق ولم تثبت عليه . ولعل من أمثلة هؤلاء ديماس مساعد بولس الرسول الذي قال عنه :
" ديماس تركني لأنه أحب العالم الحاضر " (2تي4 : 10) . والذي حدث لـديماس ، حـدث أيضـاً لكثيرين قال عنهم القديس بولس الرسول في رسالته إلى أهل فيلبى " لأن كثيرين ممن كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكياً ، وهم أعداء صليب المسيح . الذين نهايتهم الهلاك ... ومجدهم في خزيهم ، الذين يفتكرون في الأرضيات " (في3 : 18 ، 19) . كل هؤلاء كانوا أصـدقاء الرسـول العظيم ، وكلن لهم ماض مجيد في الخدمة . كان لهم هدف روحي عاشوا به فترة ، ولم يثبتوا عليهم . وربما لأن أشياء أخري دخلت قلوبهم إلى جوار الله . وبمرور الوقت سيطرت عليهم . وربمـا أرادوا أن يجتمعوا بين الله والعالم في نفس الوقت . ويعيشوا مع سارة وهاجر في نفس البيت . أو مثل لـوط البار الذي أراد أن يجمع بين محبة الله ومحبة الأرض المعشبة في سادوم . إن شمشون بـدأ حياتـه كنذير للرب ، وكان روح الرب هو الذي يحركه (قض13 : 25) . ثم ماذا بعد ؟
دخلت رغبات إلى قلب شمشون بجوار الرب ، ففارقه الرب (قض16 : 20) .
لا يكفي إذن أن يكون هدفك هو الرب . إنما يجب أن تظل محتفظاً بهذا الهدف ولا تسـمح لأهـداف أخري أن تدخل إليك ، لأنك لن تستطيع أن تجمع بين نذرك ودليله في آن واحد ، مهما ظننت حكيماً .
هوذا سليمان أحكم أهل الأرض يعطينا نفسه مثالاً : لقد بدأ بهدف روحي ، ما في ذلك شك . وتراءى له الله مرتين ، ووهبه الحكمة . ومع ذلك أراد أن يجمع بين الله والمتعة ففشل . وفقد هدفه الروحـي وسقط (1مل 11) ...
سليمان الحكيم يسقط ؟ . يا للمأساة ... كل ذلك لأن الهدف تغير ، أو دخلت إلى جواره أهداف أخرى ، فجرفته . أما الذين ثبتوا على هدفهم ، فقد استمروا سائرين في ثبات نحو الله .
انظر إلى مياة الطوفان ، ماذا فعلت . وتعلم منها درساً ...
مياه الطوفان غطت الأرض كلها . حتى ن القمم العالية أيضاً غطتها المياه . أما الفلك فلم توذه الميـاه في شئ ، بل سار فوقها ، لأن هدفه هو الله . ولا شك أن الله كان داخله ويقوده حقاً إن الهدف الصالح يعطي حياة وحيوية وقدروه على السير في اتجاه الله . كما يعطي قدرة على مقاومـة كـل التيـارات المضادة وصاحب الهدف الثابت لا تجذبه التيارات المضادة ، لأن أرادته ثابتة فيه . إن سمكة صغيرة جداً تستطيع أن تقاوم التيار ، وتستمر في مسيرتها ، لأن فيها حياة ، وفيها إرادة تحركها بينما كتلـة ضخمة من الخشب يجذبها التيار حيثما يشاء لأنها بلا حياة وبلا هدف ...
لقد خرج بنو إسرائيل من عبودية فرعون ، ونجوا من الهلاك المهلك ، وعبروا البحر الأحمر . وكانت بداءة طيبة ولكن لم يكن لهم هدف روحي ثابت ، فهلكوا في برية سيناء ، على الرغم من أنهم كـانوا يقتاتون بالمن والسلوي وسحابة الله كانت تظللهم ربما هدفهم كان ذاتهم فتذمروا علـى الله ، خرجـوا بأجسادهم من عبودية فرعون ، ولكن كانت هناك عبودية أخرى داخلهم لم يخرجوا منها ... فهلكوا .
كان الهدف السليم عند موسي النبى وليس عند بني إسرائيل . فلم يستطيعوا أن يستمروا في مسـيرتهم معه ، على الرغم من كل العبادات الطقسية التى كانوا يقدمونها . إن القلب الذي لا يعطـي ذاتـه لله عطية كاملة حقيقية بهدف سليم ، ما أسهل عليه أن يكسر كل عهد يبرمه مع الله فلا يحافظ على عهوده ، ولا على وعوده ، وينحرف إلى أهداف سطحية تافهة لا تغنيه شيئاً ...
وبنفس الوضع خرجت امرأة لوط من سادوم . وقلبها لا يزال فيها . لم يكـن خروجهـا مـن أرض الخطية خروجاً حقيقياً من القلب ، ولم يكن من أجل الله . كانت يدها في يد الملاك الذي أقتادها إلـى خارج المدينة المحترقة مع أسرتها . أما قلبها فكان يحترق شوقاً إلى ما هو داخل المدينة ... عجيبـة هذه المرأة . لم تهلك داخل سدوم ، إنما بعد أن خرجت منها . وهكذا هلكت وتحولت إلى عمود ملح . صار موتها ملحاً للعالم ، أي درساً روحياً في خطورته النظرة إلى الوراء .
الذي له هدف حقيقي ثابت في الله ، لا ينظر مطلقاً إلى الوراء أثناء سيره مع الله ، وإلا تعرض لتوبيخ إيليا النبى الذي قال " حتى متي تعرجون بين الفرقتين ؟ . إن كان الله هو الله فاتبعوه . وإن كان هـو البعل فاتبعوه " (1مل 18 : 21) . إن كان هدفك هو الله ، فلا تكن قلبين ، ولا تكن متردداً . مشكلة

يهوذا الأسخريوطى كانت هذه : يجلس مع السيد المسيح على مائدة واحدة ، ويأكل معه من نفس الصفحة . وفي نفس الوقت كان يتفق ضده مع شيوخ اليهود وقادتهم . فكلن [تلميذاً] للرب هدف . يقبل السيد ويسلمه إلى أعدائه في نفس الوقت . عاش المسكين بلا هدف . فكانت حياته ثقلاً عليه وعلى الجميع ، فهلك .

إن نيقوديموس بعد أن عرف الرب معرفة حقه ، لم يستطيع أن يستمر صديقاً له وعضواً في مجمع السنهدريم في نفس الوقت ...

حنانيا وسفيره ببعض المال حراماً . بينما يظهران أمام الجميع كعضوين في جماعة أولاد الله الذين يضعون كل أموالهم عند أقدام الرسل . فلا كسبا المال ، ولا كسبا عضوية الكنيسة . لم يكن لهما الهدف الروحي النقي الثابت الذي لا يعرج بين الفرقتين ... صورتهما تشبه صورة بيلاطس ، الذي أراد أرضاء ضميره و إرضاء اليهود في نفس الوقت . ولما فشل غسل يديه بالماء ، دون أن يغسل قلبه من الداخل . كان الشاب الغنى يريد أن يجمع الهدفين معاً . وإذ كشفه فاحص القلوب . مضى حزيناً . إنه يسأل عن الحياة الأبدية وكيفية الوصول إليها ، كأنه صاحب هدف صالح يسعي إليه . أما قلبه فكان يحب العالم الحاضر ، على الرغم من أنه حفظ الوصايا منذ حداثته ... (متي 19 : 16 ــ 22) . وإذا كشف له الرب الداء الذي فيه ، ودعاه إلى أن يكون صاحب هدف واحد ، ويتخلي عن الآخر ... مضي حزيناً .

وسيمضى حزيناً مثله كل من يحاول أن يضع إلى جوار الله هدفاً آخر . كثيرون يقولون إن الله هو هدفهم ، وفي نفس الوقت يريدون أن يدخلوا من الباب الواسع . والباب الواسع لا يوصل إلى الله مطلقاً ، " بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله " (أع14 : 22) . والذين يجعلون الله هدفهم ، ينبغي أن يتألموا من أجله ، ويبذلوا ذواتهم من أجله ، عالمين أن تعبهم ليس باطلاً في الرب ، وكما قال الكتاب " كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه " (1كو2 : 8) . هؤلاء استقروا على هدفهم الروحي ، بكل ثبات لا يغيرونه . لقد اختاروا الله هدفاً لهم ، بغير ندم ولا تردد ، وبغير إعادة تفكير ، وبغير النظر إلى الوراء . لم يعودوا يفحصون الأمر من جديد ، أو يتساومون مع الشيطان . إن خط حياتهم واضح أمامهم لا يتغير . استقروا عليه منذ زمان ، ولا يعد موضوع نقاش . وكما قال القديس بولس الرسول :

" إذن يا أخوتي الأحباء . كونوا راسخين غير متزعزعين ، مكثيرين في عمل الرب كل حين . عالمين أن تعبكم ليس باطلاً في الرب " (1كو15 : 58) .

إنهم لا يعيشون حياة صراع بين الخير والشر ، أو بين الله والعالم . فالصراع يعني عدم استقرار . أما هولاء ، فلهم خط واضح لا تردد فيه ، ولا انحراف عنه يمنه ولا يسره . يسيرون بقلب مع محبة الله . بل إن الله صار هو شهوتهم الوحيدة التى تملأ قلبهم تماماً ولا يبقي فيه شئ لغيرها . وسنضرب أمثلة لهؤلاء الثابتين : إن قصص الثابتين تعطينا فكرة عن الثبات في الهدف الروحي .

هؤلاء تركوا حياة الخطية إلى الأبد ، وما عادوا يرجعون إليها مرة أخري نسمع مطلقاً أن القديس أوغسطينوس عاد إلى حياة الخطية بعد توبته ، ولا عاد القديس موسي الأسود إلى ما كان عليه أولاً . ولم نسمع أن القديسة مريم القبطية أو القديسة بيلاجية عادتا إلى الخطية بعد توبتهما . فهؤلاء بعد أن صار الله هدفاً لهم تغيرت حياتهم تماماً بلا أية ردة أو رجعة أو أية نظره إلى الوراء . إنما أستاصلوا الخطية تماماً من قلوبهم . تماماً في جدية كاملة ، وفي أمانة عجيبة لله الذى اختاروه . مثل الذي يجري الكل ، وبقي ولو شئ مثل شعره ، سيعود ويتضخم ويصير أسوأ مما كان ... ولهذا فإن الذي يقول إنه تاب ، وهو لا يزال يقع ويقوم ، ويقع ويقوم ، هذا لم يتب بعد ، وهدفه ليس واضحاً أمام عينيه وكما يقول الشاعر :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

إن التوبة ليست مجرد أجازة [عطلة] من الخطية بحيث يمكن أن يعود الإنسان إليها مرة أخرى . إنما هي قطع كل صلة بها إلى الأبد ، بكل تصميم ، وبكل حب له . وكما قال أحد القديسين في تعريف

التوبة أنها [استبدال شهوة بشهوة] أي أن شهوة الإنسان بالنسبة إلى العالم تنتهي ، لتحل محلها شهوة الحياة مع الله ، وتصبح هدف الإنسان من حياته . وبهذا تحول أولئك الخطاة ليس فقط إلى تائبين وإنما صاروا قديسين .

ساروا في تصميم شديد لدرجة تنفيذ قول الرب : إن أعثرتك عينيك فاقلعها والقها عنك ... وإن أعثرتك يدك اليمنى فاقطعها والقها عنك (متى5 : 29 : 30) . مثال آخر في التصميم على الهدف الروحي : سلوك الشهداء .

كان هدفهم الوحيد هو الله والحياة معه في الأبدية السعيدة ، لذلك ساروا وراءه بكل قلوبهم حتى إلى الموت ولم يبالوا باغراءات ولا بتعذيب . ولم يستطيع شئ من كل هذا يحول قلوبهم الثابتة في الرب . كما قال بولس الرسول " من سيفصلنا عن محبة المسح ؟ ... إني متيقن أنه لا موت ولا حياة .. ولا أمور حاضره ولا مستقلة ، ولا علة ولا عمق ، ولا خليقة أخري ، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التى في المسيح يسوع ربنا " (رو8 : 35 ــ 39) . مثال آخر للتصميم على الهدف الروحي ، هو الدعوة الإلهية :

إبراهيم أبو الأباء ، لما دعاه الرب أن يترك وطنه وأهله وعشيرته ، ويمضي إلى الجليل الذي يريه ، لم يتردد بل خرج وهو لا يعلم إلى أين يذهب (عب11 : 8) لم تكن الأرض ولا العشيرة هي هدفه ، إنما هدفه هو الله الذي من أجله يترك كل شئ ... كذلك لما أمره الرب أن يقدم إبنه وحيده ذبيحة ، لم يتردد مطلقاً ، ولم يفكر ، ولم يدخل في صراع داخلي . إنما بكر صباحاً جداً وأخذ إبنه ، ومعه الحطب والنار والسكين . لم يكن الابن هو هدفه ، وإنما الله هو الهدف .

وكذلك قال الرسول " لما سر الله الذي افر زنى من بطن أمي ودعاني بنعمته ... للوقت لم استشر لحماً ولا دماً ، ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين كانوا قبلي " (غل 1 : 15 ــ 17) .

إن الهدف الإلهي يحتاج إلى تصميم .

فالشيطان إذا وجد فينا إرادة مترددة غير حازمة في علاقتنا مع الله ، إرادة زئبقية تتموج ولا تثبت على حال يعرف أن عودنا طري ، يمكنه أن يحصره ويعصره . فلنكن راسخين في محبتنا لله . ولا نضع هدفاً إلى جواره ... له المجد من الآن وإلى الأبد آمين .

الفصل الثاني

نبدأ و نستمر

نبدأ ونستمر .

البدء .

المهم أن تستمر .

نهاية السيرة .

اختبر الحروب .

ليس له أصل .

الإصلاح الداخلي .

البدء

المهم أن يبدأ الإنسان الطريق ، يبدأ علاقة مع الله . كثيرون لم يبدءوا . حياتهم في غربة عـــن الله . يعيشون حياة علمانية بحته ، وقد شغلتهم أمور العالم المادية ، أو شهوات الجسد ، أو مسئوليات الحياة المتنوعة . ولم يعرفوا طريقهم بعد إلى الروحيات ، ولم يفكروا في ذلك مجرد تفكير . أنهم في متاهة ، أو في دوامة ، أو غفوية ، لم يخطر على بالهم الاهتمام بأبديتهم .

فإن بدأوا يهتمون بالأبدية ، تكون هذه نقطة تحول أساسية .

تختلف أسباب البدء من شخص لآخر : ربما أحدهم تأثر بعظة ، أو قد نقطة البدء هي رد فعل لحادث أو كارثة ، أو مرض أحد الأحباء ، أو قد تكون نقطة البدء هي رد فعل لحادث أو كارثة ، أو مرض ، أو موت أحد الأحباء ... أو أي عمل من أعمال النعمة أيقظ ضميره وحول فكره إلى الله .

أو ربما شخص روحي ، فكر في علاقة جادة مع الله ، في مناسبة معينة ...

جلس مع نفسه مثلاً في مناسبة بدء عام جديد ، أو في استقباله سنة جديدة من سني حياته ، أو في أية مناسبة تاريخية في حياته ... وأراد أن يبدأ خطاً روحياً جديداً ، وعلاقة مع الله أكثر جدية وفاعلية ...

البدء إذن يمكن أن يحدث ، بافتقاد من عمل النعمة .

وقد يكون الإنسان فيه ، في حماس شديد ، وفي حرارة روحية ، وفي عزم وتصميم . وقد يستمر على هذا أياماً ، وقد تطول الفترة ، ثم يفتر ، أو يرجع إلى الوراء ، ولا يكمل ما بدأ به ... وتبرد محبتـــه الأولي (رؤ2 : 4) .

إذن ليس المهم فقط أن يبدأ ، بل بالأكثر أن يستمر .

المهم أن تستمر

هناك أشخاص يعترفون ويتناولون . وفي يوم التناول يكونون في حالة روحية ممتازة . وقد بدأوا من جديد حياة التوبة ، في قوة وحماس . ولكنهم للأسف لا يستمرون ، بل تمر الأيام ، وإذ بهم قد رجعوا إلى حالتهم القديمة ، فيما قبل التوبة !

المشكلة إذن هي مشكلة الاستمرار في التوبة .

ما أسعل أن يحيا إنسان في حياة القداسة لمدة يوم كامل . ولكنه لا يستمر !

وقد يبدأ شخص تدريباً روحياً . يقول مثلاً " سأدرب نفسي على الصمت حتى أتفادي أخطاء اللســـان " ... ويصمت يوماً أو يومين ، ولا يخطئ بلسانه . ولكنه لا يمكنه أن يستمر في التدريب ...

حسن أن تكون هناك بداية طيبة . إنما المهم أن تستمر .

خذوا مثالاً : القديس بطرس الرسول . في وقت من الأوقات كان يشتعل حماساً لأجل الـــرب ، وهـــو يقول " وإن شك فيك الجميع ، فأنا لا أشك .. ولو اضطررت أن أموت معك ، لا أنكرك " (متى26 : 29 ، 31) ... كلام جميل . وفعلاً سار مع الرب ، وتحمس وقطع أذن العبد (متـــى26 : 51) ... ولكن هذا الحماس لم يستمر فعاد وأنكر وسب ولعن وقال : لا أعرف الرجل (متى26 : 74) .

مثال آخر : الإنسان الذي ينذر نذراً .

أثناء النذر ، يفعل ذلك بكل عاطفته ، ويكون مستعداً تماماً للوفاء ... ولكنه لا يلبث فيما بعد أن يراجع فكره ، وإما أن يتأخر في الوفاء بالنذر ، أو يشعر به ثقيلاً عليه ، أو يتفاوض إن كان يمكن أن يغيره... !

كذلك كل من يتعهد عهوداً أمام الرب ...

وبخاصة في بدء الحماس الروحي والحرارة الروحية ، أو في بدء التوبة ، أو في بدء التداريب الروحية . ولكن الحماس لا يستمر . واسأل في ذلك الذين في وقت من الأوقات تعهدوا بأمور كانت فوق مستواهم ... ومنهم من نذر البتولية ، ومن نذر الرهبنة ، ومن تعهد إن ماتت زوجته ، لا يأخذ غيرها ... إنه حماس لا يستمر ...

كان الأولى أن يقدم إلى الله كرغبة أو صلاة ، وليس كتعهد أو نذر ...!

وكثير ما نخطئ ثم نقول : إن الله قد قبل توبة اوغسطينوس وموسى الأسود ومريم القبطية وبيلاجية ...! هذا صحيح . ولكن النصف الثاني من الحقيقة أن كل هؤلاء حينما تابوا ، لم يرجعوا إلى الخطية مرة أخري ، بل استمروا في توبتهم ، وظلوا يرتفعون كل يوم درجة جديدة في سلم الفضيلة فهل أنت كذلك في توبتك ؟

كذلك في الخدمة . كم من أناس بدءوا ولم يستمروا .

فكم من أناس كانوا أسماء لامعة في الخدمة ، والآن لا وجود لهم إطلاقاً . جرفهم العالم بمشاغله وأصبح لا يشغل ذهنهم حالياً سوى الوظيفة بولس الرسول للخدام :

" كونوا راسخين ، غير متزعزعين ، مكثرين في عمل الرب كل حين ، عالمين أن تعبكم ليس باطلاً في الرب " (1كو15 : 58) .

وما نقوله عن الخدمة ، نقوله أيضاً عن التوبة ...

كم من أناس قدموا توبة بحرارة ودموع ، وبعهود ونذورات . وكانت بداية طيبة أسوا ونسوا كل مشاعرهم الأولى . أما قد يسو التوبة الجبابرة ، أمثال أوغسطينوس وموسي الأسود وبيلاجية ومريم القبطية ، فقد كانت التوبة نقطة حاسمة في حياتهم تحولوا بها إلى حياة الطهارة ونموا إلى حياة القداسة في طريق الكمال .

نهاية السيرة

من أجل هذا يقول لنا الكتاب عن قديسى الله :

" انظروا إلى نهاية سيرتهم ، فتمثلوا بإيمانهم " (عب13 : 7) .

المهم إذن في نهاية السيرة ، وليس في بدايتها .

وهكذا نحن في السنكسار نحتفل بأيام نياحتهم أو استشهادهم . وفي صلوات المجمع في القداس الإلهي ، نذكر أولئك " الذين كملوا في إيمان " .

إن ديماس كان أحد أعمدة الكنيسة في بداية خدمته . وكان يذكره القديس بولس الرسول ضمن مساعديه القديسين مرقس ، ولوقا ، واسترخس . ولكنه لم يكمل المسيرة . لم يستمر . بل أنتهت حياته بعبارة مؤسفة جداً ، قال فيها الرسول :

" ديماس تركني ، لأنه أحب العالم الحاضر " (2تى4 : 10) .

ولم يكن ديماس وحده ... بل كثيرون آخرون بدأوا الخدمة مع القديس بولس ، وكان يمتدحهم . ولكنهم لم يستمروا . وقال عنهم الرسول أخيراً " لأن كثيرين ممن كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكياً ، وهم أعداء صليب المسيح ، الذين نهايتهم الهلاك ... الذين يفتكرون في الأرضيات " (في3 : 18 ، 19) . إذن لا تفتخر بأنك بدأت ، بل استمر لكي تكمل . لا تكن مثل ذلك الشخص الذي يبدأ طريقة مع الله فيقول لكل أحد " قد خلصت " وينسى أنه ينبغي أن يكمل حياته في الإيمان ، مستمعاً إلى قول الرسول :

" تمموا خلاصكم بخوف ورعدة " (في2 : 12) .

إن نوالك نعمة الخلاص بالإيمان والمعمودية ، لا يمنع إطلاقاً أن الطريق لا يزال طويلاً أمامك ، تستمر فيه بالجهاد والتوبة والعمل الصالح وممارسات الأسرار المقدسة وكل وسائط النعمة ، واضعاً أمامك قول القديس بولس الرسول .

" من يظن أنه قائم ، فلينظر أن لا يسقط " (1كو10 : 12) .

وأيضاً قوله " لا تستكبر بل خف " (رو11 : 20) . لذلك تواضع فقد قال الكتاب عن الخطية إنها " طرحت كثيرين جرحي ، وكل قتلاها أقوياء " (أم7 : 26) . وقيل أيضاً " اصحوا واسهروا ، لأن إبليس خصمكم كأسد زائر ، يجول ملتمساً من يبتلعه هو " (1بط5 : 8) . حسن أن تسلك كما يليق . ولكن ينبغي أن تستمر لكي تخلص في يوم الرب . واذكر أن القديس بولس وبخ أهل غلاطية قائلاً :

" أبعد ما ابتدأتم بالروح ، تكملون الآن بالجسد ؟! " (غل3 : 3) .

إذن الذين بدأوا بالروح ، يجب أن يستمروا في طريقهم الروحي ، ولا يكملوا بالجسد .

اختبر الحروب

لا يكفي أن تخطو خطوة واحدة في الطريق الروحي ، لأن الخطوة الواحدة لا توصلك إلى الهدف . ومن جهة أخرى لا تأخذ بها الخبرة الروحية . فالمفروض أنك تختبر حروب الشياطين ومعاكساتهم وحيلهم .

من الجائز إن الله لا يسمح للشيطان بأن يحاربك ، في أول الطريق ، لئلا تيأس ...

وحتى إن سمح له الله بأن يحاربك ، لاختبار صدق نيتك ، فإنه يجعل الحروب خفيفة ، لأن الله يشفق على ضعف المبتدئين ... ولكن كلما يسير لا إنسان في طريق الروح ، فإن الحروب تشتد عليه شيئاً فشيئاً بسبب حسد الشياطين وبسماح من الله الذي يجعل نعمته تكثر لتحمي المؤمن من هجماتهم وتعينه في جهاده ...

لذلك فالاستمرار في الطريق يكسب الإنسان الاتضاع بالإضافة إلى الخبرة .

لأنه كلما يختبر حروب الشياطين العنيفة ، يشعر بضعفه أمام الحروب ، فيتضع وقد يسقط أحياناً ويقوم ، فيتدرب على الصلاة التى تقيمه ، ويشعر أيضاً بشفقته على الذين يسقطون . كما أنه يتدرب على الصبر والاحتمال ، كلما يثبت في طريقه الروحي ويستمر على الرغم من كل ضغطات العدو . ويتذكر قول السيد المسيح لتلاميذه :

" أنتم الذين معي في تجاربي " (لو22 : 28) .

نعم إنهم ثبتوا ، كالبيت المبنى على الصخر ، هبت عليه الرياح والأمطار والسيول محاولة أن تجرفه ، فلم تستطع ، لأنه كان صامداً مبنياً على الصخر ، مستمراً في صموده . وبعكس ذلك كان البيت المبني على الرمل ، إذ لم يكن له أساس ، لم يستمر في بقائه وسقط ...

ومثال ذلك أيضاً : الزرع الذي لم يكن له أصل ، فجف (متى13 : 6) .

ليس له أصل

مثل إنسان يبدأ الطريق الروحي ، ويظهر قليلاً ، ثم ينزوي ويبعد ، كالنبات الذي ظهر على وجه الأرض ، وإذا لم يكن له أصل جف ...

فما معنى عبارة " وإذا لم يكن له أصل " ؟

مثالها إنسان أقدم إلى الحياة الروحية نتيجة هزة معينة ، أو تأثر مؤقت بحادث أو بعظة ، أو بقـــراءة معيني ، أو نتيجة لمشكلة حاقت ، فقال يارب " إن أنقذتني سأتبعك كل حياتي " . وأنقـــذه الله ، فتبعـــه ولكن إلى حين ... وإذ لم يكن له أصل جف . فما هو الأصل ؟

الأصل هو حياة الإيمان العميقة . وحياة الحب الحقيقية .

هو العلاقة الشخصية مع الله ، والعشرة ، والمعرفة . وليست مجرد الممارسات الخارجية التي لا تنبع من القلب . فالإنسان الذي حياته مجرد ممارسات بدون حب ، لا يمكن أن يســتمر ... فتـــاة مـــثلاً ، سمعت عظة عن الحشمة والأزياء والزينة ، فتأثرت وبدأت تغير مظهرها الخـــارجي . ولكنهـــا مـــن الداخل لم تتغير . لم تدخل إلى قلبها محبة الله فتغيره . لم تتأسس في داخلها العفة الحقيقية ، والزهد في العماليات ، والسعي إلى الأبدية . وهكذا قد تستمر مدة في مظهر الحشمة ، ولكنها لا تســـتمر ... وإذ ليس لها أصل تجف ... أو شاب يقص شعره الطويل ، متأثراً بما من تدريبات روحية في بداية عـــام جديد . وليس عن اقتناع داخلي بتفاهة هذا المظهر ، وببناء الرجولة على أسس سليمة ... هذا الشـــاب قد يبقى هكذا فترة . ثم يطول شعره ، فلا يجد دافعاً لتقصيره وينتظر إلى بداية عام جديـــد آخـــر ، أو مناسبة روحية أخري .

وهكذا يصبح التدين عند أمثال هؤلاء ، تدين مناسبات .

ليس له أصل قوي ، وليس نابعاً من القلب عن إيمان وحب ، وإنما هـــو مجـــرد تـــأثرات وقتيـــه ، وانفعالات تزول بعد حين ... فهي مثل بيت مبنى على الرمل ، بدون أساس .

إذن لكي يثبت الإنسان ، لابد من أسس روحية توضع داخل القلب وترسخ فيه .

ولهذا فإن الروحيات لا تأتي ولا تستمر ، نتيجة لأوامر واجبة الطاعة من أب أو أم أو مرشد أو رئيس . إنها تحتاج إلى تكوين علاقة روحية مع الله ، علاقة تبدأ داخل القلب ، أساسها الإيمان بحياة الروح ، وبأهمية الأبدية ، وبوجوب تكوين علاقة حب مع الله ، حب ثابت وليس مجرد مظاهر أو ممارسات .

إنها تبدأ بإصلاح الذات من الداخل .

الإصلاح الداخلي

إنسان مثلاً دائماً يغضب ، ويثور ، ويعلو صوته ، ويسئ إلى غيره ، ويفقد أعصابه . يقول لنفسه وهو نادم " لابد أن أدرب نفسي على ترك الغضب " . ويبدأ التدريب بالفعل ، ولكنه لا يستمر " إذ ليس لـــه أصل " . فكيف إذن يتخلص من الغضب ، بطريقة يبحث فيها عن الأصل ، ويصلحه ؟

علية أن يبحث عن أصول هذه الخطية في داخله ، ويعالجه .

ربما يكون سبب الغضب كبرياء داخلية لا تحتمل كلمة معارضة أو كلمة توجيه أو نقد . ربما يكـــون السبب حبه للكرامة والمديح ، أو رغبته في تنفيذ رأيه أياً كان أو تنفيذ رغباته . أو قد يكـــون ســـبب غضبة كراهية لإنسان ما أصبح لا يحتمل منه كلمة ... أياً كان السبب ، عليه أن ياعلجة أولاً . وحينئذ يمكنه أن ينجح في تداريبه ...

إذن علينا باصلاح الأسباب ، وليس مجرد الأغراض .

مريض ارتفعت درجة حرارته ، أيمكنك معالجته بكمادات ثلج ، أو بأسبرين ؟! أم يجب البحث عـــن السبب الذي أدي إلى ارتفاع درجة الحرارة ومعالجته ... ؟ ربما كان السبب التهابا فـــي اللـــوز ، أو بؤرة صديدية في أحد أعضائه ، أو حمى . يحتاج الأمر إلى علاج داخلي ، لا تصلح معه المحاولات الخارجية للتخلص من الأعراض ...

لا يكن إصلاحكم لأنفسكم مجرد إصلاح خارجي ، للمظاهر ...

إنما اصلحوا القلب من الداخل . اصلحوا الأسباب الحقيقية التى تنبع منها الخطيـــة . وحينئـــذ يمكـــن لتوبتكم أن تستمر ، ويمكن أن تستمر ، ويمكن للمارساتكم الروحية أن تستمر ، لأن لها أصـــلاً ثابتـــاً داخل القلب ... وهكذا قال الرب لملاك كنيسة أفسس " اذكر من أين سقطت ، وتب " (رؤ2 : 5) .

ولذلك فإن الأبرار سقطوا ، يقومون بسرعة .

داود سقط ، ولكنه قام بسرعة ، وبقوة ، لأن الأصل من الداخل سليم . وبطرس انكر المسيح ، ولكنه بكي بكاءاً مراً وتاب ، وذلك لأن الأصل سليم ، القلب من الداخل فيه محبة للرب (يـــو21 : 16) . الأخطاء بالنسبة إلى هؤلاء القديسين كانت أخطاء عارضة . أما القلب فهو طاهر من الداخل . ولـــذلك يمكننا أن نقول عن أخطائهم إنها :

كانت خطايا ضعف ، وليست أخطاء خيانة للرب .

وكان هذا هو الفارق الأساسي بين خطية بطرس وخطية يهوذا . بطرس أخطأ عن ضعف . ويهـــوذا أخطأ عن خيانة . والذي يخطئ عن ضعف ، يقوم بسرعة ، كما قيل " الصديق يسقط سبع مرات في اليوم ويقوم " (أم24 : 16) .

إن محبتك لله ، هي التى تجعلك تتوب وتستمر في التوبة .

أما محبتك للخطية ، فإنها تجعلك ــ مهما تبت ــ ترجع إلى الخطية مرة أخري وتســـتمر فيهـــا . إذن سبب الاستمرار هنا أو هناك ، إنما راجع إلى قلبك وإلى أين يتجه ...

فالذي يجعل الصديقين يقومون ، هو القلب الحب لله . وبسبب هذا القلب ، مهمـــا ســـقطوا ، فـــإنهم " يجددون قوة . يرفعون أجنحة كالنسور ... يمشون ولا يعيون " (اش40 : 31) .

عمقوا جذوركم في الحياة مع الله ، مدوها إلى أسفل ، قبل أن ترفعوا الجزوع والفروع إلى أعلى .

لأن العمق الداخلي هو الذي يسند الارتفاع إلى فوق . مثل راهب يدخل الرهبنة حديثاً . يلح علـــى أب اعترافه لكي يسمح له بأصوام طويلة ، بمئات المطانيات ، بطقس شديد في الوحدة والصمت ... فيقول له أبوه الروحي : انتظر يا أبني حتى نهتم بالداخل

أولاً : نضع أساساً من التواضع والوداعة واللطف في معاملة الناس ، والمحبة الحقيقية من نحو الله . وعلى هذا الأساس نبني ...

اهتم إذن بحياتك كيف تبنيها من الداخل ، قبل أن تبنيها من الخارج .

تبنيها بالعمق ، قبل أن تبنيها بالارتفاع .

تبنيها بتصحيح الدوافع ، قبل أن تبنيها بتغير المظاهر .

لا يكفي فقط أن تترك الخطية ، إنما بالأكثر ابحث عن أسبابها وتخلص من هذه الأسباب ، حتى لا تقع مرة أخري . فبهذا يمكنك ــ إن تبت ــ أن تستمر في التوبة . فهكذا قال السيد المسيح " اذكر من أين سقطت وتب " (رؤ2 : 5) . انزع الأشواك التي تحيط بك ، حتى إذا زرعك يستمر نموه ، ولا تحنقه الأشواك .

ادخل إلى أعماقك ، ونظف وصحح كل ما فيها ...

كثيرون يبدأون حياتهم الروحية بالتغصب ، وبالضغط على أرادتهم ، واجبار الـــنفس أن تســـلك فـــي الطريق الروحي . ونحن لا ننتقد هذا ، فهو لون من الجهاد الروحي اللازم .

ولكن لماذا التغصب ؟ لأن المحبة غير موجودة ...

أنت تغصب نفسك على عمل الفضيلة ، لأن محبة الفضيلة ليست موجودة في قلبك . فإن وصلت إلـــى هذه المحبة ، لا يبقى بعد تغصب ، بل تمارس الفضيلة بطريقة تلقائية بدون جهاد . ويمكنك أن تستمر فيها بدون خوف من السقوط

وأساس هذه المحبة ، هو إلى نريد أن نضعه في القلب ، لأنه صمام الأمن ...

إن العربة التي يكون محركها سليماً ، تسير من تلقاء ذاتها ، لا تحتاج إلى أناس يدفعونها بأيديهم إلى الأمام . إنما داخلها (موتورها) يحركها ... نصيحتي أن تهتم بداخلك ، لكي تحيا حياة روحية مستمرة . وإن لم تستطع أن تصل إلى المحبة ، اجعل مخافة الله أمام عينيك ، وقل مثلما كان يقول إيليا النبي " حي هو رب الجنود الذي أنا واقف أمامه " (1مل18 : 15) . وكلما تحارب بخطية ، قل لنفسك كما قال يوسف الصديق " كيف أعمل هذا الشر العظيم أخطئ إلى الله ؟ " (تك39 : 9) .

ولا تكن حياتك الروحية هي مجرد حياة مناسبات .

إن كان أسبوع نهضة روحية في الكنيسة ، تنهض روحك خلاله ، ثم تنجو بعد ذلك . إن كانت هناك مناسبة روحية مثل عيد رأس سنة ، أو يوم تناول ، أو قداس عيد سيدي ، ترتفع رو حياتك ثابتة ...! لا يليق أن تكون الأمور هكذا . إنما اجعل إيمانك الداخلي بالحياة مع الله ، هو الذي يدفعك باستمرار ، في كل يوم ، وكل ساعة ...

وكلما تبدأ صفحة بيضاء ، احرص أن تحتفظ ببياضها .

توجد صورة بهذه الصفحة
" ابعد ما بدأتم بالروح ، تكملون الآن بالجسد "

الفصل الثالث

مخافة الله والتغصب

محبة الله ومخافته .
فوائد المخافة .
أسباب عدم المخافة .
تداريب .
كيف نبدأ .
التغصب ولزومه .
التغصب والنمو .
التغصب فضيلة مرحلية .
فوائد التغصب .
نصائح وتداريب .

بدء الحكمة مخافة الله

نشكر الله الذي منحنا أن نعرف الطريق الروحي الذي يوصلنا إليه . كما وضع لنا علامات الطريق نستدل بها حتى لا نضل .
وقد جعل للطريق خطوات منتظمة . كل واحدة منها توصل إلى الأخري والكل يقود خطانا إلى الهدف الوحيد الذي هو الله .
فما هي نقطة البدء في الطريق الروحي إنها مخافة الله حسب قول الوحي الإلهي مرتين :
بدء الحكمة مخافة الله (أم9 : 1) .
رأس الحكمة مخافة الله (مز111 : 10) .

محبة الله ومخافته

ولكن البعض قد لا يروقهم الحديث عن مخافة الله . وقد اعتادوا أن نكملها باستمرار عن محبته . وفي الواقع أن محبة الله لا تعارض مطلقاً مع مخافته . إنما هي درجة أعلي منها تجتازها ولكن محتفظة بها . تماماً مثل تلميذ وصل إلى المرحلة الجامعية . واجتاز مرحلة القراءة والكتابة والحساب . ولكنه لا يزال محتفظاً بهذه المعلومات لا يستغني عنها . ولكن الذين يهربون من مخافة الله يحتجون بقول القديس يوحنا الرسول .
" لا خوف في المحبة . بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج " (1يو4 : 18) . وللرد على هذا نقول : من منا وصل إلى هذه المحبة الكاملة ؟! المحبة التي تحب بها الرب من كل قلبك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك " (تث6 : 5) (متى22 : 37) المحبة التي تملك كل مشاعرك حتي ما تعود تحب شيئاً في العالم موقتاً أن " محبة العالم عداوة لله " (يع4 : 4) . وأنه " إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب " (1يو2 : 15) .
هل وصلت إلى هذه الدرجة ؟ وهل وصلت إلى الحب الإلهي ... الذي يجعلك تصلي كل حين ولا تمل (لو18 : 1) ، بل تصلي بكل عواطفك وأنت في عمق الحب وعمق التأمل ؟
إن وصلت إلى هذه الدرجة فلن تخاف ، لأن حبك الكامل لله يطرح الخوف إلى خارج . أما إن كنت لم تصل إلى محبة الكاملة . فلا تدعيها لنفسك . ولا تنسب نتائجها الروحية إلى مستواك .
إن كنت لا تزال تخطئ وتسقط وتبتعد أحياناً عن الله . فلا تنسب إلى ذاتك المحبة الكاملة . وإن كنت تفتر أحياناً في رو حياتك . ولست عميقاً في صلواتك وتأملاتك . فلا شك أنك لم تصل بعد إلى المحبة الكاملة ويفيدك جداً أن تعيش في المخافة . وثق أن مخافة الله هي الطريق الذي يوصلك إلى المحبة .
إن كنت تخاف الله ، فسوف تخاف أن تخطئ لكي لا تتعرض لعقوبة الله ولغضبة ... وسوف تخاف من السقوط ، لأن الخطية تفصلك عن الله وملائكته ، وتفصلك عن الملكوت ومجمع القديسين .
لذلك فإن مخافة الله تدفعك إلى حفظ الوصايا ... وكلما سلكت في طريق الله ستشعر يقيناً بلذة في الحياة الروحية ، وتفرح بوصايا الله كمن وجد غنائم كثيرة (مز119) . وتفرح بالقائلين لك إلى بيت الرب نذهب وسوف تفرح بهذه الحياة الروحية . وتقول للرب " محبوب هو أسمك يارب فهو طول النهار تلاوتي " (مز119 : 97) . وهكذا تنتقل تدريجياً من المخافة إلى المحبة ، ثم تنمو في المحبة حتى تصل إلى المحبة الكاملة ، فيزول الخوف . إن الله الذي خلق طبيعتنا ، والذي يعرف ضعفنا وميلنا للسقوط ، كما يعرف قدرة عدونا الشيطان الذي يجول كأسد يزأر ملتمساً من يبتلعه هو (1بط5

: 8) ... إلهنا هذا يعرف تماماً مقدار الفائدة الروحية التي تكمن في المخافة . لذلك قدم لنا هذه الفضيلة حتى ننتفع بها . وحتى نتدرج منها إلى المحبة تدرجاً طبيعياً سهلاً ، ثم ننمو في المحبة .
فما هي الفوائد الروحية لمخافة الله ؟

أولاً : هي حصن من السقوط.

إنها رادع لنا يمنعنا من ارتكاب الخطية . فإن سقطنا ، تكون مخافة الله حافزاً لنا على التوبة ... نقول هذا لأن كثيرين من الذين قفزوا إلى محبة الله ــ دون أن يعبروا على مخافته ...
وأصبح كلامهم كله عن الله المحب العطوف المتأني ، الذي لم يصنع معنا حسب خطايانا ولم يجازنا حسب آثامنا (مز103 : 10) ... هؤلاء لم يفهموا المحبة فهماً سليماً . و لأنهم لم يتعودوا المخافة ، قادهم هذا إلى الاستهانة والاستهتار وعدم الاهتمام بالوصية ، وبالتالي إلى السقوط .
فما هي المحبة إذن ؟ إنها ليست مجرد مشاعر . فالرب يقول :ط من يحبني يحفظ وصاياي (يو14 : 3) . والقديس يوحنا الرسول الذي قال إن المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج ، هو نفسه الذي قال في نفس رسالته " لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق " (1يو3 : 18) .. فما هي هذه المحبة العملية ؟ إنه يقول " إن هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه " (1يو5 : 3) .. طبعاً نحفظها عن حب .. ولكن هذه درجة عالية ، يسبقها أن نحفظ الوصايا عن طريق المخافة ..
وطبيعة الناس هكذا : لم يولدوا قديسين ، بل جاهدوا بمخافة الله ، وبالتغصب وقهر النفس ، حتى وصلوا إلى المحبة . وهكذا يقول القديس بولس الرسول :

" مكملين القداسة في خوف الله " (2كو7 : 1) . وكيف نكمل القداسة في خوف الله ؟ وكيف نطيع أيضاً القديس بطرس الرسول في قوله " سيروا زمان غربتكم بخوف " (1بط1 : 17) .
يبدأ الإنسان حياته الروحية بالحرص الشديد من السقوط في الخطية ... يخاف من العثرات ومن الاغراءات ومن حروب الشياطين ، وغير مغتر بقوته ومقاومته ، واضعاً أمامه قول الرسول :
" لا تستكبر بل خف " (رو11 : 20) .
وهو أيضاً يخاف أن يغضب الله ، ويضع أمامه السيد المسيح له المجد " لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد .. بل خافوا بالحي من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم " (متى10 : 27) .
" نعم من هذا خافوا " (لو12 : 5) .
هذا هو الخوف من عقوبة الله ، يبدأ به الإنسان ، وقد يستمر معه طول الحياة .. وقد قال أحد الآباء :
أخاف من ثلاثة أوقات :
وقت خروج روحي من جسدي ، ووقت وقوفي أمام منبر الله العادل ، ووقت صدور الحكم على ...
ولا شك أن هذه الأوقات الثلاثة مخيفة لكل إنسان ، إلا للذين عاشوا في محبة الله الكاملة ، وتمتعوا بعشرته المقدسة في أعماقها ، ولم يعد ضميرهم يبكتهم على شئ .
أما الذي يخشي أن ينكشف في حياته شئ يوم تفتح الأسفار ، فهذا لابد أن يخاف .
والخير أن يخاف الإنسان ههنا ، من أن يخاف في يوم الدين ..
لأن خوفه ههنا ، إنما يقوده إلى التوبة وإلى الصلح مع الله إن أراد .
أما ذاك الخوف في يوم الدين ، فإنه خوف خرج عن حدود الإرادة البشرية . الخوف ههنا يعطينا حياة الخشوع ، وحياة الدموع ، ويعطينا الإرادة في الرجوع . ويكون سياجاً لنا في الطريق حتى لا ننحرف ... ونحن نقول في صلاة الشكر " امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس وكل أيام حياتنا ، بكل سلام مع مخافتك " .
عجيب أن أشخاصاً يخافون من الناس ، ولا يخافون الله .
يخافون أن يخطئوا أمام الناس لئلا يصغر قدرهم في أعينهم . ويخافون أن تنكشف خطاياهم أمام الناس . خوفاً من الفضيحة . ولكنهم مع ذلك يرتكبون أية خطية أمام الله بلا خوف مادام الأمر في خفية عن الناس .
إنهم يستغلون طيبة الله ومحبته !

ويستغلون إيمانهم برحمة الله وحنوه وتسامحه ومغفرته وقلبه الواسع الذي غفر للزانيـــة و لنـــاكر ... ويقودهم هذا للأسف الشديد إلى التساهل في كل حقوق لله عليهم ! ويعيشون في حياتهم الروحية بـــلا جدية ، وبلا التزام !
وكأن الله إن كان لا يعاتبنا ، ولا يعاقبنا ، فلا اهتمام من جانبنا .. ونصل بهذا إلى اللامبالاة ...
إن المحبة الكاملة التي تطرح الخوف هي للقديسين الكبار ، وليس للمبتدئين في التوبة أو المقصرين في رو حياتهم .
لذلك عش في مخافة الله ، ولا تقفز قفزاً إلى المحبة ، بطريقة نظرية تدعي فيها ما لـــيس لـــك .. ولا تحتقر مخافة الله كدرجة بسيطة لا تصلح لك !
إنما ثق تماماً أنك كنت أميناً في القليل الذي هو المخافة . فسيقيمك الله على الكثير الذي هو المحبـــة .
إذن في حياتك الروحية بنظام يوصلك إلى الله . وبخطوة سليمة تقودك إلى خطوة أخري بطريقة عملية . دون اشتهاء لمظهرية لها صورة الروحانية ولا توصلك !
إن قمة الحياة الروحية هي حقاً المحبة الكاملة . ولكنك لا تبدأ بالقمة . ابدأ بالمخافة . حينئذ تصل إلى القمة دون أن تعثر . وبخاصة في هذا الجيل المستهتر الذي كثرت فيه الخطية والـــذي كثـــرت فيـــه الشكوك والعثرات . والذي يوجد فيه من ينكرون وجود الله أحياناً ويخاصمونه !!
الذي فيه مخافة الله يتقدم كل يوم لأنه يخاف عدم الوصول إلى هدفه .
أما الذي ليست فيه مخافة الله فإنه عدم الوصول إلى اسفل ..
الذي يخاف الله يري طريق الكمال طويلاً جداً أمامه : فيحاول بكل جهد أن يصل . مثل تلميـــذ يجـــد أمامه مقرراً طويلاً لم يحصل منه عشرة ، فيخاف أن يدركه الامتحان دون أن ينتهي منه .. ويدفعـــه الخوف إلى مزيد من الجهد .
ونحن أمامنا منهج روحي طويل ــ يتلخص في كلمتين القداسة والكمال ــ قال لنا الرب " كونوا أنـــتم كاملين ، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل " (متى5 : 48) وقال أيضاً " كونوا قديســـين " .. فمن منا وصل إلى هذا المستوي . لذلك نخاف أن يدركنا الموت ولم نصل . ويـــدفعنا الخـــوف إلـــى الجهاد ...
لماذا إذن لا نسلك في مخافة الله ؟ هناك أسباب نذكر منها :
لا يخاف الإنسان الذي لم يفحص ذاته بعد ، ولم يعرف حقيقة وماضية ، وخطاياه وضـــعفاته . ولـــم يعرف المستوي الروحي المطلوب منه ، وما يلزمه من سعي ومن جهد . كذلك لا يخاف الذي لا يضع الدينونة أمام عينية . لذلك تذكرنا الكنيسة بهذه الحقيقة كل يوم في قطع صلاة النوم ، وفي قطع صلاة نصف الليل ، حتى نستيقظ من غفلتنا في الحياة .
كذلك لا يخاف الإنسان الذي تجرفه ــ دوامة العالم ــ فلا يعلم أين هو ؟!
يلفه العالم في طياته ، ويغرقه في لججه ، ويجره في مشغوليات لا تحصي بحيث لا يبقى له وقتاً يفكر فيه في مصيره ، أو وقتاً يفكر في روحيا ته . وقد يقع في عدم المخافة ، لأن الأوساط الخارجية التي تؤثر عليه ليست فيها مخافة الله فتساعده على السير بنفس الأسلوب .
والذي لم يصل إلى المخافة بعد ، كيف يمكنه أن يصل إلى المحبة ؟!
بل وكيف يمكنه أن يصل إلى المحبة الكاملة التي تطرح الخوف إلى خارج !!
إننا لا نخاف لأننا لا نضع الله أمام أعيننا ، فننساه وننسي وصاياه كما قال المزمور عن الخطاة " لـــم يسبقوا أن يجعلوا الله أمامهم " . وكذلك لأننا نفكر في هذا العالم الحاضر .. ولا نفكر مطلقاً في العالم الآخر وفي الدينونة . لذلك حسناً قال الكتاب إن القديس بولس الرسول لما تكلم عن البـــر والدينونـــة والتعفف ، ارتعب فيلكس الوالي (أع24 : 25) .
كذلك نصل إلى مخافة الله إن تذكرنا قول الرب لكل واحد من رعاة كنائس آسيا " أنا عارف أعمالك " (رؤ2 ، 3) .
هذه كلها أسباب تمنع المخافة .
ولكن هناك تداريب تساعدنا على اقتناء مخافة الله :

تداريب

1 ــ حاول أن تخاف الله . على الأقل كما تخاف الناس .
الشيء الذي تخاف أن تعلمه أمام الناس . لا تعلمه أمام الله .
والفكر الذي تخاف أن يعرفه الناس أو تخاف أن ينكشف عندما تفيق من التحذير ، هيا لا تفكر فيه أمام الله الذي يقرأ كل أفكارك ويفحصها .
وأعلم أن كل أفكارك ستنشف أمام الخليقة كلها في اليوم الأخير ، إلا التي تبت عنها ومحيت .
والخطايا الخفية التي تخجل من ارتكابها أمام الناس ، فتعلمها في الظلام ، حاول أن تخجل منها أمام الله الذي يراها . لتكن لله هيبة تجعلك تستحي منه ومن ارتكاب الخطية أمامه . أتخاف الناس ، ولا تخاف الله الذي خلق هؤلاء الناس من تراب . لهذا اسلك أمام الله في استيحاء . واعرف أنه ينظرك ويسمعك في وكل ما تفعله . كذلك احتفظ بهيبة كل ما يتعلق بالله وكل ما يخصه .
قف في صلاتك بكل توقير وخشوع لكي تدخل مخافة الله في قلبك ... وتذكر أنك تقف باحترام أمام رؤسائك .
فكيف لا تكون كذلك أمام الله أيضاً أعط هيبة لكتاب الله : فلا تضع شيئاً فوقة ولا تطالعه بغير احترام . وتذكر أن الشماس يصيح في الكنيسة قائلاً " قفوا بخوف من الله وانصتوا لسماع الإنجيل المقدس " .
وإن كنت تهاب كلام الله ، فسوف تهاب الله نفسه .
استح من ملائكة الله القديسين الذين حولك ، يرونك ويسمعونك . واعرف أن أخطاءك البشعة تفصلك عن عشرة الملائكة فينصرون عنك ، ويتركونك إلى اعدائك المحاربين لك . وعليك أن تخاف من هذا جداً . كذلك استح من أرواح القديسين الذين يرونك في الخطية ، هو وارواح معارفك ، وأصدقائك بل واعدائك الذين انتقلوا .
اسلك في مخافة الله لتصل إلى محبته . وتذكر قول الرسول " احبوا الأخوة ... خافوا الله " (1بط2 : 17) . وقول الملاك في سفر الرؤيا " خافوا الله واعطوه مجداً " (رؤ14 : 7) .
واعلم أن مخافة الله موجودة في العهد الجديد ... كما في العهد القديم ومحبة الله موجودة في العهد الجديد .
ها قد حدثتك عن مخافة الله ... ولكنها موضوع طويل أرجو أن اضع لك فيه كتاباً إن شاء الله ...

التغصب هو البداية العملية

كيف نبدأ

يختلف كثير من المرشدين الروحيين في تعريف ما هي الفضيلة التي تعتبر بداية للطريق الروحي .
فالبعض يقول إنها التوبة . لأن التوبة هي نقطة التحول في حياة الإنسان . يترك بها الماضي بكل أخطائه ويبدأ علاقة مع الله .
والبعض يقول إن نقطة البداية التي تسبق التوبة هي جلسة مع النفس ومحاسبتها . وبهذا بدأ القديس أوغسطينوس والإبن الضال .
والبعض يقول إن بداية الطريق وأساس الفضائل كلها . هو التواضع وانسحاق القلب . وهو الذي يقود إلى التوبة ويحفظها مستمرة .
والبعض يقول إن بداية الطريق الروحي هي المعرفة . وتأتي بخدمة الكلمة . وبها تنكشف للإنسان مبادئ وقيم . هي التي تؤثر على مفاهيمه وعلى مشاعره ، فيبدأ طريقاً جديداً يوصله إلى محاسبة النفس وإلى التوبة انسحاق القلب والتواضع . ولكن بعض القديسين يقولون إن المعرفة والجلوس مع

النفس والتأثيرات ، كلها أمور نظرية ، وقد تكون خارجية . ولكن الطريق العملي ، حتى داخل حياة التوبة ، هو التغصب أو الجهاد الروحي .

ما هو التغصب

التغصب هو أن يغصب الإنسان نفسه على السير في الطريق الروحي .
حقاً إن الحياة الروحية بمعناها السليم ، هي أن الإنسان يحب الله ويحب الخير ويحب الملكوت السماوي ، ويسلك في حياة البر والنقاوة بكل رضي القلب ، ويشعر بأن عشرته مع الله هي ملء السعادة وشهوة قلبه .
ولكن هل كل الناس يبدءون بهذا المستوي ؟ كلا ، بلا شك .
محبة الله قد تكون نهاية الطريق . أو قمة العلاقة مع الله . وليست هي نقطة البدء إنما قد يبدأ بالمخافة .. وكما قال الكتاب " بدء الحكمة مخافة الله " (أم9 : 10) .
يستيقظ الإنسان إلى نفسه ، فتبدأ مخافة الله تدخل إلى قلبه ، فيخاف من دينونة خطاياه ومن غضب الله ، ويخاف أن يأتيه الموت وه غير مستعد له .
وهذا الخوف يدعوه إلى أن يغير طريقه .
ولكن كيف يغير طريقة ؟
يغيره بالتغصب . لأن محبة الله لا تكون قد ملكت على قلبه منذ البداية . وهكذا يكون التغصب هو نقطة البداية العملية في الحياة الروحية . إنسان دخل جديداً في الطريق الروحي . لم يتدرب بعد على الصلاة ولم يتعود المكوث فيها طويلاً ، وليست له المشاعر الروحية التي تساعده على صلاة الحب والعاطفة والخشوع والتأمل . ولكنه يغصب نفسه على الصلاة وإن حروب بإنهائها يغصب نفسه على الاستمرار فيها .
يشعر بالليل أنه مثقل بالنوم : وأن متعب جسدياً ، وليست لدية قوة على الوقوف للصلاة ، وليست له رغبة في ذلك . ولكنه يغصب نفسه على ذلك واضعاً أمامه قول ماراسحق :
اغصب نفسك على صلاة الليل . وزدها مزامير . يغصب نفسه على الصلاة ، وعلى الوقوف أو الركوع أو السجود في الصلاة وتركيز فكره أيضاً ، مانعاً إياه من الشرود والسرحان .

التغصب والنمو

قال أحد الآباء : لو انتظرت إلى أن تصل إلى الصلاة الطاهرة . ثم بعد ذلك تصلي . فإلى الأبد ما تصلي .
وذلك لأن الصلاة الطاهرة ليست هي نقطة البدء ، إنما هي قمة العمل الروحي . أما أنت ، فاغصب نفسك على عمل الصلاة ، حتى لو كانت صلاة مثقلة بالنوم أو شاردة في الفكر ، أو بدون تأمل ...
ربما ينظر الله إلى تعبك وجهادك وصبرك وإصرارك . ويشرق عليك بنعمته . أو يرفعك درجة إليها ... ونفس الوضع نقوله بالنسبة إلى كل فضيلة من الفضائل ...
قد لا تبدأ ممارسة الصوم بمحبة للصوم و اشتياق إلى الجوع ، ولكنك تبدأ بأن تغصب نفسك على ذلك . وقد لا يكون لك اشتياق إل قراءة الكتاب المقدس والتأمل في كلماته ، ولكنك تغصب نفسك على القراءة .
وبالمثل تغصب نفسك على التوبة . وعلى الاعتراف . وعلى حضور الاجتماعات الروحية . كما تغصب نفسك على التسامح وعلى دفع العشور . وعلى تقديس يوم الرب وضبط اللسان ، وضبط الحواس . وهكذا أيضاً في الصمت ، وضبط الفكر . بل إنك إن لم تستطيع أن تغصب نفسك على مقاومة أخطاء اللسان ، فإنك تصلي قائلاً " ضع يارب حافظاً لفمي ، وباباً حيناً لشفتي " (مز141 : 3) .

فضيلة مرحلية

ولكن ، لعل سائلاً يسأل . وهل يقبل الله الفضيلة التي بتغصب وهي خالية من الحب ؟!
أقول أولاً : إنها ليست خالية من الحب . فلولا الحب ما كنت تفعلها . ولكنه حب مبتدئ ، تقاومه عادات النفس القديمة ، وتقاومه ارتباط بالمادة والجسد ، وتقاومه محاربات الشياطين ومعطلات عديدة... والله يقبل هذا التغصب باعتباره لواً من الجهاد الروحي . ومحاولة لقهر النفس ...
وقد قال سليمان الحكيم " من يملك نفسه ، خير ممن يملك مدينة " (أم16 : 32) . والله يعرف تماماً أن العمل الروحي ليس سهلاً هاى المبتدئين ، كما يعرف أيضاً ما يقابله من حسد الشياطين ، ومن مقاومتهم . ولعله من أجل غصب النفس على السير في الطريق الروحي ، قال الرب :
" ادخلوا من البابا الضيق .. ما أضيق الباب وأكرب الطريق . الذي يؤدي إلى الحياة . وقليلون هم الذين يجدونه " (متى7 : 13 ، 14) . ولكن الباب لا يستمر ضيقاً على طول الخط . إنما يكون في أوله . وكلما يمارس الإنسان العمل الروحي يجد فيه لذة ، ويجد فيه حياة جديدة تجذبه إليها . فيكلمه في حب ويسعي إليه في اشتياق قلب ...
وهكذا قد يبدأ الصلاة بتغصب وإذ يجده لذة روحية في الصلاة . يمارسها بعد ذلك بشوق وحب .
ولكن الشيطان يهزأ بالتغصب ، ويحاول أن يتخذه وسيلة لابطال العمل الروحي ..!
يقول لك : هل من الأدب الحديث مع الله ، أن تصلي هكذا بتغصب ؟! أين الحب الذي قال عنه داود النبي " باسمك أرفع يدي ، فتشبع نفسي كما من شحم ودسم " (مز63) . وحينئذ يدعوك أن توقف هذه الصلاة احتراماً لمثاليات الصلاة النقية المملوءة حباً وخشوعاً !! ومن المحال أن تبدأ بالكمال ...
المهم عند الشيطان أن يوقف صلاتك وبالمثل يوقف كل عمل روحي تعمله . وهو خلال ذلك يتهكم على هذا التغصب الذي ربما يكون هو السبب فيه ...
أما الله فإنه يري الحروف التي يتلفظها الطفل بلا معني ، هي أولي درجات الكلام في طريقة إلى الكمال ... ويري تحركات الطفل المتعثرة هي أول الخطوات في السير المنتظم والسريع . إن ابطال العالم في القفز وفي الجري وفي السباحة بدأوا طفولتهم بحركات متعثرة . ثم تدرجوا نحو الكمال .
لهذا نحن لا نتحتقر التغصب ولا يحقره الله ، بل يشجعه ، لكي ينمو ، ويسعي نحو الحب الإلهي ...
المهم أن التغصب لا يبقي تغصباً ، إنما يكون مجرد خطوة تتحرك إلى أفضل ..
لتأخذ مثالاً في التغصب الذي يتدرج إلى الحب .. العطاء .. يقول الكتاب المعطي المسرور يحبه الله (2كو9 : 7) .
فهل تمتنع عن العطاء . حتى تصل إلى درجة المعطي المسرور . أو المعطي بسخاء (رو12) وما ذنب الفقير أو المحتاج لعطائك . وأنت لم تصل بعد إلى هذه الدرجة ؟!
الوضع السليم أنك تعطي ، ولو تغصباً نفسك على دفع العشور من أجل الفقراء إليها . ثم تطور إلى أن تغصب نفسك أيضاً على دفع البكور ، والنذور ، وكل حقوق الله في مالك .. ومن هنا تتطور إلى أن تبذل كل مالك لأجل غيرك ، ولا تعود تتغصب في عطائك .. ولعلك تسأل كيف ؟
إنك كلما تلمس سعادة الناس وحل مشاكلهم بما تعطيه . حينئذ تنتقل هذه السعادة منهم إليك . وتشعر بفرح في العطاء فتعطي بسرور . وتعطي مرحلية .
وإن كان الله يعطي أجراً على المحبة التي في داخل كل فضيلة ، فهو أيضاً يعطي أجراً على التغصب ، غير ناس تعبك في الانتصار على المعوقات التي تأتيك من الخارج ، أو تأتيك من داخل نفسك ...
إنك بالتغصب تروض نفسك وتروض جسدك . وتروض أرادتك .
فالحيوان الذي يضعون النير على عنقه ، لكي يجر عربة أو محرثاً أو قصابية أو نورج ، قد يرفض أولاً ويتمنع ويهرب . ولكنه بالترويض ، يحني عنقه بكل راحه تحت النير لكي يؤدي عمله بهدوء ورضي . إن الرفض كان في مرحلة الابتداء ، والتذمر والهروب والرفض ، كان مرحلة وانتهت إلى الرضي ... فكم بالأولي الذي يرضي ينفذ ولو متغصباً ... إنها مسألة مرحلية .

وربما يدخل في التمرن على التغصب ، ما نسميه بالتداريب الروحية .
الإنسان في نضوجه الروحي يعمل الخير تلقائياً . أما المبتدئ فيحتاج إلى التداريب . وقد يفشل في تداريبه بعض الشيء في بادئ الأمر ولكنه بالتغصب والاصرار وبالجهاد الروحي يحول ما يدرب نفسه عليه إلى صفة ثابته فيه . يقول القديس بولس الرسول في جميع الأشياء قد تدربت أن اشبع وأن أجوع . أن استفضل وأن انقص (في4 : 12) . وكلما كان التدريب صعباً ، يكون الانتصار فيه ذا أجر أكبر . ففي التغصب تقوية لارادة الإنسان وتوجيه لهذه الإرادة نحو الخير .

فوائد التغصب

يصلح التغصب كثيراً في الانتصار على العادات الخاطئة التي عاشت في الإنسان مدة ، واخضعته وأذلته واستعبدته . وليس من السهل أن تطوعه وهو يقودها في اتجاه عكس اتجاهه السابق .
إن التغصب هو بلا شك ثورة على تدليل النفس ، أو هو حرب ضد الذات .
كلنا نعرف أن الإنسان ــ لو ترك نفسه إلى رغباته وشهواتها ، وإلى محبة الراحة والاسترخاء ، فأنه لا شك يضيعها . أما بالتغصب فإنه لا يترك نفسه إلى أهوائها ، بل يأمرها فتطيع فتخضع ، ولو يرغمها على غير ما تود ، إلى حين أن تصل إلى محبة الخير ومحبة الله ... إننا نستعمل التغصب أحياناً في تربية أطفالنا وأولادنا . لأننا لو دللناهم وتركناهم حسب هواهم لكانت النتيجة هي ضياعهم وهلاكهم . ونستعمل هذا الغصب لخيرهم ، إن فشلت طرق الحب والطيبة والحيلة والاقناع ...
يونان النبي لما لم يغصب نفسه إلى الطاعة غصب الله عليه . وبعد أن هرب من الله ، أمر الله حوتاً عظيماً فابتلعه بسرعة ولم يرجعوا إلى الله حباً ، فرجعوا إليه غصباً ، بتجارب وآلام منوعة .
وخير للإنسان أن يغصب نفسه بإرادته ، من أن تغصبه التجارب والأحداث .
الفرق بين القديسين والأشخاص العاديين ، أن القديسين غصبوا أنفسهم على الفضيلة في بادئ الأمر حتى تعودوها وأحبوها ... كانت لهم أجساد تجوع وتعطش ، وغصبوها على الصوم .
وكانت لهم أجساد تتعب ، ولكنهم غصبوها على السهر ، كما حدث مع القديس الأنبا بيشوى الذي قطع على نفسه عهداً حينما قال :
لا أدخل إلى مسكن بيتي ، ولا أصعد على سرير فراشي ، ولا أعطي لعيني نوماً ، ولا لأجفاني نعاساً ، ولا راحه لصدغي ، إلى أن أجد موضعاً للرب (مز131) .

نصائح وتداريب

لذلك لا تستجيبوا لمحبة الراحة ، ولا لنداء الرغبات ، ولا تدللوا أنفسكم واعرفوا أن التغصب سوف يستمر معكم ، فما أن تجدوا لذة في حياة الفضيلة حتى يزول التغصب تلقائياً وتبدأ حياة الحب ...
وفي كل ذلك ضعوا أمامكم قاعدة روحية هامة وهي :
إن أكبر حرب نجتازها في حياتنا الروحية ، هي الحرب ضد أنفسنا وإذا انتصرنا في الداخل ــ بالتغصب ــ سننتصر على كل حرب خارجية ..
لا تنفذوا كل فكر يأتي إليكم ، ولا أية رغبة تطرق قلوبكم . وإن لم تستطيعوا أن تمتنعوا ، أجلوا الأمر فترة من الوقت ، ثم اغصبوا أنفسكم على مداومة التأجيل ..
ربما خلال التأجيل تفتقدكم النعمة وتريحكم ...
واعملوا أن التغصب يدخل في وصية حمل الصليب التي أمر الرب (متى16 : 24) فهؤلاء هم الذين " صلبوا الجسد مع الأهواء " (غل5 : 24) .
حاول أن تعلن الثورة على ذاتك وعلى رغباتك . وإن تضع لنفسك نظاماً روحياً ثابتاً ، تغصب نفسك على تنفيذه . ولا تسامح مع نفسك بالتنفيذ ، بكثير من الاستثناءات التي توحي بعدم الجدية في العمل الروحي ، وبروح التراخي واللامبالاة .
إن مبدأ التغصب يظهر في قول الرب " إن أعثرتك عينك فاقلعها .. وإن أعثرتك يدك اليمني ، فافطعها والقها عنك " (متى5 : 29 ، 30) .

وهكذا تغصب ذاتك ، فلا تستسلم عينيك للنظر بل تمنعها . وكذلك يدك .
وهكذا في منع اللسان عن الكلام نري القديس يعقوب الرسول يستخدم عبارات : يلجم ، يلل ، يضبط .. وكلها عبارات تدل على التغصب .
من أجل التغصب ، وضعت الدول القوانين والعقوبات ووضع الله وصايا وأيضاً عقوبات .
والمطلوب روحياً أن يغصب الإنسان نفسه على ترك الشر ، وعلى عمل الخير ، قبل أن يغصبه القانون والوصية والعقوبة .
المطلوب أن ينبع الخير من داخل قلبه ، بإرادته ، بإكراهه لنفسه على ترك الخطأ دون أن يضطر إلى ذلك اضطراراً ، وبلا أجر ...
اجعل ضميرك هو الذي يغصبك وليس القانون . وارتفع فوق مستوي القانون ... لتصل إلى محبة الخير اغصب نفسك على عمل الخير قبل أن تغصب غيرك عليه . وإن أخطأت عاقب نفسك ، بدلاً من أن تأتيك العقوبة من الخارج .

الفصل الرابع :

السلوك الروحي واستقامته

السلوك بالروح .
هل الجسد خطية ؟
خضوع الجسد للروح .
الجسد والخطية .
الاهتمام بالروح .
علاقة روحك بروح الله .

معني الاستقامة .
الاستقامة ضد التطرف .
الاستقامة ضد الباطل .
الاستقامة ضد الرياء .
الخداع ضد الاستقامة .
التحاليل ضد الاستقامة .
الاستقامة والثقة .

السلوك الروحي

الإنسان الروحي يسلك حسب الروح : حسبما الروح يقوده ويرشده وليس حسب الجسد ، أي ليس حسب مشيئة الجسد ورغباته وماديته ...
والذي يسلك حسب الروح ، يكون مقبولاً أمام الله ، بينما الذي يسلك حسب الجسد يقع تحت الدينونة .
ولذلك قال القديس بولس الرسول : " لا شئ من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع ، السالكين ليس حسب الجسد ، بل حسب الروح " (رو8 : 1) .

المفروض في الإنسان الروحي أن يهتم بروحه : في غذائها وصحتها ونموها ...

يعطي روحه ما تحتاج إليه من غذاء يحفظها في قوة وفي نمو ، مثل كل وسائط النعمة من صلاة وصوم ، وقراءات روحية ، وتأمل ومطانيات واجتماعات روحية ، وخلوة روحية ، وارشاد روحي .
كما يحتاج أن ينمي روحه بحياة الفضيلة التي يسلك فيها وبالمحبة التي تربطه بالله وبحياة التوبة التي تحفظ روحه نقيه .

غير أن غالبية الناس يهتمون بأجسادهم إهتماماً كبيراً يفوق اهتمامهم بأرواحهم .

يضعون كل الاهتمام في الجسد وكل ما يختص به من مأكل وملبس ومسكن وترفيه وزينة ، بل يهتمون برغبات هذا الجسد ، وتحقيق شهواته وملاذه ، بشكل يشمل كل الفكر وكل العاطفة ، حتى لو تعارض هذا كله مع نقاوة أرواحهم .

وينسي كل هؤلاء قول الرسول : **اهتمام الجسد هو موت ، ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام ، اهتمام الجسد هو عداوة لله .. فالذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله ... (رو8 : 6 ، 8) .**

لذلك يسمون هؤلاء جسدانيين .. ولا يستطيع الجسدانيون أن يرثوا ملكوت الله ، لأنه ملكوت روحي ، يعيش فيه فقط ، الروحانيون السالكون حسب الروح .
ولذلك فعندما تكلم الرسول عن محبة العالم التي هي عداوة لله ، قال " لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة " (1يو2 : 16) . وهكذا وضع شهوة الجسد في مقدمة العالميات.
هنا نسأل سؤالاً يفرض نفسه : هل الجسد إذن خطية ؟

هل الجسد خطية

كلا ، إن الجسد ليس خطية ولا شراً ، وإلا ما كان الله يخلقه .
يكفي أن السيد المسيح أخذ جسداً وكذلك قال لنا الرسول : " ألستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل الروح القدس الذي فيكم " " ألستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء المسيح " (1كو6 : 19 ، 15) . فإن كان جسدنا كذلك فهو ليس شراً اطلاقاً .
وهذا الجسد سيقيمه الله في اليوم الأخير . جسداً روحانياً نورانياً (1كو15) . ونحن نكرم أجساد القديسين . ولو كان الجسد خطية ، ما كنا نكرم هذه الأجساد .

إن الجسد شئ مقدس ، نزل إلى ماء المعمودية وتدشن وصار طبيعة جديدة ، ومسح بزيت المسحة المقدسة في سر الميرون . وصار هيكلاً للرب (1كو2 : 16 ، 17) .

هذه هي النظرة السليمة التي نحترم بها الجسد ، وننظر إليه في وقار ، سواء كان جسدنا الخاص أو جسد آخرين .. متذكرين في ذلك قول الرسول " من يفسد هيكل الله فسيفسده الله " (1كو2 : 17) .
وقوله أيضاً " فمجدوا الله أجسادكم وفي أرواحكم التي هأى لله " (1كو6 : 20) .

إذن يمكن أن نمجد الله أجسادنا ونمجده بأجسادنا ...

أليس الجسد يشترك مع الروح في عبادة الله . الروح تصلي . والجسد يقف أو يركع أو يسجد أو يرفع أيادي طاهراً إلى فوق .

والجسد يصوم ، والجسد يبارك الله في المطانيات . والجسد يتعب في الخدمة ومعونة الآخرين ...

إن احترمنا الجسد هكذا ، لا يمكننا أن نمتهنه أو ندنسه في أنفسنا أو في الآخرين ..

ننظر إلى الجسد ككنيسة صغيرة مقدسة مدشنة بالميرون ، يسكنها روح الله .

والمفروض أن هذه الكنيسة تخرج منها تسابيح وصلوات وتراتيل ومزامير وأغاني روحية (أف5 : 19) ترتفع إلى الله كرائحة بخور . كما قال المرتل في المزمور : " فلتستقيم صلاتي كالبخور قدامك ، وليكن رفع يدي ذبيحة مسائية " (مز141 : 2) .

هذه هي النظرة الروحية إلى الجسد .

إذن الجسد ليس خطية ، إن استعملناه بطريقة روحية ، وفهمناه بطريقة روحية كشيء مقدس مثل جسد آدم وحواء قبل الخطية . ومثل أجساد الأبرار في القيامة العامة ومثل كل جسد مقدس من أجساد الأحياء يبارك الله .

كيف إذن نحتفظ بقداسة الجسد ؟

خضوع الجسد للروح

يكون الجسد مقدساً إن خضع لقيادة الروح ، ولم يدعها هي تخضع له .

إن حدث ذلك يسلك بطريقة روحية بل ينطبق عليه قول الرسول " اطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة .. ولا تشاكوا هذا الدهر " (رو12 : 1 ، 2) . إذن يمكن أن يكون الجسد ذبيحة حية مقدسة .. أما إن قاوم الروح ، ولم يخضع لها ، فحينئذ ينطبق عليه قول الكتاب :

" الجسد يشتهي ضد الروح ، والروح يشتهي ضد الجسد ، وهذان يقاوم أحدهما الآخر " (غل5 : 17) .

يقول الرسول هذا ، ليس عن كل جسد ، وإنما عن الأجساد الخاطئة المقاومة لعمل الروح ، والتي تشتهي ضد الروح ، والتي توقع الإنسان في صراع داخلي بين جسده وروحه ، ولكن القديسين ليسوا هكذا ، وإنما أجسادهم تشترك مع أرواحهم في العمل الروحي ، وتبذل ذاتها . لذلك يكافئ الله الجسد بأن يتنعم مع الروح بإخضاع الجسد ، فلا يسلك في طريق مادي بل في طريق روحي .

وهكذا قال القديس بولس الرسول " بل أقمع جسدي واستعبده ، حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً " (2كو9 : 27) .

وهكذا فعل كل الأباء في البراري والقفار ، حتى جسدهم تماماً للروح وشارك في عملها ، باصوام وأسهار وسجود ، وعدم اعطاء الجسد ما يشتهيه .

إذن ليس الجسد ذاته خطية ، إنما شهوات الجسد هي خطية .

وقد سقط أبوانا الأولان في شهوة الجسد ، حينما نظراً إلى شجرة معرفة الخير والشر ، فإذا الشجرة للأكل وبهجة للعيون وشهية للنظر (تك2 : 6) .

وبدأ الانحراف إلى اشتهاء كل ما هو مادي ، وما هو جسداني . وهنا يأتي تحذير الكتاب لنا ، بقول الرسول :

" لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون ، ولكن إن كنتم بالروح تمتون أعمال الجسد فستحيون " (رو8 : 13) .

ولهذا يدخل القديسون في أعمال الإماتة هذه شهوات الجسد وهكذا نطلب إلى الرب يسوع في صلاة الساعة التاسعة قائلين [أمت حواسنا الجسدانية] وإن ماتت الحواس الروحية وتتحرك بمحبة الله ، ولذلك يقول الكتاب :

" وأما أنتم فلستم في الجسد ، بل في الروح ، إن كان روح الله ساكناً فيكم " (رو8 : 9) .

وإن عاش الإنسان بالروح ، وفي الروح ، وصار الجسد خاضعاً ، فحينئذ يتمتع بحياة الانتصار كائناً واحداً ، وليس كيانين متضارعين ، بل على العكس لا يوجد فيه صراع داخلي بين الجسد والروح ، لأن جسده أصبح يشتهي ما تشتهيه روحه ، ويتعاون معها في كل أعمال البر .

وحينئذ لا يخطئ الجسد ...

الجسد والخطية

فالجسد الذي يخطئ ، هو الجسد المتمرد على الروح ، أو هو الجسد الذي يسيطر على الروح ويخضعها لرغباته ، فتتدنس معه وتفقد صورتها الإلهية ، وتقع معه تحت الدينونة في ذلك اليوم الرهيب .

والجسد الذي يخطئ ، إنما يدنس هيكلاً من هياكل الله .

لأن الجسد هو هيكل الله ، فإن أخطأ ، فيكون كمن يحطم كنيسة مقدسة كان روح الله يحل فيها .

وهو يتمرد ليس فقط على روحه ، إنما أيضاً على روح الله الساكن فيه .

وإن كان الإنسان الذي تنتصر فيه روحه ، وتقود الجسد معها إلى حياة القداسة يصير كملائكة الله في السماء . فإن الإنسان الذي يتمرد فيه الجسد على الروح ويقودها ، يصبح في مستوي الحيوانات .

والجسد الذي يعيش في شهواته ، إنما يعتبر ميتاً ، مهما كان ينبض بالحياة .

وكما قال الرسول " فالجسد ميت بسبب الخطية " (رو8 : 10) . ولذلك قال الرب راعي كنيسة سادرس " إن لك إسماً أنك حي وأنت ميت " (رؤ3 : 1) . وقال الرسول عن الأرملة المتنعمة فقد ماتت وهي حية " (1تى5 : 6) .

لأن الحياة الحقيقية هي في الله ومن ينفصل عن الله بالخطية ، يعتبر ميت ، وهو حي . وبهذا قال الآب عن الإبن الضال " أبني هذا كان ميتاً " (لو15 : 24) . والذي يتوب ، إنما يعود إلى حياة مرة أخرى . ولذلك قيل عن الإبن الضال في توبته " كان ميتاً فعاش " .

لهذا ينبغي أن يهتم الإنسان بروحه في ذلك بأبديته .

الاهتمام بالروح

يقول الرسو " اهتمام الروح هو حياة وسلام " (رو8 : 6) .

يضع أمامه أن له روحاً واحدة إن قادها في طريق الخلاص ، ربح كل شئ . وإن خسر هذه الروح ، خسر كل شئ . وكما قال السيد المسيح " ماذا ينتفع لو ربح العالم كله وخسر نفسه " .

الذي يسلك في طريق الروحي ، يضع كل اهتمامه في نقاوة روحه ، واتصال روحه بالله والسعي لأن ترث هذه الروح ملكوت الله في الأبدية السعيدة .

يسلك بالروح ، وينمو في الروح ، ويصبح إنساناً روحانياً .

يعود صورة الله ومثاله ، ويحتفظ بنفسه باستمرار صورة لله . فالروح هي النفخة التي نفخها الله في الإنسان ، فصار نفساً حية أما الجسد فهو العنصر الترابي ، لأن جبل من تراب الأرض . وبالسلوك بالروح يصير الإنسان شبة الملائكة ، ويكون له صداقة وعشرة مع الله وملائكته ومع العالم الروحي كله ، بل يصير هو ملاكاً عند الله .

تصبح تصرفاته روحية ، وكلماته كلمات روحية ، وكل علاقاته علاقات روحية ، وتسيطر الروح على كل حياته . لذلك تأمل يا أخي نفسك كيف تسلك : هل بالروح أم بالجسد ؟

فالكتاب يقول " اسلكوا بالروح ، فلا تكملوا شهوة الجسد " (غل5 : 16) . بل يقول بالأكثر " امتلئوا بالروح " (أف5 : 18) .
وهنا يبدو النمو في الحياة الروحية : من سلوك بالروح إلى امتلاء بالروح .

علاقة روحك بروح الله

الإنسان الروحي يخضع جسده لروحه ، وتخضع روحه لروح الله . ويصبح هذا دليلاً على بنوته لله . وفي هذا يقول الكتاب " لأن كل الذين ينقادون بروح الله ، فأولئك هم أبناء الله " (رو8 : 14) . وإن كان روح الله هو الذي يقوده فلن يخطئ ، والشرير لا يستطيع أن يمسه (1يو3 : 9) (1يو5 : 18) . حقاً بهذا " أولاد الله ظاهرون " .
ولا يقتصر الأمر على الناحية السلبية من جهة البعد عن الخطية ، وإنما إيجابياً تظهر فيه ثمار الروح. وهذه قال عنها الرسول " وأما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح إيمان وداعة تعفف " (غل5 : 22) . قال القديس بولس هذا عن السالكين بالروح " الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مه الأهواء والشهوات " (غل5 : 24) وقال بعدها مباشرة " إن كنا نعيش بالروح ، فلنسلك أيضاً بحسب الروح "
لأنه كيف نقول إننا أولاد الله ، إن كنا لا ننقاد بروح الله ؟ وكيف نقول إننا نعيش بالروح ، إن كانت لا تظهر في حياتنا ثمار الروح ؟
والذي ينقاد لروح الله ، لا يطفئ الروح ، ولا يحزن روح الله في داخله ولا يقاوم روح الله ، وإنما يستسلم تماماً لعمل الروح فيه . ويكون أداة طيعة للروح القدس ، يصنع الله به مشيئته المقدسة . لا يخون الله ويفتح أبواب قلبه أو فكره للخطيئة التي تقاوم عمل الروح . بل على العكس :

يشترك مع روح الله في العمل :

وبهذا يدخل في شركة الروح القدس (2كو13 : 14) ويكون شريكاً للطبيعة الإلهية (2بط1 : 4) في العمل لأجل خلاصه وخلاص الآخرين .

إذن فالسلوك بالروح ، هو سلوك بروحك وبروح الله .

وعندئذ تتجمل روحك بالفضائل ، وتستعد لمقابلة الله " كعروس مزينة لعريسها " . تتزين بالفضائل ، بالمحبة بالاتضاع بالإيمان بالتعب من أجل الله . تتزين بما قال عنه القديس بطرس الرسول " زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدام الله كثير الثمن " (1بط3 : 4) .
اهتم إذن بجمال روحك ، حتى عندما تخلع جسدك ، تكون روحك مقبولة في السماء . لها رائحة المسيح الذكية .
وتأخذ روحك حتى في هذا العالم هيبة أمام الشياطين .
" يسقط عن يسارك ألوف ، وعن يمينك ربوات ، وأما أنت فلا يقتربون إليك " (مز91 : 7) . أتريد إذن أن تختبر روحك وسلوكك بالروح ؟ إليك هذا السؤال :

هل أنت تخاف الشياطين ، أم أن الشياطين تخافك ، لسكنى روح الله فيك ؟

اسلك يا أخي بالروح ، وأنت تصل إلى هذا المستوى . وكل عمل تعمله تأكد من أن الله يشترك معك فيه بروحه القدوس . واحتفظ بسكني داخلك .

الأستقامه

معنى الأستقامة

الإنسان الروحي هو إنسان مستقيم في فكره ، وفي ضميره ، وفي سلوكه . أمام الله والناس .
فما معنى هذه الاستقامة ؟ وما علاماتها ؟ وكيف تكون ؟ وما محارباتها ؟ وكيف نميزها ؟
إن الإنسان المستقيم ، هو إنسان حقاني ، لا يسلك فب الباطل ، سواء إن كان يدري . ولا يجمع بين الحق والباطل ..!
يسير في طريق مستقيم لا ينحرف عنه .
وكما قال الوحي الإلهي " لا تمل يمنه ولا يسره " (أم4 : 27) . أي لا تنحرف ، سواء نحو اليمين أو نحو اليسار . لا يكن لك تطرف هنا أو تطرف هناك .

الاستقامة ضد التطرف

المبالغة في الطريق الروحي ، غير مقبولة : سواء كانت مبالغة في الكلام أو في الوصف ، أو في السلوك . فالمبالغة في الكلام نوع من الكذب المبالغة في الوصف ، ولا تعطي هذه ولا تلك صورة حقيقية عن الواقع .
والمبالغة في السلوك ليست مستقيمة لأنها لون من التطرف ، وقد تتحول إلى فريسة . وفي ذلك قال القديس بولس الرسول عن حياته السابقة فلإيمان " حسب مذهب عبادتنا الأضيق عشت فريسياً " (أع26 : 5) .. والذين يضيقون على نفوسهم ، يتعودون هذا التضييق على الآخرين !
وتكون أحكامهم ظالمة وقاسية وغير مستقيمة وقد وبخ السيد المسيح الكتبة والفريسيين على ذلك لأنهم يحملون الناس أحمالاً ثقيلة عسره الحمل (متى23 : 4) . وبهذا يقعون في خطية القسوة ، وأيضاً في خطية الإدانة ، بسبب التطرف غير المستقيم . وربما بهذا الأسلوب ، يصيرون ملكوت الله صعباً أمام الآخرين ، ويوقعونهم في اليأس إذا لم يستطيعوا وهكذا يغلقون ملكوت السموات أمام الناس . فما يدخلون هم ، ولا يجعلون الداخلين يدخلون (متى23 : 13) .
والتطرف ليس له ثبات ...
ربما يتطرف إنسان في طريقة صومه ويستمر على هذا فترة . وقد يظن أنه ارتفع إلى درجة روحية عالية ولكنه فجأة لا يستطيع أن يستمر . وقد يرجع إلى الوراء ، إلى مستوي أقل بكثير من الذين في الطريق بتؤدة وتدرج وهدوء .
وبالمثل التطرف في المطانيات ، وفي كل أعمال التقشف والنسك . وفي الصمت أيضاً ...
ففي البعد عن خطايا اللسان ، قد يتطرف الإنسان فيفرض على نفسه تدريب صمت عنيف ، لا يستطيع أن يستمر فيه ! كما أن هذا الصمت في تطرفه قد يوقعه في أخطاء عديدة جداً ، ويسئ معاملاته مع الناس . ولا يكون تصريفاً مستقيماً ...
إن الخط الذي يعلو ويهبك في غير استقرار ، ليس هو خطأ مستقيماً . ولا يتفق مع نصائح الآباء ...
فقد كان الآباء الروحيون ينصحون أبناءهم بعدم التطرف . لأن التطرف لا يتفق مع الحق من جهة ، كما أنه من جهة أخرى لا يتصف بالدوام . وقد يتحول فيه الشخص من الضد إلى الضد . وهذه الذبذبة في الحياة الروحية لا يتفق مع الاستقامة في المسيرة الروحية السليمة . لهذا كان الآباء ينصحون بالتدرج من بداءة سهلة ممكنه بعيدة عن العلو والافتخار ، تنمو قليلاً قليلاً حتى تصل . وكانوا يقولون:

قليل دائم ، خير من كثير متقطع : أي عمل روحي بسيط يبدأ الإنسان به ، راسخة ... فهذا أفضل بكثير من قفزة روحية عالية ، لا تستمر طويلاً ، ثم تعقبها رجعة إلى الوراء ...! إن القفزات في الحياة الروحية خطيرة وغير ثابتة . وغالباً ما يحصدها شيطان المجد الباطل ...
الاستقامة إذن هي ضد التطرف ، كما أنها أيضاً ضد الباطل ...

الأستقامة ضد الباطل

إن كان من الخطأ التطرف حتى فيما يظنه الإنسان خيراً ، فماذا نقول إذن عن الباطل والتطرف فيه ؟!
قد يسلك الإنسان في الباطل عن طريق الجهل ومع ذلك يحكم عليه بأنه غير مستقيم في سلوكه . إن طريقة غير مستقيم ، لأنه ضد الحق والبر ، سواء كان يعرف ذلك أو لا يعرف .. وما أعمق قول الكتاب " توجد طريق تظهر للإنسان مسقيمة ، وعاقبتها طرق الموت " (أم16 : 25 ، 14 : 12) .
إنها طرق غير مستقيم ، وعاقبتها الموت ، مهما بدت لصاحبها غير ذلك . إن الكبرياء قد تصور للإنسان أن كل تصرفاته مستقيمة ، وربما تكون الحقيقة عكس ذلك تماماً . وفي ذلك يقول الكتاب " طريق الجاهل مستقيم في عينيه " (أم12 : 15) . الأستقامة يلزمها قلب متضع ، يدرك خطأه ، ويصحح طريقه لكي يصير مستقيماً ...
أما المتكبر فيستمر في عدم استقامة لأنه يرفض الاعتراف بخطأ طريقه . وهكذا نرى الصلة القوية بين الاستقامة والاتضاع . ذلك لأن المتكبر لا يعرف حقيقته جيداً ، ولا يعرف سقطته أو لا يعترف بها . لذلك وصفه الكتاب بأنه جاهل ، وقال : طريق الجاهل مستقيم في عينية !
وقد يسلك الإنسان في الباطل نتيجة مرضه ، فيظن أن كثيرين ضده يضطهدونه ، فيكره البعض منهم ، ويقاوم البعض ، ويشتم هذا وذاك ، ويشكو من جميعهم ، وتتعقد نفسيته ، ويظن أن هناك أخطاراً تترصده ، حيث لا يوجد خطر على الإطلاق . ويفقد هذا الشخص استقامة سلوكه نتيجة لمرضه النفسي . حتى لو كان هذا الشخص في حالة من المرض لا توقعه في مسئولية . ولكن ذلك لا يمنع من أن السلوك غير مستقيم .
الباطل هو الباطل ، سواء أدين عليه صاحبة ، أم لم يدن . وربما الإنسان المريض نفسياً أو المريض عقلياً ، لا نقول عنه أنه غير مستقيم . ولكن نقول عن تصرفاته إنها غير مستقيمة . وقد يوجد إنسان يحاول أن يجمع بين الحق والباطل . وهذا أيضاً غير مستقيم .
فالباطل الذي يقع فيه أحياناً ، يشوه استقامة طريقة . ولا يمكن أن يتفق مع علامات الطريق الروحي . ولكنه إذا اعترف بأنه أخطأ وقوم طريقة ، فإننا نعتبرها خطية وقد تاب عنها . ولكن الخطر هو إنساناً يعتبر الباطل الذي فيه لوناً من الاستقامة !!
وذلك بأن يلبس الخطية ثوب الفضيلة ويعتبر أنه على حق في كل اخطائه ، بل لا يسميها للأمور !
ومثل هذا الشخص ، تصبح عدم الاستقامة الفكرية والضميرية عنده ، سبباً في استمرار عدم الاستقامة في سلوكه ، كطبع من طباعة ...!
ما أخطر عدم الاستقامة في الضمير حيث تختل كل موازين الإنسان وقيمه ويصبح حكمة على الأمور غير مستقيم ويفعل الخطية بضمير مستريح ، ولكنه ضمير مريض ، أو ضمير واسع ، أو ضمير غير مستقيم ...!
أمثال هؤلاء يحتاجون إلى توعية ... يحتاجون إلى تعليم روحي ، لاصلاح موازينهم الروحية . فالذين يقبلون التعليم منهم ، يكون هناك رجاء في عودتهم إلى الاستقامة ، فكرياً وضميرياً وسلوكاً .
والبعض قد يحاول الجمع بين الحق والباطل عن طريق الرياء !

الاستقامة ضد الرياء

هؤلاء يكون ظاهرهم من الخارج مستقيماً ، بينما هم في الداخل عكس ذلك . فيظهرون للناس أبراراً وهم خطاه . هم كالقبور المبيضة من الخارج وفي الداخل عظام نتنة ...

وبالرياء يجمعون بين نوعين من عدم الاستقامة : داخلهم الخاطئ غير مستقيم وتظاهرهم أيضاً بالاستقامة هو أيضاً عمل غير مستقيم .
ويقعون بهذا في خطية مزدوجة . لأنه إن كان من يفعل خيراً لكي يظهر للناس بره ، يكون قد وقع في خطيئة الرياء ، فكم بالأكثر الذي يكون غير مستقيم ، ويظهر أمام الناس وكأنه مستقيم وبار ، أي رياء مزدوج يكون هذا ؟ من هذا النوع يهوذا ، الذي كان يقبل السيد المسيح كصاحب له بينما كان بالقبلة يسلمه لأعدائه . أو كان يجلس قريباً منه ، يأكل معه ويغمس لقمته في نفس صفحته ، بينما هو قد قبض ثمن تآمره عليه ! إن خيانة يهوذا شئ . أما استمراره في صحبه المسيح ، مع تلاميذه ، يأكل معه ويأتي يقبله ، فهذا لون آخر من الطريق غير المستقيم الذي يظهر في الرياء والتظاهر بالحب ...
ومن هذا النوع كانت دليله مع شمشون ، نفس المزيج من الخيانة والرياء !
تتظاهر بالحب والدالة فيما تسلمه لأعدائه ! وبنفس الرياء وأكثر منه ، يسلك الشيطان ، حينما يتظاهر أنه يقدم لآدم وحواء طريق بينما هو يعمل على هلاكهما . ومعنا أيضاً بنفس الأسلوب ..
الإنسان المرائي يكون أحياناً ذا وجهين ولسانين ! ويلعب على حبال كثيرة ...
ولا يكون مستقيماً بذلك في تصرفه ولعل من هذا كان يريد أن يجمع بين بالاق بن صفور وبناء سبعة مذابح للرب (تك22 : 23) فهو يقول " كيف ألعن من لم يلعنه الله ؟! ...الذي يضعه الرب في فمي أحرص أن أتكلم به " (تك23 : 8 ، 12) وهو في نفس الوقت يقدم لبالاق النصيحة التي يهلك بها الشعب (رؤ2 : 14) .
وظن بلعام أنه يكفي أن لسانه لم تخرج منه لعنة للشعب ، بينما قلبه كان يسعي لهلاكهم ! أما الإنسان المستقيم ، فإن قلبه ولسانه يكونان معاً في خط واحد طاهر .
ولقد رفض السيد المسيح أن يكون القلب واللسان في طريقين متضادين . وورد العبارة التي قيلت عن الشعب في العهد القديم " هذا الشعب يكرمني بشفتيه . أما قلبه فمبتعد عني بعيداً " (متى15 : 8 ؛ 29 : 13) .
الإنسان المستقيم : إن قال كلمة حب أو مديح بشفتيه ، يكون قلبه أيضاً بنفس المشاعر ...
لا تناقض إطلاقاً بين القلب واللسان فهذا التناقض دليل على عدم الاستقامة .
وفي هذا التناقض يقع الذين يستخدمون كلمات التملق ، والمديح الكاذب ، وكلمات النفاق ...
ووقع في هذا الخطأ الأنبياء الكذبة الذين كانوا يقولون لأخاب الملك أنه سينتصر " (1مل22 : 13 ، 22) .
الإنسان المستقيم لا تقوده سياسات وأغراض ، ولا تغير ضميره ولا لسانه .
فلا يسلك في الرياء من أجل غرض يحققه أو شهرة يحصل عليها ، أو انضماماً لتيار معين . إنما هو هو : من الداخل كما من الخارج .
ليس هو شخصين ، بل شخص واحد لا يخالف ضميره ، ليتكلم بما يرضي الناس ولا يقول إلا ما يؤمن في قلبه إنه حق .
الرياء ضد الاستقامة لأنه محاولة للجمع بين طريقين متضادين ، بأسلوب الخداع ...

الخداع ضد الأستقامة

لم يكن يعقوب مستقيماً ، حينما خدع أباه اسحق ، وقال له أنا بكرك عيسو " (تك26 : 18) . ولم يكن مستقيماً حينما ليس جلد جدي ماعز ولم تكن أمه رفقة مستقيمة حينما نصحته بكل هذا وقالت له لعنتك على (تك26 : 13) .
ولم يكن أخوة يوسف مستقيمين حينما خدعوا أباهم يعقوب ، حينما غمسوا قميص يوسف الملون في دم ماعز ليظن أبوه أن وحشاً قد افترسه (تك37 : 31 ــ 33) .

الإنسان المستقيم إنسان صريح وواضح لا يكذب ولا يخادع ولا يصل إلى أغراضه عن طريق الخداع ، ولا يحل مشاكله بالخداع . ويري أن الخادع طريق غير مستقيم ، يحتقر ذاته إن أوصله إلى غرض .

الخداع ضد الحق . [redacted] .

وإن كان له غرض يحب أن يصل إليه ، فليكن ذلك عن طريق مستقيم .

لأنه يؤمن ، ليس فقط باستقامة الغرض والهدف ، وإنما أيضاً باستقامة الوسيلة ولذلك فهو يرفض التحايل .

التحايل ضد الأستقامة

الإنسان غير المستقيم ، إذا لم توصله استقامة الوسلية ، يلجأ إلى الحيلة . فإن لم يجد حيلة سليمة ، فإنه يلجأ إلى التحايل ...

ومن ضمن ذلك : اللف والدوران : عن الخط المنحني خطأ مستقيماً والخط الدائري ليس كذلك خطأ مستقيماً يرفض كل طرق اللف والدوران ، التي يحاول أن يخفي بها غرضه ليصل باسلوب غير ملحوظ ...

لذلك فهو يرفض أيضاً سياسة السبب الثاني والثالث ...

هذه التي يستخدمها البعض ، مخفين السبب الأول أو السبب الحقيقي ، ومقدمين أسباباً أخري ثانوية أقل أهمية ، ربما السبب الثاني أو الثالث أو الرابع ، من أمور قد يهتم بها السامع ، ولا علاقة لها بالموضوع ، وذلك لكي ينالوا موافقته بأية الطرق !

إن السبب الثاني ، حتى لو كان حقاً ، ليس هو صدق خالص وذلك باعطائة أهمية له تخدع السامع ..! واستخدمه نوع من التحايل .

وكذلك أيضاً المبالغة سواء في تقييم الأشياء ونوعياتها ، أو المبالغة في وصف منافعها أو مضارها ، لكي توصل السامع إلى اقتناع معين ما يلبث أن يكتشف زيفه بعد حين ...!

كلها أساليب لا تتفق مع الاستقامة ولا تتفق مع احترام المتكلم لضميره ولا مع احترامه لضمائر الناس

الأستقامة والثقة

الإنسان المستقيم هو موضع ثقة كل من يعاشره ، أو يتحدث إليه ...

واستقامته تعطي فكرة عن روحياته وتدينة . فالاستقامة ليست مجرد فضيلة اجتماعية ...

إنما هي إحدي معالم الطريق الروحي وتكون عند الروحيين بمستوي أعلى وأعمق . نقول ذلك لأنه قد يحدث أن البعض يعيشون في جو الخدمة داخل الكنيسة ويكونون قد استبقوا معهم بعض أساليب العالم الخاطئة يحققون بها أهدافهم الكنيسة .

فيخدمون ، ويستخدمون في داخل الخدمة أساليب غير مستقيمة تكون عثرة لغيرهم !

على أن الإنسان الروحي يحتاج باستمرار أن يعود نفسه على الاستقامة مهما كلف ذلك من ثمن ، ومهما بذل في سبيله ... بل حتى لو ظن أنه يخسر أحياناً بسبب استقامته أسلوبه في التعامل وفي الخدمة ... إنها قد تكون خسارة مادية ، ولكنها مكسب روحي .

وعليه أن يرفض كل مكسب أو نفع عن طريق غير مستقيم ، شاعراً أنه ليس من الله .. ولا يستاهل مطلقاً في هذا الأمر ولا يشترك مع الذين يتساهلون .

إن أبدية الإنسان أهم من أية منفعة عالمية كذلك قدوته كإبن لله ، وعضو في جسد المسيح ، يجب أن تكون بلا لوم أمام الكل .

بهذا يعيش ضميره سعيداً ، ويعيش الناس مطمئنين له .

وعلينا أن نضع أمامنا قدوات الآباء القديسين ، ونسلك في خطاهم .

الفصل الخامس

القيم والإلتزام

الغرض والوسيلة
معني النجاح .
الاهتمام بالأبدية .
الروح والجسد .
الصلاة .
أنت والغير .
الراحة والتعب .

الالتزام .
الالتزام بالعهود .
عدم الالتزام .
صفات الملتزم .

II القيم والتقيم الروحي

لفظة " قيم " من الناحية اللغوية ، هي كلمة جمع مفردها قيمة ، وتعني الأشياء ذات القيمة التي تقود الإنسان في حياته . واصطلاحاً بها الأمور السامية ذات القيمة التي يهتم بها كل من يتبع طريقاً فاضلاً ، ويتمسك بها كمبادئ يبدأ بها كل عمل يعمله .

فما هي الأشياء التي لها قيمة في تقديرك ، والتي تقودك في حياتك ؟

إن الناس يختلفون من جهة القيم . فالإنسان الروحي له قيم عالية يضعها أمامه باستمرار . بينما هناك أشخاص في العالم يعيشون بلا قيم ، أو لهم قيم أخري غير روحية ، أو لهم تقيمهم الخاص للأمور . وبناء عليه يتبعون منهجاً آخر في الحياة وسبلاً أخري .

في قلب كل إنسان يوجد اهتمام بشئ معين له القيمة الأولي في تقديره الخاص . ومن أجل هذا الشيء يبذل كل جهده ، وفيه يركز كل عاطفته .

فهناك من يركز جهده في المال ويعطيه كل القيمة وهناك من يركز القيمة كلها في الشهرة أو العظمة .. وهناك من يجعل القيمة كلها في النجاح أو التفوق ...

وبحسب هذا التركيز قد تختفي القيم السامية التي ربما يفكر فيها اطلاقاً .

وهنا يقف أمامنا موضوع هام هو :

الغرض والوسيلة

إنسان قد يضع أمامه غرضاً معيناً كل القيمة ، وربما في سبيل ذلك لا يهتم مطلقاً بنوعية الوسيلة الموصلة إليه .

فلا مانع مثلاً من الكذب والخداع والغش والحيلة لكي يصل إلى غرضه ، أياً كان هذا الغرض . فإن وصل بفرحة النجاح .. حتى إن كان قد ارتفع على جثث غيره ، أو كانت راحته قائمة على تعب الآخرين ...

لا شك أن هذا إنسان وصولي يعيش بلا قيم ، قد فقد الغرض والوسيلة كليهما .

والإنسان الروحي لابد أن يضع أمامه غرضاً صالحاً . ولابد أن تكون وسائله إلى هذا الغرض الصالح ، هي وسائل صالحة أيضاً .

فهكذا يكون أصحاب القيم والمبادئ وهنا نتعرض لمعني آخر هو :

معني النجاح

كل إنسان يشتاق إلى النجاح . ويمثل النجاح إحدى القيم التي يضعها أمامه .

ولكن ما هو النجاح ؟

ونقصد النجاح بمعناه الحقيقي ...

ذلك لأن الأشرار يفرحون أيضاً إذا ما نجحوا في تحقيق الشر الذي يزيدونه . وكل صاحب غرض يفرح بنجاحه في الوصول إلى غرضه مهما كان خاطئاً . ونحن لا نقصد النجاح بهذا المعني .

النجاح هو أن تنتصر على نفسك ، لا أن تنتصر على غيرك .

والنجاح هو أن تصل إلى نقاوة القلب وليس فقط إلى تحقيق أغراضك أياً كانت .

والنجاح هو أن تصل إلى ملكوت الله في قلبك . وكل غرض آخر لك يكون داخل هذا الملكوت .

فإن خرج نجاحك عن هذه القيم ، يكون فشلاً لا نجاح .
لذلك كثيراً ما يفرح إنسان قد نجح ، بينما السماء قد ترثي لحاله .
وقد يظن أنه نجح في أمر من أمور هذا العالم الحاضر ، بينما يكون قد خسر أبديته .
وهنا لابد أن نعرض لإحدى القيم الهامة ، ولعلها أهمها ، وهي :

الاهتمام بالأبدية

الإنسان الروحي يكون اهتمامه الأول هو بأبديته . وينمو في هذا الشعور ، حتى تشغل الأبدية كل اهتمامه ويصبح تفكيره مركزاً في مصيره الأبدي .
تصير الأبدية صاحبة القيم الأولى في حياته . وكل عمل أو غرض يتعارض مع أبديته ، يرفضه رفضاً كاملاً ، ولا يقبل في ذلك نقاشاً . ويعتبر حياته الحاضرة مجرد تمهيد يوصل إلى الأبدية .

وهذا الاهتمام بالأبدية يجعل لحياته اتجاهاً روحياً طاهراً ، ثابتاً في الله ، حريصاً على محبته وحفظ وصاياه .

هذا الاتجاه الروحي يفقده الذين جعلوا القيمة الأولي لحياتهم في العالم ، من حيث المركز والمتعة . فانشغلوا بالعالميات انشغالاً ملك كل تفكيرهم ، وأنساهم تلك الحياة الأبدية . ولقد قدم لنا السيد المسيح مبدأ روحانياً نضعه نصب أعيننا في طريقنا الروحي وهو :

" ماذا ينتفع الإنسان ، لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟! أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه ؟ " (متى 16 : 26) .

ليتك تسأل نفسك أيها القارئ العزيز : ما هي قيمة الأبدية في حياتك ؟ هل هي إحدى القيم الأساسية التي تحرص عليها ، ولا تبرح ذاكرتك في أي وقت ؟ أم أنت لا نفكر فيها على الإطلاق ؟ تشغلك عنها اهتمامات كثيرة ، ناسياً قول الرب لمرثا :

" أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة . ولكن الحاجة إلى واحد " (لو 10 : 42) .

ما هي هذه الأمور الكثيرة من أمور العالم التي تنال منك اهتماماً وتقييماً أكثر من أبديتك ؟! أما آن وان أن تصلح موازينك الروحية ، وتعيد تقييمك للأمور ، حتى تنال ما يليق بها من اهتمام وتركيز ، في قلبك وفي فكرك وفي توزيع وقتك ؟

وحينما نتكلم عن الأبدية ، إنما نقصد الأبدية بالنسبة إليك ، وأيضاً بالنسبة إلى غيرك ...

أي نقصد تقييمك لأهمية ملكوت الله فيك ، وفي سائر الناس ...
نقصد مدي حرصك أن تكون داخل هذا الملكوت ، وأن يكون كل من تعرفه داخل دائرة الملكوت أيضاً . وهنا تبرز الغيرة المقدسة والخدمة كعلامة هامة من معالم الطريق الروحي ، وكإحدى القيم التي تقود حياتك .

وكلما ترتفع قيمة الأبدية في فكرك وفي قلبك ، على هذا الحد تصغر وتتضاءل قيمة العالم في نظرك .

وهذه أيضاً واحدة من معالم الطريق الروحي : أن لا تعطي تقييماً لشيء من أمور هذا العالم ، واضعاً أمامك قول الرسول " لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الأب " (1يو 2 : 15) .
ليتك تسأل نفسك في صراحة : ما هو تقييم العالم في نظرك ؟

هل هو حياتك ومتعتك وشهواتك ؟ هل هو جميل بدرجة أنك لا تستغني عما فيه من متع وملاذ وتحزن أن فارقته ؟!
أم العالم وكل الأشياء التي فيه ، هي مجرد " نفاية " كما رآها القديس بولس الرسول ؟ (في3 : 8) .
لقد جرب سليمان الحكيم الأمرين كليهما الأمرين : جرب النظر إلى العالم كمتعة ، فقال " مهما اشتهته عيناي ، لم أمنعه عنها " (جا2 : 10) . ولما فقد هذا العالم قيمته في نظره ، قال عنه إنه كله " باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس " (جا2 : 11) .

فما هي قيمة العالم في نظرك ؟ حسب تقييمك له ، سيكون تعاملك معه .

هل هو تافه وباطل وقبض الريح ؟ أم هو شهوة تجتذبك بعنف ؟ شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة (1يو2 : 16) .
ليتك في تقييمك للعالم ، تؤمن ببطلانه ، وتثق بأنه يبيد وشهوته معه (1يو2 : 17) .

هذه هي بعض القيم التي ينبغي أن تؤمن بها . وقد كان النسك والزهد نابعين من الإيمان بهذه القيم .

والرهبنة أيضاً نبعت من هذا القيم ، وكذلك البتولية . بل أن الاستشهاد نفسه كان ثمرة للإيمان بقيم معينة ، من جهة الأبدية والأيمان بتفاهة العالم .
ولقد جرب القديس أوغسطينوس شهوات العالم الكثيرة . ولكن لما زالت قيمته في نظره استطاع أن يقول : جلست على قمة العالم ، أحسست في نفسي أني لا أشتهي شيئاً ولا أخاف شيئاً .

إذن لكي تقتاد إنساناً إلى محبة الله ، عليك أن تصلح موازينه ، وتصحح قيمة ونظرته إلى الأمور

لذلك حسناً قال الرسول " تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم " (رو12 : 2) . وماذا يكون تغيير الذهن سوي تغيير مفاهيمه وتصحيح قيمة ؟ لكي تستقيم نظرته إلى الأمور ، وتأخذ اتجاهاً روحياً ...
وهنا نسأل عن تقييمك لكي من احتياجات الروح والجسد .

الروح والجسد

لا شك أن غالبية الناس يقدمون كل الاهتمام أو غالبيته لأجسادهم . فيهتمون بطعام الجسد ، وبصحته ، وقوته وجماله . ويطعونه ما يحتاج إليه من غذاء ومن دواء ومن علاج ، ومن راحة ونشاط واستجمام .. ويهتمون نفس الاهتمام بأجساد أبنائهم وأقاربهم وصحتهم .
أما الروح فلا تأخذ نفس الاهتمام . لأن تقييم احتياجات الروح الكافئ ، ولا الاهتمام بكل ما تحتاج إليه من تقوية ، ومن رياضة روحية ، ومن سائر المنشطات الروحية كالقراءة والتأمل والتراتيل و الاجتماعات والصلاة والتدرايب الروحية .
إن التقييم الذي للروح هو الذي يحدد مسلكنا في الحياة ...
وهو الذي يجعلنا نهتم بالقيم الروحية وبالوسائل الروحية التي تنمينا روحياً وتدفعنا إلى التقدم لإحدي القيم الروحية وهو :

الصلاة

ما هو تقييمك للصلاة ؟ ...
هل هي مجرد معونة لك في وقت الضيق ؟ تلجأ إليها " حينما تحتاج " إلى الله !!
أم هي فرض عليك ، إذا لم تؤده تشعر بتأنيب ضمير ، لمجرد التقصير ؟
أم هي غذاء روحي لازم لك ، إن لم تتناوله تفتر في حياتك الروحية ؟
أم هي متعة ، تشعر بحلاوة مذاقها ، فتنسي الدنيا وكل ما فيها ، وتود لو طال بك الوقت في الحديث مع الله ؟

حسب تقييمك للصلاة ، تكون درجة روحانيتك فيها ، وتكون أيضاً قدرتك على الاستمرار في عمل الصلاة .

اختبر إذن نفسك في الصلاة ، واختبر التقييم السليم لها .
وإن استطعت أن تعرف قيمة الصلاة الحقيقية ، ستصير لك ــ كما قال القديسون ــ كالنفس الصاعد والهابط ، ترافقك حيثما كنت ، ولا تستطيع مطلقاً أن تستغني عنها .

عيبنا أحياناً أننا نضع للذراع البشري تقييماً من الصلاة ...!

لذلك نفضل أن نعتمد على جهادنا وعلى ذكائنا وخبرتنا ، أكثر مما نعتمد على الصلاة . ولهذا السبب وأمثاله ، كثيراً ما نضع الصلاة في آخر اهتماماتنا ...! فنصلي إن وجدنا وقتاً للصلاة ، أو إن تذكرنا الصلاة أو ذكرنا بها أحد !!

وكل ذلك لأن الصلاة لم تأخذ منا التقييم الذي تستحقه . وهكذا الحال مع كل الوسائط الروحية الأخرى!

بل إن حياتك مع الله ربما تحتاج كلها إلى إعادة تقييم .

لكي تشعر بأهمية الله بالنسبة إليك ، وأهمية حياتك معه فتعيد تدبير حياتك بناء على تقييم أمثل ..وإن كانت حياتك مع الله يلزمها هذا الأمر ، فلا شك أن علاقتك مع غيرك من الناس أيضاً تحتاج إلى تقييم.

أنت والغير

ما هي قيمة الإنسان في نظرك ؟

هل تنتظر إلى كل إنسان باعتباره أخاً لك في البشرية ، تحبه ، ويهمك أمره ، هل تهتم بكل أحد ، كما يهتم الله بالكل ، طبعاً حسب حدود قدراتك ؟ .

هل تحرص على مشاعر الناس ، كل الناس ؟ وهل تقدر قيمة النفس ، أي نفس؟

هل كل إنسان نفسه ثمينة عندك ؟ وهل كل إنسان نفسه تماماً كنفسك ، تحب له ما تحبه لنفسك ، وتحرص عليه وعلى مصالحة كما تحرص على أغز أحبائك . ما يصيبه يصيبك ، وما يفرحه يفرحك ، وما يسيئه يسيئك ؟

هذه هي إحدى القيم التي يحافظ عليها الإنسان الروحي ، أعني تقديره لقيمة النفس البشرية ، وحرصه الشديد في المحافظة على حقوق وعلى مشاعر كل أحد .

أنك يا أخي ، لو ارتفعت قيمة الإنسان في نظرك ، لوجدت نفسك بالضرورة تحترم كل إنسان ، ولا تجرؤ أن تجرح شعور إنسان ما . ولا تجرؤ أن تخطئ إلى أحد ، ولا أن تخطئ مع أحد وتعثره ... تخاف أن يطالبك الله بدمه في اليوم الأخير .

أنا أعرف أنك تهتم بمشاعر الكبار ، ولكنك قد تتجاهل الصغار وتنساهم .

أما الله ، هو إله الكل ، يهتم بالسيد كما يهتم بالخادم ، ويهتم بالكبير وبالصغير ، وبالعاقل وبالجاهل . يشرق شميه على الأبرار والأشرار ويمطر على الصالحين والطالحين .
ليس أحد منسياً عند الله ...
كل نفس هي عزيزة عنده ، يرعاها كراع صالح يبذل نفسه عن الخراف (يو10) . فكن أنت هكذا ، لأن الله ترك لك مثالاً...
لو صار للإنسان هذه القيمة في نظرك ، ستحترم حرية الناس ، وستحترم حقوقهم . لا تغضب أحداً ، ولا تغصب أحداً ، ولا تظلم أحداً ، ولا تضر أحداً ، ولا تشتهر بسمعه أحد . بل تشمل بمحبتك الكل ...

وقيمة النفس البشرية تدعوك إلى الخدمة ، وإلى بذل نفسك من أجل خلاص الآخرين ...
فالذي يؤمن بقيمة النفس الواحدة ، يقول مع بولس الرسول " من يضعف وأنا لا أضعف ؟ من يعثر وأنا لا ألتهب " (2كو11 : 29) . ويتذكر كيف أن السيد الرب ذهب يبحث عن النفس الواحدة ، التي لم تضع في زحمة المجموع ، ولم تفقد قيمتها في وجود التسعة والتسعين (لو15 : 4 ــ 7) .
إنه يتعب من أجل كل نفس .
هنا ونعرض لنقطة أخيرة هي :

الراحة والتعب

الإنسان العادي يهمه أن يستريح ، ولو تعب الناس ... أما صاحب القيم فيجد راحته الحقيقية في أن يتعب هو ليستريح الناس .
الراحة عنده هي أن يربح غيره لا نفسه . والراحة في مفهومه هي راحة ضميره وليس راحة جسده .
وهو يدرك تماماً أن الراحة الحقيقية هي الراحة الأبدية ، وليست الراحة على هذه الأرض .
وكل إنسان في الأبدية " سيأخذ أجرته بحسب تعبه " ههنا (1كو3 : 8) .
لذلك فإن التعب من أجل الخير هو إحدى القيم التي يهتم بها الإنسان الروحي ، وهو أحد معالم الطريق .
اكتفي بهذا الآن لأن الموضوع طويل ...

الالتزام

من أهم معالم الطريق الروحي : الالتزام والإنسان غير الملتزم ليس هو أنساناً روحياً على الإطلاق .
الإنسان الروحي يلتزم بكل كلمة يقولها ، وبكل وعد يعد به ، وبكل اتفاق يبرمه مع آخرين ، وبكل نظام يخضع له ، وبكل عهد بينه وبين الله .
كما أنه يلتزم معينة وقيم وأخلاقيات . وقواعد روحية يتبعها ...
أنه يحيا حياة على مستوي المسئولية ولذلك فهو محترم من الكل إن قال كلمة تكون عند الناس لها أهميتها ووزنها ، بل تكون أفضل من أي اتفاق مكتوب وموثق . بل حتى إن يقل كلمة ، وهز رأسه بعلامة الموافقة ، يدركون تماماً أنه سليتزم بهذه الموافقة ، دون شهود ، ودون إمضاء ...
التزامه دليل على الرجولة ، واحترام الكلمة ، واحترام الوعد والاتفاق . إنه سلوك شريف ...
إنه يلتزم بما يقرره وما يرفضه على نفسه . كما يلتزم بما يفرض عليه من جهة النظام العام ، ومن جهة المبادئ الروحية . وكذلك يشعر بأن هناك التزاماً بينه وبين الله في طاعته وحفظ وصاياه .
والكتاب المقدس يضرب لنا أمثلة رائعة في فضيلة الالتزام .
إبراهيم أبو الأباء التزم بحياة الطاعة ، فنفذها بكل ما فيها من صعوبة .
أطاع الله حينما دعي أن يترك أهله وعشيرته ، ويسير وراء الله دون أن يعلم إلى أين يذهب (عب11 : 8) . ووصل التزامه بالطاعة إلى أعلى مستوياته حينما قدم غبنه الوحيد محرقة ، وهو الذي قبل المواعيد من اجله ...
ويفتاح الجلعادي كان نفذه في احترام لعهده مع الرب (قض11 : 34 ، 35) .
وعكس إبراهيم ويفتاح ، كان شمشون الذي لم يلتزم بنذره ، فيضيع نفسه وفقد قوته وسباه أعداؤه وصار مثلاً (قض16 : 17) .

الالتزام بالعهود

الإنسان الروحي يلتزم بعهوده للرب فهل أنت قد وفيت بكل عهودك ؟
أول عهد كان بينك وبين الله ، هو تعهدك في يوم معموديتك أن تجحد الشيطان وكل حيلة وشروره وكل جنوده وكل أعماله الرديئة . فهل أنت مازلت ملتزماً بهذا العهد عملياً ؟ .
وأنت في كل اعتراف وتوبة تتعهد أمام الله أن تترك الخطية ولا تعود إليها . فهل التزمت بهذا ؟
وأنت في كل يوم للتناول ، تتعهد تعهدات كثيرة . أتراك تذكرها ؟ وهل نفذتها ، ام لم تكن ملتزماً .
وكم من مرة وقعت في ضيقة شديدة ، وتعهدت أمام الله إن هو أنقذك ان تفعل كذا وكذا ... هل أنت ملتزم بكل ما تعهدت به أمام الله في ضيقتك .
هوذا داود النبي يقول " أوفي للرب نذوري قدام كل شعبه " (مز115) فهل أنت كذلك ، التزمت بكل نذورك ؟ أم تراك بعد ان تنذر ، تعود وتراجع فكرك ! وقد تؤجل الوفاء بالنذر ، أو تغيره ، أو تنساه..!
بل هل أنت ملتزم بما تقول الله في صلواتك ؟ إنك تقول في كل صلاة " اغفر لنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا " فهل أنت حقاً كما تقول ، أم أنك غير ملتزم بكلمات صلاتك ؟1 راجع كل ما تقوله في الصلاة ، وطبقة على حياتك العملية ، وانظر أين أنت .
كم عيد رأس سنة مر عليك ، ووقفت أمام الله تعد وتتعهد ... وكم مناسبة مقدسة وقفت فيها قدام الله تتكلم . وكم من فترات روحية مرت بك في اشتعال القلب بالتوبة ، وقلت لله وعوداً وعهوداً ، ولم تلتزم بشيء . ولسان حالك ما قيل في قصيدة " أيها النجم " .

كم وعدت الله وعداً حانثاً
ليتني من خوف ضعفي لم أعد .

عدم الألتزام

إن عدم الالتزام فيه لون من اللامبالاة ومن التسيب ، والتحليل من كل رباط ، وكل شرط ، وكل اتفاق ، بطريقة لا تدعو إلى الاحترام . وعدم الإلتزام ليس فيه أي شعور بالمسئولية ، ولا بالجدية . بل هو دليل على الضعف .
وعدم الإلتزام ظهر من بدء الخليقة فأبوانا الأولان لم يلتزما بالوصية التي سمعاها من الله ، فطردهما من الجنة . ورأينا كم جرا على البشرية من ويلات بسبب عدم التزامها هذا ...
وبنو إسرائيل أيضاً وقعوا في عدم الألتزام على أبعد الحدود . فحينما قدم لهم موسى النبي وصايا الله العشر ، صاحوا كلهم قائلين لموسى " كل ما يكلمك به الرب إلهنا نسمع ونعمل " (تث5 : 27) .
فهل التزاما بهذا التعهد ؟ أم بعد حين عبدوا العجل الذهبي " خر32 " ؟
وهل التزم بهذه العبارة أي جيل من أجيال البشرية ؟! ما أجمل قول داود النبي ، تعهدات فمي باركها يارب .
أتعني هذه الطلبة " اعطني يارب روح الالتزام ، حتى انفذ كل هذه التعهدات ، ولا أحنث بوعودي "..؟
إن كانت اتفاقاتنا مع الناس يجب علينا تنفيذها بروح الالتزام ، فكم بالأكثر تكون اتفاقاتنا مع الله ؟!
ولكن غير الملتزم أن يغطى عدم التزامه بكثر من الأعذار والحجج والأسباب ليفلت من المسئولية .
ما أكثر أنه يعتذر بالعوائق والموانع ، أو بأن الأمر خرج عن نطاق إرادته وقدرته ، أو أن الظروف لم تسمح ، أو أنه قد نسي ، أو لم يجد الوقت ، ولم يجد الإمكانية ... وغالباً ما يكون السبب الحقيقي هو أنه لم يتعود أن يحيا الالتزام ، وأن يحترم كلمته .
أما الإنسان الروحي الملتزم ، فإنه يبذل كل جهده للانتصار على العوائق . إنه ينفذ التزام مهما حدث ، ومهما كانت الصعوبة ، كرجل على مستوي المسئولية . بل أنمه يشعر باحتقار لنفسه في داخله ، حينما يقدم عذراً لإعفائه من التزامه ...

لذلك فأنت تشعر بالراحة حينما تعمل مع إنسان يتميز بالالتزام.

إن اتفقت معه على شئ ، توقع تماماً أنك سائر في طريق مضمون ، لابد سيأتي بنتيجة سليمة ... إنك في عملك مع الملتزمين ، تنام مستريحاً واثقاً بأنك تعمل مع إنسان يقدر الموقف ، ويحترم اتفاقاته . غير ملتزم يسلك حسب هواه ، ولا يبالي بأمر أو نظام ، ويحاول أن يتحلل من كل ما يراه قيداً .

إنه يسلك بغير التزام ، سواء في حياته الروحية . بل قد لا يقبل الخضوع لشئ من النظام العام ، شاعراً بأن هذه هي حريته الخاصة ، مهما كسرت هذه الحرية في طيقها من نظم أو قواعد . لذلك فإن غير الملتزم لا يفهم بشيء ، ومعتقداً أن النظم هي قيود تقيد فكره وارادته ، بينما الحرية الحقيقية هي أن يتحرر من الشهوات والرغبات والعادات التي تستعبده .

وإذ يتحلل من الالتزام باسم الحرية ، يضطر المجتمع أن يلزمه بالقوة فيخرج من الالتزام إلى الإلزام . وهكذا تلزمه القوانين والعقوبة ، ويحتاج من المجتمع إلى مراقبة ومحاسبة ومتابعة وتفتيش . فإن أصر على عدم التزامه يتعرض للجزاء فيضطر أن يلتزم على الرغم منه وتصبح طاعته خضوعاً للإلزام وليس حباً للالتزام .

أما في المحيط الروحي والكنسي ، فإنه في غمرة المناقشات ومحبة الجدل ، قد يقول البعض : وما جدوى الالتزام ، ونحن نعيش في النعمة ولسنا تحت الناموس ؟

إن النعمة لا تتعارض مع الالتزام فالذي ارتفع فوق مستوي متطلبات الناموس بالنعمة ، هذا لا يطالبونه بناموس . أما الذي هو أقل من ذلك فإنه مطالب .

مثال ذلك الشعور ... أنت غير مطالب بناموس العشور ، إذا كنت تدفع أكثر منها بمبدأ " من سألك فاعطه ، ومن طلب منك فلا ترده " أو " بع كل مالك أعطه للفقراء " هذا هو مستوي النعمة . فإن كنت لم تصل إليه فأنت ملتزم بالعشور ...

كذلك قد يعارض البعض في الصلوات السبع اليومية كأنها ناموس . إن كنت قد ارتفعت فوق هذا المستوي ، ووصلت إلى الصلاة بلا أنقطاع أو الصلاة كل حين ، أو صارت من الصلوات السبع ، فأنت لاشك ملتزم بها . وهى تعلمك الصلاة الدائمة .

ليتنا يا أخوتي نعيش جميعاً في حياة الالتزام ، لأنها تشمل داخلها حياة الطاعة وحياة الاتضاع . وكذلك فيها الجدية والتدقيق ، وفيها مخافة الله . لأن كل الفضائل مرتبطة بعضها بالبعض الآخر .

صفات الملتزم

إن الملتزم يحترم نفسه ، ويحترم كلمته ، ويحترم وعوده ، ويحترم علاقاته مع الناس . والتزامه يولد الثقة فيه وفي عمله وتصرفاته ...

إنه موضع تقدير من الكل . يدركون جميعاً أنه يمكنهم الاعتماد عليه ، ويمكنهم الثقة بكلمته ، والتعاون معه . لأنه من النوع الذي يصمد أمام العوائق ، وينتصر على العقبات ، ولو أدي الأمر أن يضغط على نفسه ويحتمل ، لكي ينفذ ما ألتزم به . وهو لا يلتزم بالعمل فقط ، وإنما أيضاً بنوعيه ممتازة في أدائه .

لذلك فالملتزم دائماً يحالفه ويشعر أن عمله وحسن أدائه ونجاحه فيه ، كل هذا جزء من ضميره ، وجزء من شرفه ، ومن احترامه لنفسه .

وهو يهتم حرجاً له ولكل المتعاونين والمتضامنين معه ... فيجنبه كل ذلك في وفائه بالتزامه . وهو خارج محيط العمل مع الناس ، يسلك بالتزام في حياته الخاصة وفي كل ما يمس روحياته ...

إنه يكون ملتزماً في كل نظام يصنعه لنفسه ، أو يضعه له أب اعترافه . وهو ملتزم بكل التداريب الروحية التي يسلك فيها .

هو ملتزم أيضاً في نظام صلواته وأصوامه " ومطانياته " وقراءاته الروحية ، لا يحيد عنها . ولا ينقص منها ، ولا يضع أعذاراً لتبرير التقصير فيها . ولا يجد في الظروف الخارجية منفذاً يخرج منه إلى عدم الالتزام .

لذلك فالملتزم يكون باستمرار قدوة ودرساً لغيره يتعلمون من حياته الجدية .

بعكس غير الملتزم الذي يصبح قدوة سيئة تعثر الآخرين . وقد ينتج عنها أن يقلده غيره في عدم إلتزامه ، فترتبك الأمور . ويتعلم أولئك تبرير تقصيرهم !.
والملتزم يحرص على كل طاقاته ، لكي يستطيع الوفاء بالتزاماته ... فهو يحرص كل الحرص على وقته ، لأنه ملتزم بخدمة أو بمواعيد ليس من عادته أن يقصر فيها ... أو إنه يحرص على هذا الوقت لكي يستغله في اتقان عمل عهد به إليه . إنه لا يضيع جهده وقوته ووقته في تفاهات تعرض له أو في تسليات . لأنه إن سلك في هذا الطريق لا يمكنه أن يفي بما التزم به .
والملتزم يذكر نفسه دائماً ، حتى لا ينسى شيئاً من التزامه . إنه لا يعترف بالنسيان حجة تعذره إذا قصر . لذلك فهو يسجل في مفكرته ما عليه من مسئوليات ، ويتابع قراءتها لكي لا ينسى ...
وهو في خدمته أيضاً يسلك بروح الالتزام الذ يجب أن يتصف به كل خادم روحي ناجح .
إنه يلتزم بمواعيد الخدمة ، فلا يتأخر عنها ولا ينساها . وهو يلتزم بالمنهج ، فلا يخرج عنه ولا يخترع له منهجاً خاصاً . وهو يلتزم أيضاً بتحضير درسه حتى يكون دسماً مشبعاً لسامعيه ، ولا يقصر في ذلك بحجة سابق معرفته ويلتزم كذلك باجتماع الخدام وبنظام الخدمة من كل ناحية .
والخادم الروحي يلتزم بالوقت الحاضرين ومواعيد الخاصة . كما يلتزم بموضوع العظة ، فلا يضيع الوقت في أمور جانبية لا علاقة لها به وهكذا فإن الخادم الملتزم بموضوع دقيقاً في كل شئ : في الوقت وفي مادة الموضوع .
والالتزام هو أيضاً عنصر أساسي في حياة الرعاة والكهنة . فيكونون ملتزمين بأداء كل واجبات عملهم الكنسي ، من خدمات طقسية ، وافتقاد للشعب كل الشعب ، ومواعيد للاعتراف ، ولزيارة المستشفيات والمرضي والحزانى . وهم أيضاً ملتزمون بواجباتهم نحو الفقراء والمحتاجين . وملتزمون بأن يقدموا أنفسهم مثالاً لكل فضيلة .
أما الراعي غير الملتزم ، فلا يري أمامه واجباً محدوداً عليه أداؤه . وهو في خدمته يعمل ما يحلو في عينيه دون التزام بشيء ، ودون خطة أو نظام ! .
والالتزام يدخل أيضاً في نطاق التعليم وفي نطاق العقيدة .
فكل إنسان يقف على منبر التعليم ، يكون ملتزماً بتعليم الكتاب وعقيدة الكنيسة ، فلا يقدم للسامعين فكره الخاص ، أو معتقداته الخاصة ، أو أمكنه جمعه من قراءاته الخاصة . إنما هو ملتزم أن يعمل ما يقوله الكتاب وما وصل إلى الكنيسة بالتقليد وفي ذلك قال القديس بولس الرسول لتلميذه الأسقف تيموثاوس " وما سمعته مني بشهود كثيرين ، أودعه أناساً أمناء يكونون أكفاء أن يعملوا آخرين أيضاً " (2تي2 : 2) .

لذلك فالإنسان الروحي هو ملتزم أيضاً بتعليم الكنيسة ونظمها وطقوسها وأصومها وصلواتها وكل قوانينها .

فلا يسلك في طريق ، والكنيسة كلها في طريق آخر . لأنه في التزام الجميع تجد وحده القلب ، ووحده الفكر ووحده العبادة ووحدة الإيمان .
لذلك فحياة الالتزام تناسبها أيضاً الاتضاع . لأن المتضع يخضع لما يوضع له من نظام . أما غير المتضع فيفسر الأمور حسب فكره .

الفصل السادس.

الحكمة والأفراز

أهمية الحكمة والإفراز
حكمة الله وحكمة العالم
مصادر الحكمة .
أهم مجال تلزمه .
الحكمة تعطي المفهوم السليم .
ما بين الذكاء والحكمة .
معطلات الحكمة .
الحكمة بين الصمت والكلام .
الحكمة بين الكآبة والفرح .
خطورة الآية الواحدة .
الإفراز في التداريب الروحية .
الإفراز في القراءة والتطبيق .
مثال الطيبة والحزم .
الإفراز بين الخوف والحب .

أهمية الحكمة والافراز

سئل القديس الأنبا أنطونيوس " ما هي أعظم الفضائل ؟ " فأجاب :

" الافراز هو بلا شك أعظم الفضائل " ومعنى الافراز هو الإنسان الحق من الباطل . ويميز الخير من الشر ...

لأن كثيراً من الناس يصومون ، ويصلون ، ويعترفون ، ويتناولون ، ويقرأون الكتاب المقدس ، ومع ذلك يفشلون في حياتهم الروحية ، لأنه ليس لديهم إفراز .. أي أنهم يمارسون كل ذلك بلا حكمة ، بلا فهم ، بلا تمييز .

فالمفروض في الإنسان أن يسلك في كل فضيلة بحكمة . يفهم أولاً معنى وكنه هذه الفضيلة ، ويعرف كيف يمارسها ، ومتى ... وهكذا يتخلل الافراز كل فضيلة ...

وقد قال الكتاب " الحكيم عيناه في رأسه ، أما الجاهل فيسلك في الظلام " (جا2 : 14) . وقد نبه السيد المسيح كثيراً إلى هذه الحكمة ، حتى قيل إنه مدح وكيل الظلم ، لأنه بحكمة صنع (لو16 : 18) وفي أهميته السلوك بحكمة ، قال :

" كونوا بسطاء كالحمام ، وحكماء كالحيات " (متى10 . 16) .

وهكذا سلك كل أولاد الله بحكمة في حياتهم وفي خدمتهم . ونري أن القديس بطرس الرسول امتدح الحكمة التي كان يبشر بها القديس بولس الرسول فقال " كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاة له " 2بط3 : 15) .

وكانت الحكمة شرطاً لازماً حتى في اختيار الخدام ، من درجة الشمامسة .

وهكذا في اختيار الشمامسة السبعة قال آباؤنا الرسل " انتخبوا أيها الرجال الأخوة سبعة رجال منكم مشوداً لهم ومملوئين من الروح القدس والحكمة ، فنقيمهم نحن على هذه الحاجة " (أع6 : 3 9 .

الحكمة من أسماء المسيح

ومن أهمية الحكمة إنها لقب من ألقاب الأقنوم الثاني من الثالوث القدوس .

فالرسول يتحدث عن السيد المسيح فيقول إنه " حكمة الله وقوة الله " (1كو1 : 24) ويقول ايضاً إنه : " المدخر فيه جميع كنوز الحكمة " (كو2 : 3) .

وقيل عنه في سفر الأمثال " الحكة بنت بيتها ، نحتت أعمدتها السبعة " (أم9 : 1) . يقصد اسرار الكنيسة السبعة .

الحكمة والروح القدس

إن الذي يسكن فيه روح الله ، لابد أن تسكن فيه الحكمة .

فقد قيل عن الروح القدس في سفر اشعياء النبي إنه روح الرب ــ روح الحكمة والفهم ، روح المشورة . روح المعرفة ... (اش11 : 2) .

قال عنه القديس بولس لأهل أفسس إنه " روح الحكمة والإعلان " وإن أخذوه ، تستنير عيون أذهانهم " (أف1 : 17 ، 18) .

وذكر الرسول أن الحكمة هي من مواهب الروح القدس (1كو12 : 8) .

حكمة الله وحكمة العالم

إننا نميز بين حكمة الله ومكر العالم كما قيل " الآخذ الحكماء بمكرهم " (1كو3 : 19) .

والقديس بولس الرسول شرح بتفصيل كبير الفرق بين حكمة الله ، وحكمة العالم التي تبيد (1كو1 : 19) . وقال إن " حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله " (1 كو3 : 19) . وسماها " حكمة الناس " (1كو2 : 5) وحكمة " حب الجسد " (1كو1 : 26) . " وحكمة من هذا الدهر " (1كو2 : 6) ... وعنها قال " إن الله اختار جهال هذا العالم ليخزي بهم الحكماء " (1كو1 : 27) .

وفي مقابل هذا ، تكلم عن الحكمة الروحية التي من الله ومن روحه .

فقال " لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر . نتكلم بحكمة الله في سر ، الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا " (1كو2 : 6 ، 7) .

وهذه الحكمة التي من الله ، قال عنها القديس يعقوب الرسول إنها " الحكمة التي من فوق " وشرح تفاصيلها .

فقال : " وأما الحكمة التي من فوق ، فهي أولاً طاهرة ، ثم مسالمة مترفقة مذعنة ، مملوءة رحمة ، وأثماراً صالحة " (يع3 : 17) . وفرق بينها وبين حكمة العالم التى وصفها بأنها " أرضية نفسانية ، شيطانية " (يع3 : 15) . وبأن منها " التخرب والغيرة والتشويش ، وكل أمر رديء " .

حكمة العالم فيها المكر والخبث ، وربما من وسائلها الكذب والخداع ، ولها كثير من السبل يدخل فيها الشيطان .

وهكذا سلكت الحية " أحيل جميع الحيوانات البرية " (تك3 : 1) . حينما خدعت أمنا حواء .. وهكذا سلكت أيضاً إيزابل زوجة الملك الشرير آخاب حينما دبرت له حيلة يمكنه بها أن يستولي ظلماً على حقل نابوت اليزرعيلى (1مل21 : 5 ــ 15) .

وبحكمة عالمية أيضاً سلكت أمنا رفقة لكي تحصل لأبنها يعقوب على بركة أبيه .

وكان ذلك بالكذب والخداع حتى أن يعقوب خاف وقال لها " ربما أجلب على نفسي لعنة لا بركة " (تك27 : 12) .

ليست كل وسيلة توصلك إلى غرضك هي وسيلة سليمة .

من العجيب أن طرق العالم كثيراً ما توصل بسرعة ... ولكنها غير مقبولة أمام الله .

أبونا إبراهيم أخذ قطورة زوجة ، فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحاً ... ومن هؤلاء ولد له شباً ، ودوان ، واشوريم ، لطوشيم ولاميم ، وآخرون (تك25 : 1 ــ 4) . ولكن لم يكن هؤلاء مقبولين أمام الله ... إنها نتيجة سريعة ، ولكنها وسيلة بشرية وغير مقبولة .

ومن أمثلة الحكمة البشرية غير المقبولة من الله مشورة اخيتوفل .

إنها ذكاء بشري يأتي بنتيجة ولكنه ذكاء شرير ، يصلي الأبرار أن ينجيهم الرب منه " 2صم15 : 31) .

وبالمثل : المشورة التى قدمها بلعام لبالاق (رؤ2 : 14) .

وبالمثل كل خدع الشيطان التي سيضل بها العالم في آخر الزمان وحيلة أيضاً في كل زمان .
إنه ذكاء ومعرفة ، وحيلة تأتي بنتيجة ، أو هي الحكمة الشيطانية التي ذكرها معلمنا يعقوب الرسول (يع3 : 15) .
وكل هذه أمور ينبغي أن نهرب منها ، وأن نرفض نتائجها مهما بدت في صالحنا .
ومهما قدم لنا الشيطان ، أو مهما قدم لنا ذكاؤنا البشري ... فكراً يبدو لنا صالحاً ، فلنرفضه ، إن كانت وسائلة غير سليمة ، أو إن كان غير روحي . والكتاب يحذرنا قائلاً " توجد طريق تبدو للإنسان مستقيمة ، وعاقبتها طرق الموت " (أم14 : 12 ــ أم16 ــ 25) .

مصادر الحكمة

أول مصدر هو الله ، بالصلاة ، وفي ذلك يقول الرسول :

" إن كان أحدكم تعوزه حكمة ، فيطلب من الله ... وليطلب بإيمان غير مرتاب البتة " (يع1 : 5، 6) .

وهكذا نحن باستمرار نطلب الإرشاد من الله ، نطلب إليه أن ينير عقولنا وقلوبنا ، ويلهمنا الحكمة من عنده ، ويعرفنا كيف نتصرف ... ومادامت " الحكمة نازلة من فوق " (يع3) فلنطلبها إذن من فوق .
والمصدر الثاني هو المشورة ، التي من أناس يتكلم الله على أفواههم .
وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول " اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله ... اطيعوا مرشديكم واخضعوا ، لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم ، كأنهم سوف يعطون حساباً " (عب13 : 7 ــ 17) .
وما أصدق تلك العبارة الجميلة التي تقول " الذين بلا مرشد يسقطون مثل أوراق الشجر .
والمصدر الثالث للحكمة هو طلبها من ذوي الحكمة والخبرة .
وفي ذلك قال الشاعر :

إذا كنت في حاجة مرسلاً
فارسل حكيماً ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى
فشاور لبيباً ولا تعصه

إذن لا تكفي المشورة ، وإنما المشورة ومعها الطاعة والتنفيذ .
وفي هذا المصدر قال الشاعر أيضاً :

فخذوا العلم على أربابه
واطلبوا الحكمة عند الحكماء

إذن ينبغي انتقاء المرشد الصالح الحكيم ، الذي تمتص منه الحكمة :

القديس الأنبا أنطونيوس في بدء رهبنته واسترشاده بالنساك ، كان كالنحلة التي تمتص عصيراً من كل زهرة .

كثيرون يطلبون الحكمة من إنسان واحد ، ويصبحون صورة كربونية منه أما القديس الأنبا أنطونيوس فكان يتعلم من شخص النسك ، ومن آخر الصلاة ، ومن الثالث أتضاع القلب ، ومن الرابع البشاشة ، ومن الخامس المعرفة ... وهكذا .

أهم مجال تلزمه الحكمة

في الواقع إن الأعمال تنقسم إلى أربعة أقسام : عمل هو خير واضح وعمل هو شر واضح . وربما كلاهما لا يحتاجان إلى إفراز .

أما النوع الثالث ، فهو يحتار أمامه الفكر : أهو خطأ أم صواب ؟ . أو يحتار أمام نتيجة أو وسيلته .

وهو في هذا الأمر يحتاج إلى الحكمة وإفراز ، أو على الأقل يحتاج إلى مشورة صالحة ، وإلى كلمة منفعة ، تنير الطريق قدامه ... وهنا تبدو فائدة الآباء الروحيين والمرشدين والحكماء .

والنوع الرابع الذي يحتاج إلى حكمة وإفراز هو التفصيل بين طريقين ، لا يدري الضمير أيهما أصلح.

وقد يكون كل من الأمرين خيراً في ذاته ، ولكن أيهما أكثر خيراً ؟ أو أيهما أكثر مناسبة لهذا الشخص بالذات . مثال ذلك الذي يقف حائراً أي الطريقين يختار لتكريس حياته : الرهبنة أم خدمة الكهنوت .

كلاهما خير ... ولكن أيهما أفضل له هو ؟ وأيهما يناسب طبيعته ؟

مثل هذه الأمور تحتاج إلى حكمة وإفراز ، وتحتاج إلى تباطؤ وريثما يفحص الإنسان ذاته ، وريثما يسمع صوت الله في قلبه ، أو صوت الله على فم أب حكيم ومرشد مخلص . يحتاج الأمر إلى حكمة فينا ، أو إلى حكمة في مرشدينا .

وهناك مجال آخر يحتاج إلى حكمة وإفراز . وهو طريقة الوصول إلى فضيلة معينة ، أو طريقة التدرج إليها .

فالفضائل واضحة ، مشروحة في الكتب الروحية ، ولكن ما هي نقطة البدء ؟ وما هي الطريقة المثلي لاكتسابها ... والبعض يندفع إليها بسرعة قد تأتي بنتيجة عكسية ، أو تأتي بنكسة روحية ، والبعض قد يسير ببطء ، ربما يؤدى إلى فتور أو كسل أو تراخ .

والعقل قد يقف حائراً بين حرارة السرعة ، وتباطؤ التدرج ، ويحتاج إلى حكمة: كيف يسلك ؟

والرد بأن السرعة أفضل ، أو التباطؤ ، ليس رداً سليماً . فحينما تكون هناك دفعة قوية من النعمة أو اشتعال من الروح القدس ، فهنا لا يجوز التوقف ... فهكذا حدث مع القديس الأنبا ميصائيل السائح ، ومع القديسين مكسيموس ودوماديوس ... وكل أمثال هؤلاء الذين وصلوا بسرعة . وفي حالات أخري قد يحسن التدرج .

يلزم الإفراز أيضاً في أمور معينة تبدو حساسة ومصيرية .

فقد يتصرف الإنسان بجهل تصرفاً يندم عليه كل أيام حياته ، وربما يرتكب غطلة تكون غلطة العمر كله ، ويبكي عليها طوال حياته : ولا ينفعه البكاء .

وكان الأمر يحتاج إلى حرص ، أو إلى حكمة ، أو إلى مشورة .

وأحياناً يتحمس الإنسان لتصرف معين ، حماساً يملك كل عواطفه ولا يكون هذا الحماس في صالحه ، وقد يندم عليه .

وقد يقول بعد فوات الفرصة : ليتني ما فعلت . ليتني تباطأت واسترشدت أو استمعت للمشورات التي رفضتها في حماس ...

لعل الأمر كان يحتاج إلى إفراز من جهة النظر إلى زوايا أخرى للموضوع أو التفكير في نتائج معينة .

لذلك فالمشورة تعطي وجهات النظر الأخرى ، أو تعطي رؤية من زوايا غير واضحة ، أو التبصرة بنتائج لم يعمل لها حساب .

وهناك نقطة أخري جوهرية يلزم لها الإفراز والحكمة ، وتتركز في المفهوم السليم لبعض الفضائل ، مفهوماً يعطيها تكاملاً مع باقي الفضائل مع بعد عن التطرف .

الحكمة تعطي المفهوم السليم

كثيراً ما يأتي إنسان ويسأل قائلاً : لقد سلكت مع الناس باتضاع وتسامح فكانت النتيجة أنني تعبت نفسياً ، وصرت هزأة في وسطهم .

وهنا قد لا يكون العيب في حياة ألا تضاع ، وإنما في السلوك في ألاتضاع بغير إفراز وبغير فهم .

ويكون مثل هذا الشخص محتاجاً إلى أن يفهم ما هو المعني الحقيقي للاتضاع وكيف يكون ؟ وكيف يكون ألاتضاع بحكمة وإفراز ، بحيث لا يؤدي إلى مثل هذا التعب النفسي ، وبحيث يكون راسخاً في القلب ، ولا يؤدي إلى نتائج سيئة .

لأن مثل هذا الشخص قد ينحرف إلى العكس بعد خبرته السيئة ، ويكره ألاتضاع ويسلك في عنف وفي تمسك بالكرامة الذاتية .

لاشك أن هناك فضائل كثيرة ، إن سلك فيها الإنسان بغير افراز ، تؤدي إلى نتائج غير متوقعة ، وربما تنتهي إلى ردة في الحياة الروحية ، وإلى انحراف عكسي ، أو إلى عقدة نفسية .. ويكون السبب في كل ذلك هو السلوك فيها بغير إفراز وبغير حكمة أو بتطرف واندفاع .

وذلك فإن كتاب بستان الرهبان ، وبعض الكتب الروحية ، وبعض المقالات التي تتحدث عن المثاليات ، وعن مستويات عليا ، تحتاج إلى مشورة في التنفيذ ، وإلى إفراز وحكمة .

لا تقرأ عن فضيلة ، ربما وصل إليها أحد القديسين بعد جهاد عشرات السنين ، وتعزم أنت تنفيذها في التو واللحظة ، على مستوي قمتها بدون تدرج ، وبدون إفراز وحكمة .

وتدخل تحت هذه النصيحة فضائل كثيرة نذكر من بينها :

1 ــ فضيلة الصمت ، والوحدة ...
2 ــ فضيلة الصوم والانقطاع وطئ الأيام .
3 ــ فضيلة ألا تضاع والمتكأ والأخير .
4 ــ فضيلة الدموع ، وانسحاق القلب .
5 ــ موضوع البشاشة وكآبة الوجه .
6 ــ الصلاة الدائمة .
7 ــ معني الإدانة ، ومعنى النصح .
8 ــ الوداعة ، وقوة الشخصية .
9 ــ المغفرة والحزم والتأديب .
10 ــ النسك والزهد وعدم القنية .
11 ــ الدفاع عن الحق .
12 ــ الطاعة وحرية الضمير .

الحكمة والأفراز ٢

الحكمة الحقيقية ، هي الحكمة النازلة من فوق ، كهبة من مواهب الروح القدس وهي تختلف تماماً عما يدعية البعض من حكمة بشرية أو عالمية ليست هي من الله .

فبعض الناس عندهم سياسة وكياسة ودبلوماسية ، يظنونها حكمة ! والبعض عندهم دهاء ، أو ذكاء يظنونه حكمة .

وربما يكون هذا كله بعيداً تماماً عن الحكمة الحقيقية " النازلة من فوق " (يع3) ونود هنا أن نميز بين الذكاء والحكمة .

ما بين الذكاء والحكمة

الحكمة لها معنى أوسع بكثير من الذكاء ، وقد يكون الذكاء مجرد جزء منها .

وقد يتمتع إنسان بذكاء خارق وعقل ممتاز ، ومع ذلك لا يكون حكيماً في تصرفه . ربما توجد عوائق تعطل عقله وذكاءه أثناء التصرف العملي .

ربما تطغي عليه شهوة معينة ، هي التي تقود تصرفاته ، فيخضع لها تماماً ، ويتصرف تصرفات بعيدة عن الحكمة ، على الرغم من ذكائه الذي تكون الشهوة قد عطلته ، وتولت القيادة بدلاً منه !
أو قد يخضع لأعصاب تثور وتنفصل . فيتصرف بأعصابه لا بذكائه ، ولا يكون تصرفه حكيماً ! أو قد يكون له ذكاء ، ولكن تنقصه الخبرة أو المعرفة ، ونقصهما يجعل سلوكه غير حكيم .
فما هي إذن الحكمة ، وفي أي شئ تتميز عن الذكاء ؟
الذكاء مصدره العقل ، وقد يكون الذكاء مجرد نشاط فكري سليم .

أما الحكمة فهي تنبع التفكير السليم بالتصرف الحسن في السلوك العملي .

وهي لا تعتمد على العقل فقط ، إنما تستفيد أيضاً من الخبرة ومن الإرشاد ، ومن الصلاة وتوجيه الروح القدس .

فالحكمة ليست هي مجرد المعرفة السليمة . أو مجرد الفكر الصائب ، إنما هي تدخل في صميم الحياة العملية ، لتعبر عن وجودها بسلوك حسن ... فهي ليست مجرد معلومات نظرية أو عقلية ، وما أصدق القديس يعقوب الرسول في قوله :

" من هو حكيم وعالم بينكم ، فلير أعماله بالتصرف الحسن في وداعة الحكمة " (يع 3 : 13) .

حقاً إن الفكر السليم ، أو الذكاء ، يجوز اختباراً دقيقاً عند التطبيق العملي فإن نجح فيه يتحول إلى حكمة .

وقد يكون الإنسان ذكياً ، يفكر أفكاراً سليمة . ولكن تنقصه الدقة في التعبير ، لنقص معلوماته عن مدلول كل لفظ في دقة ، فيخطئ في التعبير . أما الإنسان الحكيم ، فإنه يقول ما يقصده ، ويقصد ما يقوله .
وهكذا تشمل الحكمة جودة التفكير ، ودقة التعبير ، وسلامة التدبير .
وهنا نقول : كل حكيم ذكي ، ولكن لا يشترط أن يكون كل ذكي حكيماً ...
والحكيم إن كان ينقصه شئ من الذكاء ، فإنه يستعيض عنه بالمشورة ، وبالقراءة والاطلاع ، وبالاستفادة من خبرته الآخرين ، كما ينتفع أيضاً من التاريخ ، كما قال الشاعر :

ومن وعي التاريخ في صدره
أضاف أعماراً إلى عمره

ونظراً لأهمية الخبرة في الحكمة ، لذلك نسمع عبارة " حكمة الشيوخ " .

والمقصود بها أنهم في مدي عمرهم الطويل ، اكتسبوا خبرات كثيرة في الحياة تمنحهم حكمة ، بغض النظر عن درجة ذكائهم . فالذكاء ليس هو في الحياة كل شئ ...

إن المشيرين الحكماء ، في مشورتهم يضيفون إلى عقل الإنسان عقلاً ...

ويضيفون إلى فكره وجهة نظر أخري ما كان يلتفت إليها لقلة خبرته ومحدودية رؤيته ... ولعلهم يمنعونه من الاندفاع في اتجاه معين تكون كل قواه الفكرية مركزة فيه بسبب غرض معين في قلبه .

ومن هنا نري أن الاندفاع يعطل الذكاء ، أو يدفعه في اتجاه معين .

ولذلك مهما كنت ذكياً ، تذكر قول الكتاب " وعلى فهمك لا تعتمد " (أم 3 : 5) . ففهمك يدور في دائرة محدودة هي دائرة معرفتك وخبرتك ورؤيتك الخاصة . ولا مانع من أن تضيف إليها رؤية أخري ومعارف وخبرات أخري ، عن طريق السؤال أو الاستشارة .

والحكيم لا يندفع في تصرفاته ، وإنما يهدئ اقتناعه الخاص ، حتى يتبصر بأسلوب أعمق وأوسع ..

معطلات الحكمة

من معطلات الحكمة : السرعة في التصرف . لذلك يتصف الحكماء بالتروي .

السرعة لا تعطي مجالاً واسعاً للتفكير وللبحث والدراسة ومعرفة الرأي الآخر .
كما أنها لا تعطي مجالاً للمشورة ، ولعرض الأمر على الله في الصلاة .

وربما تحوي السرعة في طياتها لوناً من السطحية . والتصرفات السريعة كثيراً ما تكون تصرفات هوجاء طائشة .

والإنسان الذي يتصرف بتسرع ، ربما يرسل له الله من ينصحه قائلاً : احترس لنفسك " خالي بالك من نفسك " أعط نفسك فرصة للتفكير . راجع نفسك في هذا الموضوع .
نذكر في هذا المجال بعض أبنائنا من المهجر ، الذين يحضرون إلى مصر ، ويريد الواحد منهم أن يتزوج في بحر أسبوع أو أسبوعين !!
وعكس ذلك قديس عظيم هو أبو مقار الكبير ، جاءته فكرة أن يذهب إلى البرية الجوانية ليرى الأباء السواح . وهنا يقول " فبقيت مقاتلاً هذا الفكر ثلاث سنوات لأرى هل هو من الله ؟ " ...

إن الحكماء تصرفاتهم متزنة رزينة ، أخذت حظها من التفكير والدراسة والتعمق والفحص مهما اتهموهم بالبطء .

ولا ننكر أن بعض الأمور تحتاج إلى سرعة . ولكن هناك فرقاً ما بين السرعة والتسرع .

والتسرع هو السرعة الخالية من الدراسة والفحص .
ويأخذ التسرع صفة الخطورة ، إذا كان في أمور مصيرية أو رئيسية . ويكون بلا عذر . إذا كانت هناك فرصة للتفكير ، ولم يكون القوت ضاغطاً .
لذلك فإنني أقول باستمرار :

الحل السليم ، ليس هو الحل السريع وإنما هو الحل المتقن .

وقد تكون السرعة من صفات الشباب إذ يتصفون بحرارة تريد أن تتم الأمور بسرعة . ولكنهم حينما يدرسون الأمر مع من هو أكبر منهم ، يمكن أن يقتنعوا بأن السرعة لها مخاطرها . وقد تكون السرعة طبيعية في بعض الناس . وهؤلاء يحتاجون إلى تدريب أنفسهم على التروي والتفكير .

وكثيراً ما يندم الإنسان على تصرف سريع قد صدر منه ، فأخطأ فيه ، أو ظلم فيه غيره .

مثال ذلك صحفي قد يسرع في نشر خبر ، ليحصل على سبق صحفي . ثم يتضح أن الخبر غير صحيح . ويفقد الصحفي ثقة الناس في دقة أخباره .
ومثال ذلك أب يعاقب أبنه ، أو رئيس يعاقب أحد على أخطاء ، ثم يتضح أن الذي عاقبة كان بريئاً .

2 . من معطلات الحكمة أيضاً عدم الفهم ، أو قلة المعرفة .

فقد يكون هناك رجل ذكي جداً . ومع ذلك فاشل في حياته الزوجية . وأما سبب فشلة فهو جهله بنفسية المرأة . فهو يعاملها كما يعامل الرجال . والمفروض في الرجل الحكيم أن يدرس عقلية المرأة ونفسيتها وظروفها ، حيث يتصرف معها تصرفاً حكيماً .
وبالمثل على المرأة أن تدرس نفسية الرجل وعقليته لكي تعرف كيف تتعامل معه في حكمة .

ونفس الكلام نقوله في معاملة الأطفال . إذ ينبغي أن ندرس نفسية الطفل وعقليته ، حتى نعرف الطريقة الحكيمة للتعامل معه .

وهكذا في التعامل عموماً : ينبغي لكل إنسان أن يدرس نفسية وعقلية وظروف الشخص الذي يتعامل معه ... سواء كان زميلاً في عمل ، أو رئيساً ، أو مرؤوساً ، أو صديقاً ، أو جاراً ، ويعمله بما يناسبه .

فإن درست نفسية وعقلية من تتعامل معه ، تعرف المفاتيح التي تدخل بها إلى قلبه ، وتنجح في تصرفك معه ...

حتى لو تعطل المفتاح حيناً ، تعرف كيف تزينه وتشحمه ... ثم تعيد بعد ذلك فتح الباب فينفتح .
حقاً إنه في بعض الأحيان ، يكون فشلنا في التعامل مع أشخاص معينين ، ليس راجعاً إلى عيب فيهم ، بقدر ما هو راجع إلى عدم معرفتنا بطريقة التعامل معهم .
ولهذا نريد أن ندرس بعض النقاط في التعامل مع الناس .

الحكمة بين الصمت والكلام

إنه تدريب مشهور عند الشباب الروحي ، أعنى " تدريب الصمت " . يريدون به أن يتخلصوا من أخطاء الكلام عملاً بقول الكتاب " كثرة الكلام لا تخلو من معصية " (أم10 : 19) . وأيضاً قول داود النبي في المزمور " ضع يارب حافظاً لفمي ، باباً حصيناً لشفتي " (مز141 : 3) . وعملاً بقول القديس ارسانيوس الكبير " كثيراً ما تكلمت فندمت . وأما عن سكوتي ، فما ندمت قط " .

ومع ذلك فالإنسان الحكيم يعرف أنه ليس كل صمت فضيلة ، وليس كل كلام خطيئة .

والحكيم لا يصمت حين يجب الكلام ، ولا يتكلم حين يجب الصمت .
بالحكمة يعرف متى يتكلم ؟ وكيف ؟ وإذا تكلم ... ماذا يكون قدر كلامه ؟
وبأي أسلوب يتحدث ؟ بحيث ينطبق عليه ما قيل لعذراء سفر النشيد : " شفتاك يا عروس تقطران شهداً " (نش4 : 11) . فيخرج من فمه كلام المنفعة ، وكلام العزاء ، وكلام الحكمة . ويشعر الكل أنه لم يكن هو المتكلم ، بل روح أبيه الذي فيه (متى10 : 20) .

وهكذا يتكلم بميزان ، وبروية ، وبحكمة ، وبفائدة . ولا يندم على كلمة يقولها . ولا يشتاق إلى الصمت الذي يحمي من أخطاء اللسان .

المسألة إذن تحتاج إلى إفراز . ولا يؤخذ الصمت كتدريب بطريقة حرفية خالية من الروح ، لأنه ربما يكون في بعض الصمت أخطاء .
والحكيم يعرف تماماً حينما يجابه بحماقات الناس كيف يتصرف . وهنا يجد الشخص العادي نفسه أمام آيتين : **" لا تجاوب الجاهل حسب حماقته ، لئلا تعدله أنت " (أم26 : 4) .**

" جاوب الجاهل حسب حماقته ، لئلا يكون حكيماً في عينيه نفسه " (أم26 : 5) .

ليس شئ من التناقض بين هاتين الآيتين ، وإنما حسب الحكمة يدرك الإنسان متى يجاوب الأحمق ، ومتى لا يجاوبه ..
إن كانت مجاوبته تجعلك معادلاً له ، فالخير أن تصمت ولا تجاوبه .
الحكمة هي الفيصل في الأمر . وبالإفراز تميز أي التصرفين أفضل ومن الجهل أن تعطي تعليماً واحداً لكل الحالات .
لا نستطيع أن نقول لك أن تصمت ، بينما كلمة منك تحل مشكلة ... ولا أن تصمت ، إ كان الصمت يمكن فهمه على غير ما تقصد ...
كذلك ليس في كل وقت ما ورد في بستان الرهبان وينفذه على نفسه حرفياً ، وبدون إرشاد ، وهو ليس من الرهبان ، وظروفه الروحية غير ظروفهم ..!
ففي أوقات أخرى قد يكون الصمت جهلاً ، أو بلادة وعدم حكمة ... وقد يكون خوفاً وعدم رجولة .

وبالإفراز تميز كل حالة من الأخرى والمرشد الروحي لا يضع ابنه تحت ناموس ، مقيداً لا يدرك هدفها ... إنما هو يمنحه الحكمة والإفراز ، ويتركه ليتصرف في كل حالة حسبما تستوجب ...
وما نقوله عن الصمت ، يمكننا أن نقول ما يشابهه عن فضائل أخرى ...

الحكمة بين الكآبة والفرح

يبدأ بعض الشباب حياتهم الروحية بالتوبة وبالبكاء على خطاياهم حسبما ورد في بستان الرهبان ... ويجعلون أمامهم الآية التي تقول " بكآبة الوجه يصلح القلب " (جا7 : 2) .
ويتمادى هؤلاء في هذا الوضع ، حتى تصبح الكآبة لهم وضعاً ثابتاً ومنهج حياة ... ويتذكرون كيف أعطي الرب الطوبى للحزانى (متى5 : 4) .
ويضعون أمامهم فضيلة [الدموع] ، التي هي نابعة من فضيلة [انسحاق القلب] ، وحديث القديسين عن هذه الموضوعات طويل يصعب أن نحصيه .

والدموع قد تكون من علامات التوبة ... ومن دلائل الرقة والحساسية ... وقد يكون من ثمارها الزهد والموت عن العالم ...

ومع ذلك يحتاج من يسلك في هذا الأمر إلى إفراز شديد الأمر معه إلى العكس ... لأن الأستمرار في الكآبة ، وعدم السلوك فيها بحكمة ... كل ذلك يؤدى إلى عديد من الأخطاء والنقائص سنذكر هنا بعضاً منها :

ما أسهل أن تتحول الكآبة الدائمة إلى عثرة تخيف الذين يريدون أن يقتربوا إلى الحياة مع الله ، إذ يرون أن التدين هو كآبة وبكاء ...!

صورة مشوهة عن الحياة مع الله ، التي أرادها الرب أن تكون فرحاً دائماً .. كما يقول الرسول " افرحوا في الرب كل حين وأقول أيضاً أفرحوا " (فى4 : 4) ، وكما ذكر أن الفرح هو ثمار الروح (غل5 : 22) .واستمرار الكآبة قد يستغله الشيطان فيلقى صاحبه في اليأس وقطع الرجاء ويضعف روحه المعنوية .. كما أن الكآبة قد تولد الضجر والملل .
والحكيم يعرف حدود الانسحاق والدموع ، ويعرف كيف يخلطهما بالرجاء وبالعزاء ... ويعرف كيف يحيا حياة الفرح في توبته ، وفي انسحاقه ، وفي دموعه التي تكون في الخفاء .. ولا تكون دموعاً محرقة إنما دموعاً معزية .
الأمر إذن يحتاج إلى حكمة ، لأن الدين ليس حرفية ، وليس مجرد فضائل مبهمة .. إنما هو روح وحياة .
فالذي يسلك في الانسحاق والدموع .. عليه أن يفعل ذلك بحكمة .. والذي يسلك في حياة الفرح ، عليه أن يفعل هذا أيضاً بحكمة ، حتى لا تقوده إلى الاستهتار واللامبالاة ...

الحكمة والأفراز

خطورة الاية الواحدة

الإنسان الحكيم لا يأخذ آية واحدة من الإنجيل ويقيس عليها حياته في حرفية . إنما يعرف متى يستخدم هذه الآية في حينها الحسن ؟ ومتى تضاف إليها آيات أخري ليتضح المعني ؟
وكنا قد ضربنا مثلاً في الكآبة والفرح ، نكمله الآن ...
في بعض الأحيان يستفيد الناس من دموعك ، كإنسان روحي يهتم بخلاص نفسه ، وله عواطف حساسة .
وفي أحيان أخري ، إذا كنت كئيباً تشيع في الناس القلق وربما تشيع فيهم التساؤل أيضاً ...

ولذلك فكثير من القادة يحتفظون بدموعهم لحياتهم الخاصة . وأما أمام الناس فيكونون بشوشين .

ويفعلون هذا حرصاً على مشاعر الناس ، لئلا يتبعوا بتعبهم . وكذلك لكي يفرحوا الآخرين حتى في ضيقهم .

ولقد أعجبتني كثيراً عبارة قال فيها أحد الأدباء :

ما أنبل القلب الحزين الذي يخفي حزنه ليغني أغنية مع القلوب الفرحة .

ولهذا ليس من الحكمة أن يضع إنسان تدريباً روحياً لنفسه ، ينفذه بلا إفراز ، وبلا مراعاة للظروف المحيطة به ، مما يسبب له كثيراً من المشاكل .

الإفراز في التداريب الروحية

الحياة الروحية ليست مجرد قيود ونواميس ، إنما هي ثبات الروح في الله ، بحب وحرية .

إنسان يضع لنفسه قانوناً أنه لا يضحك هذا الأسبوع ، لأن الضحك يقوده إلى الفتور ، ثم تحدث مناسبة مجاملة أو فرح ، ويظل فيها عابساً وجاداً مما يسئ إلى علاقته بالآخرين . فهل يسمي هذا ثباتاً في التداريب ، أم هو عدم إفراز .

التدريب الروحي لا يجوز أن يكون جافاً وحرفياً بلا فهم ... والتداريب ليست قيوداً وسلاسل .

والذي يسلك في حياة روحية سليمة ، بطريقة حكيمة ، يعرف كيف يفعل الشئ من أجل الله ، ويعمل عكسه تماماً من أجل الله أيضاً . فلكل مجال ما يناسبة ومعلمتنا بولس الرسول يقول عن تدريباته بالنسبة إلى الشئ وعكسه :

تدريب أن اشبع ، وأن أجوع . أن استفضل ، وان أنقض (فى4 : 12) .

إن أولاد الله يأخذون روح الحياة ، ولا يأخذون نصوصاً وحروفاً .

يعرفون متي يفعلون الشئ ، ومتى يفعلون عكسه بضمير مستريح ، مثلما قال الكتاب :

إلى العكس . بكاء مع الباكين . وفرحاً مع الفرحين (رو12 : 5) .

إذن لكل شئ تحت السموات وقت كما قال سفر الجامعة : للبكاء وقت . وللضحك وقت ... للسكوت وقت (جا3 : 1 ـ 7) .

كل شئ في مناسبته ، يكون خيراً ، حسبما يليق ، بحكمة ...

والحكيم يعمل الشئ المناسب في القوت المناسب ، دون أن تقيد نفسه بحالة معينة تستمر معه مدى الحياة .

الأفراز في القراءة والتطبيق

بعض الناس يقرأون وينفذون ما يقرأونه حرفياً ، ثم يتعبون نتيجة لذلك . وكثيراً ما تحدث لهم نكسة .

مثال ذلك من يقرأ بستان الرهبان ، وينفذ ما فيه حرفياً وينسى شيئين :

1 ـ أن البستان سجل درجات عالية وصل إليها الآباء بجهاد طويل . وهذه الدرجات ليست للمبتدئين .

2 ـ أن البستان سجل نصائح قالها الآباء لأشخاص معينين ، ربما حالتهم غير حالتك أنت .

وربما كان الأب القديس يأتيه أخ فينصحه بنصيحة . ويأتي أخ أخر ، فيقول له نصيحة أخري تناسبة ... فلم يكن لهم إرشاد واحد يقولونه للكل ...

أما نحن فعلينا أن نأخذ من كل ذلك ما يناسبنا ، وبإرشاد ، وبتدرج .
ونفس الوضع نقوله أيضاً بالنسبة إلى المزامير . بعضها للفرح . وبعضها للحزن . وخذ منها ما يناسبك من حيث التطبيق . وبعض يمثل درجات عليا لم تصل إليها ... ولكنك تصليها كمثاليات أمامك ...
وكذلك في كل كتاب روحي تقرأه . ضع أمامك أمرين هامين :
1 ــ روح الكلام وليس حرفه .
2 ــ ما يناسبك أنت شخصياً ، أعني ما يناسب ظروفك ومستواك . ما يناسب قامتك الروحية ، وما يناسب قدرتك وإمكانياتك . ويتفق مع تدرجات في السير في طريق الله .
ومن الخطر أن تقرأ لتنفيذ بلا تمييز ، وبلا حكمة ، وبلا إرشاد .
إننا نريد الحياة الهادئة ، النامية ، التي تحب الخير ، وتسلك فيه بحكمة ...

مثال الطيبة والحزم

لبعض يستخدم الطيبة أو الوداعة وحدها . والبعض يحبون الحزم والسلوك والقوى كمنهج حياة . أما الحكمة فتقول :
استخدم الحزم حينما يلزم الحزم لحسم الأمور . واستخدم الوداعة حينما تحسن الوداعة .

وفي وداعتك لا تكن ليناً بطريقة تتعبك ... وفي حزمك لا تكن عنيفاً بطريقة تتعب غيرك .

والسيد المسيح استخدم الوداعة والحزم .

كان وديعاً ومتواضع القلب . فقيل عنه إنه " لا يخاصم ولا يصيح ، ولا يسمع أحد في الشوارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف . وفتيلة مدخنة لا يطفئ " (متى12 : 19 ، 20) .
وكان حازماً حينما وبخ الكتبة والفريسيين بشدة وقال هم " ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون .. " (متى23) ...

وكان السيد المسيح حازماً حتى في توبيخه لتلميذه القديس بطرس ...

فقد قال له في إحدى المرات ... " اذهب عنى يا شيطان ..أنت معثرة لي ، لأنك لا تهتم بما لله ، لكن بما للناس " (متى16 : 23) .
إلى هذا الحد كان السيد المسيح الوديع حازماً في هذا الموقف . وبنفس الوضع قال للقديس بطرس حينما احتشم من غسل رجليه " إن لم أغسلك لا يكون لك معي نصيب " (يو13 : 8) .

إذن هناك مواقف تحتاج إلى حزم . ومن أمثلتها تطهير الرب للهيكل .

إن السيد المسيح الطبيب الوديع الذي قال للمرأة الخاطئة " أذهبي ولا أنا أدينك " (يو8 : 11) . أنقذها ممن يدينوها ، نراه هنا يطرد الباعة ، ويفتل سوطاً ، ويقلب موائد الصيارفة ، ويأمر برفع أقفاص الحمام من هناك .

وهنا في حزم الرب ، نراه لم يتخذ موقفاً واحداً مع الكل : إنما تصرف بدرجات مع كل مجال بما يناسبه .

موائد الصيارفة قلبها . ولم يقلب أقفاص الحمام . هناك من وبخهم بالكلام ، ومن طردهم . وموقف فتل له سوطاً ... إذن كل شئ تم بإفراز ، حسبما يستلزم الموقف .

فإن كنت تحب الوداعة والطيبة : ورأيت أمامك شخصياً يأخذ موقفاً حازماً لا تقل : إنني قد أعثرت . وقد تحطمت المثاليات أمامي ...

هنا تبدو خطورة الفضيلة الواحدة . فالحياة الروحية ليست فضيلة واحدة مع إهمال غيرها . إنما هي حياة متكاملة فيها كل الفضائل . ومن جميعها يتكون نسيج روحي واحد .

وفي بعض المواقف يكون عدم الحزم خطية كما حدث مع عالي الكاهن .

لقد عاقبة الله عقوبة شديدة ، ونزع الكهنوت من نسله ، وذلك لأنه لم يكن حازماً في تربية أولاده ، حقاً أنه نبهه إلى أخطائهم . ولكنه لم يتصرف في ذلك بحزم . إنما كان ليناً في توبيخه .. (1صم3 : 12 ــ 14) .

لذلك لسنا نعجب من الحزم الذي تصرف به القديس بطرس مع حنانيا وسفيره (أع5 : 1 ـ 11) .

إنه حكم عليها بالموت ، ولم يعطها فرصه التوبة . لأن الحزم وقتذاك كان لازماً لبنيان الكنيسة في بدء حياتهم لا يدخل إليها التسيب وتدخل إليها الخيانة والكذب . وهكذا قيل بعد . عقوبة حنانيا وسفيره " فصار خوف عظيم على جميع الكنيسة " .

وهنا نرى ملاحظة هامة وهي لزوم الخوف أحياناً كما يلزم الحب تماماً وليس من تعارض ...

الإفراز بين الخوف والحب

والكتاب يقول بدء الحكمة مخافة الله (أم9 : 10) . إذن الخوف ليس خطأ روحياً ، ولكنه مرحلة روحية والذي لا يخاف قد يصل إلى حياة الاستهتار واللامبالاة كما قيل عن قاضي الظلم إنه كان " لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً " (لو18 : 2) .

وفي التربية قد يلزم الخوف مع بعض الأشخاص وفي بعض مراحل السن وبغيره قد تفسد التربية .

فالابن الذي لا يخاف والدية ، قد يسلك باستهتار دون رادع . وربما يصير مرارة نفس لوالديه .
وكذلك التلميذ الذي لا يخاف أساتذته ما أسهل أن يتحول إلى طالب مشاغب ويضيع وقت زملائه ، ويضيع أعصاب أستاذه .

ومع ذلك نقول إن الخوف مرحلة ينمو فيتحول إلى حب ومهابة ...

لذلك لا يجوز لأب أو لأستاذ أن يتعبه ضميره إذا وبخ إبناً أو تلميذاً ... ولا يقل في نفسه ولا في اعترافاته إنني أخطأت إذ وبخت غيري وفقدت وداعتي !!
بل الأجدر أن يوبخه ضميره إذا لم يكن حازماً وقت الحزم ...

والحكمة ترسم حدود التوبيخ ، بحيث يكون من مسئول وصاحب سلطان وبحيث يكون بطريقة روحية سليمة .

فالقديس بولس الرسول اضطر أن يوبخ أهل غلاطية الذين بدأوا بالروح وكلموا بالجسد (غل3 : 3)

والغيرة المقدسة تلزم الإنسان أحياناً أن يكون ناراً تلتهب .

وفي هذه الحالة المفروض أن يفهم الإنسان الروحي موقف الوداعة في ظل الغيرة إنها موضوع طويل . ولكننا نقول هنا : لكل شئ تحت السموات وقت . ومع ذلك يمكن أن يتصرف الإنسان بغيره دون أن يفقد وداعته .

ولكن من الخطأ أن يفقد الإنسان الغيرة المقدسة بمفهوم خاطئ للوداعة .

إذن ينبغي أن نفهم الوداعة فهماً سليماً بحيث لا نظن أنها طراوة في الطبع ، أو حالة من عدم الحركة .. البعض قد يرى إيليا مثالاً للغيرة المقدسة ، وأرميا النبي من ناحية أخرى مثالاً للوداعة وللدموع ...

ولكن ارمياء النبي كان مثالاً للغيرة والدفاع عن الحق : فما كان رجل دموع فقط . والذي يقرأ سفر ارميا يلمس هذه الحقيقة .

وكان داود النبي مثالاً للشجاعة والقوة والغيرة ، وفي نفس الوقت كان رجل دمـــوع ، يبلـــل فراشـــة بدموعه (مز6) ، ويبكى لموت أبشالوم ولموت شاول ويوناثان ...
إن الأم التى تحنو على أبنها حنواً خاطئاً تفسده به ، ليست أماً حكيمة وهي تحتاج إلى فضيلة الإفـــراز ...

فتعرف ما معنى الحنو الحقيقي ؟ وما هي حدوده ؟ وما مدي اتصاله بالتربيـة السليمة ؟ وبأبدية أبنـها وروحيا ته ...

إن الآب السماوي كان يحب ابنه الوحيد ، ومع ذلك بذله للموت من أجلنا وعلى الصـــليب " ســـر أن يسحقه بالحزن " كذبيحة إثم لأجلنا ،إذ وضع عليه إثم جميعنا (أش53 : 1 ــ 6) .

والطبيـب الحكـيم يعـرف متـى يسـتخدم المشـترط ؟ ومتـى يسـتخدم البتـر ؟ ومتـى يسـتخدم والمهدئات ...

ولذلك يقال عن الطبيب إنه " حكيم " وبعد ، إن موضوع الإفراز قد يشمل الحياة الروحية كلهـــا . وإن تكلمنا عنه سنتكلم عن جميع الفضائل .
ولعلنا نكتفي بما ذكرناه حالياً كمجرد أمثلة .

الفصل السابع :

العمل الإيجابى والعمل الداخلى

العمل الإيجابي
أهميته في مقاومة الخطية .
أهميته محبة الله .
للوصول إلى محبة الله .
فائدة العمل الإيجابي .

العمل الداخلي
أهمية العمل الداخلي
العمل الداخلي في التوبة .
في التربية وفي الخدمة .
في الصلاة والصوم.
في القراءة .
العمل الداخلي للصمت
فوائد العمل الجوانى

العمل الإيجابى

أهمية في مقاومة الخطية

كل إنسان ــ في بناء حياته الروحية ــ يواجه أمرين هامين : أحدهما هو مقاومة الخطية في غيره من الناس . لكي يشارك في نقاوة المجتمع الذي يعيش فيه . إنها حياة صراع ضد الخطيــة والشــيطان . تمثل الجانب السلبي من الحياة الروحية .

أما الجانب الإيجابي في الحياة الروحية ، فهو بناء النفس والروح بالفضيلة والحياة مع الله ومذاقه بالفضيلة والحياة مع الله ومذاقه الملكوت . فيذوق محبة الله والتمتع بعشرته في حياة مقدسة .

إن الذي يجعل حياته كلها مقاومة للخطية ، لاشك أنه يتعب كثيراً ، لأن حياته ضائعة في صراع مــع الخطية التي قال عنها الكتاب إنها " طرحت كثيرين جرحي ، وكل قتلاها أقوياء " (أم7 : 26) وفي صراع مع الشيطان الذي هو عدو قاس وشرير لا يرحم . وفي نفس الوقت هو مختبر للنفس البشرية على مدي الآف السنين . يعرف ضعفاتها ونقائصها . ويعرف كيف يسقها ...

لاشك أن هذا العمل السلبي شاق وصعب . وقضاء الحياة فيه أمر يرهق النفس ارهاقاً قد لا تحتمله .

فالصراع مع أجناد الشر الروحية ليس أمراً سهلاً . لأن الشيطان وإن كان قد فقد طهارتــه ونقاوتــه وقداسته السابقة . إلا أنه لم يفقد طبيعته كملاك . بكل ما في هذه الطبيعة من قوة وبكل ما لهــا مــن إمكانيات ...

ماذا إذن ؟ هل يترك الإنسان هذا الجانب السلبي ؟ هل يترك مقاومة الخطية ؟! كلا ، بلا شك فإن هذا يكون استسلاماً لها ... ؟

والرسول يعاتب أمثال هؤلاء ويقول " لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية " (عب12 : 4).فالمفروض في الإنسان أن يقاوم الشيطان والخطية والجسد بكل ما له من قوة ، وبكل ما منحــه الله من نعمة ، ويستمر صامداً إلى آخر نسمة من حياته .

أنما السؤال هو : لماذا تكون مقاومة الخطية صعبة ؟ لماذا قال كثير من الآباء إن الحياة الروحية تبدأ بالتغصب وقهر النفس ؟

إنها تكون هكذا صعبة إن كانت خالية من العمل الإيجابي ... إن كانت مجرد صــراع ... " الــروح يشتهي ضد الجسد ، والجسد يشتهي ضد الروح . وهذان يقاوم أحدهما الآخر (غل5 : 17) . ولماذا

هذا الصراع ؟ ذلك لأن محبة الله لم تدخل إلى القلب ، ولم تستقر فيه بعد وكيف تدخل محبة الله إلى القلب ؟ ... تدخل بالعمل الإيجابي .

من هنا كانت أهمية العمل الإيجابي في الحياة الروحية . لأنه بدونه تكون مقاومة الخطية عملية صعبة ومريرة . وربما تكون أيضاً عملية خاسرة ...! ولعلنا هنا نسأل :

لماذا يتعب الإنسان في حروبه الروحية ، ولماذا يتأرجح كثيراً بين الفشل والنجاح ؟

ذلك لأن محبة الله ليست داخل قلبه . فهو يحارب من فراغ . يقاوم الخطية ثم لا يصمد . لأنه لا يملك السلاح الذي يحارب به . لا يملك القوة التي يصمد بها . ولا شك أن السلاح القوي الذي تنتصر به على الخطية . هو محبة الله التي تجعلك تنفر من الخطية وتقول" كيف أفعل هذا الشر العظيم واخطئ إلى الله " (تك39 : 9) .

إن محبة الله إن دخلت إلى قلبك ، ستهرب منه الخطية تماماً ، هذه التي تشقي أنت في مقاومتها ، وتقع وتقوم مرات بغير ثبات !

إن دخلت محبة الله إلى قلبك . لا تشعر بأي سلطان للخطية عليك . ولا تحتاج إلى جهد كبير في مقاومتها بل لا تجد داخلك هذا الصراع بين الجسد والروح . لأنك ستكون بطبيعتك نافراً من الخطية . كما أن الشيطان لا يجد له مكاناً فيك ... وكما قال السيد المسيح له المجد " رئيس هذا العالم يأتي ، وليس له في شئ " (يو14 : 30) .

حالياً تحتاج إلى صراع مع الخطية ، لأن في داخلك شهوات عالمية تسقطك . توجد شهوات في قلبك تقاوم الله . فيدخل وأعوانه معه . لذلك شهوة الروح تجد مقاومة في داخلك من شهوة الجسد . أما إن كانت محبة الله في قلبك ، فسيكون بيتك محصناً ضد أي خطية ، فلا تجد سهولة مطلقاً في اقتحامه . وحينئذ يمكنك أن تغني مع داود النبي ، وتقول لنفسك المحصنة " سبحي الرب يا أورشليم .سبحي إلهك يا صهيون لأنه قوي مغاليق أبوابك ، وبارك بنيك فيك " (مز147) .

محبة الله في داخلك ، تجعل الخطية ضعيفة جداً في مهاجمتها لك ، لأن لا يوجد في داخلك ما يتفق معها ... وتصبح أبواب قلبك مغلقة أمام الشيطان . لا يستطيع أن ينفذ إليها بضربة شمال أو بضربة يمين . الحب في داخلك يحصن نفسك . وهذا الحب يلد في داخلك بنين كثيرين هم ثمر الروح من الفضائل وأعمال البر .

لذلك لا يقول المرتل لنفسك إن الله قد حصن مغاليق أبوابك . فقط من الناحية السلبية . إنما يقول لها أيضاً من الناحية الإيجابية وبارك بنيك فيك " .

إنه جهاد مريح وسهل ومفرح للقلب ، أن تجاهد الجهاد الإيجابي من أجل معرفة الله والنمو في محبته . وهو جهاد يختلف تماماً عن الجهاد السلبي في مقاومة الخطية والشيطان .

إن ألذ شئ في الحياة الروحية هو هذا العمل الإيجابي . الذي هو مذاقه الله ومذاقه الملكوت . وهو التمتع بالله . والمعيشة معه في عمق محبته . وفيه لا تعود تقاسي من الحروب الروحية . ولا صراع ضد الخطية . لأنك لم تعد تتفق معها في طباعك . ولا يوجد في داخلك ما يرضي بها ...

هل تظن أن الإنسان يسقط في الخطية ، بسبب أن الخطية قوية ، والعثرات شديدة ، والشيطان كثير الحيل ؟! كلا ، بل أنه يسقط بالأكثر لأن قلبه خال من محبة الله ...

وإن كان يحب الله . فلن يجد الخطية شهية على الإطلاق . ولا يجدها مطلقاً قوية في حروبها ... بل يري نفسه ينفر منها خاطئة جداً . ولا توافق طبعه النقي .

للوصول إلى محبة الله

وكيف يصل إلى ذلك ؟

يصل إلى ذلك بالعمل الإيجابي الروحي الذي يوصله إلى محبة الله . ومحبة الله تجعله لا يخطئ . لأن المحبة لا تسقط أبداً " (1كو13 : 8) . وكما قال القديس يوحنا الرسول إن الله محبة . والذي يثبت في المحبة يثبت في الله ، والله فيه " (1يو4 : 16) " ولا يستطيع أن يخطئ ، لأنه مولود من الله " (1يو3 : 9) . حاول إذن أن تملأ قلبك من محبة الله ، حينئذ تكون محبته في داخلك كنار ملتهبة ، تحرق كل شهوات الخطية وكل آثارها وكل أفكارها .

فما هو العمل الإيجابي الذي يوصلك إلى كل هذا ؟

فكر كثيراً في الله . وتفكيرك في الله يلد محبته في قلبك . ومحبته تجعلك تفكر فيه بالأكثر . وكل من الأمرين يوصل إلى الآخر ويقويه ...

وإذ ما أكثرت التفكير في الله . وفي سمائه وملائكته ، وفي كلامه ووصاياه ، وفي الأبدية السعيدة معه ، وإذا ما أكثرت التفكير في صفات الله الجميلة ، وفي معاملات الله للناس ، حينئذ ستنشغل بالله . ومشغوليتك به ستجعلك تفكر فيه بالأكثر وتفكيرك فيه سيزيد محبتك له . وهكذا تدور الدائرة .

تفكيرك في الله هو العمل الإيجابي الأول في حياتك الروحية ... أي أن يكون الله أمامك باستمرار ، تتذكره كل حين ، وكما قال داود النبي محبوب هو أسمك يارب . فهو ول النهار تلاوتي " (مز119) .

وتفكيرك في الله يقدس فكرك . ويلد في قلبك مشاعر روحانية . وفي كل ذلك تستحي من أن تفكر في شئ خاطئ . ولا يسهل عليك أن تخل بأفكارك المقدسة أي فكر نجس . أو حتى أي فكر عالمي . وتشجيع للاستمرار في فكرك الإلهي .

والتفكير في الله يوصلك إلى نقاوة القلب ، لأنه لا شركة مطلقاً بين النور والظلمة .

وهنا تتعود الصلاة . وتتعود أيضاً الهذيذ والتأمل . وتشعر بأنك في حضرة الله باستمرار . وفي هذا الحضور الإلهي لا يجرؤ الشيطان أن يتقرب إليك . وإن اقترب سرعان ما يتركك . لأنه لا يجد له مجالاً فيك . ولا يجدك متفرغاً له . ويري أن طرقك لا توافق طرقة ... وحتى إن حاربك بشئ . تكون حربة ضعيفة . لأنك مشغول بالله ...

لهذا تكون كل حرب الشيطان لك مركزة في إبعادك عن الانشغال بالله ، وليس في محاربتك علناً بالخطية ...

فإن استطاع أن يبعدك عن عملك الإيجابي الذي هو الانشغال بالله حينئذ يتدرج خطوة أخري فيحاول إلقاءك في السلبيات ... وحتى في تلك الحالة تكون قد اكتسبت قوة عملك الروحي السابق تستطيع أن تقاوم بها محاربات الشيطان . وفي هذه الحالة يحاربك الشيطان وهو يحترمك ، وهو يخافك ، ويحترس منك ، فلا تنزل عليك بكل ثقله .

أما الإنسان البعيد عن العمل الإيجابي . فهو فريسة سهلة للشياطين . وهم لا يخافونه . إذ يعرفون أنه بلا قوة في الداخل تقاومهم . قلنا إن العمل الإيجابي يشمل محبة الله ، ويأتي عن طريق التفكير في الله ، وعن طريق الهذيذ والتأمل والانشغال بالله . وماذا ايضاً :

إن القراءة الروحية نافعة جداً كعمل إيجابي يشغل الفكر بالله ، ويقدم له كذلك مادة للتأمل وللصلاة . إنها تذكرني برفع البخور . الذي يعد المذبح لتقديم القرابين عليه .

فالقراءة توجد فكرك في جو روحي وتذكرك بالله وقديسيه . وكلمة الرب فعالة ، تعمل فيك ، وتعطي حرارة لروحياتك ، وتدفعك بقوة إلى طريق الرب ، كما أنها تعطيك استنارة في الفكر ، وتلد فيك مشاعر روحانية ، وتقوي عزيمتك على السير في طريق الله ...

ومثل القراءة الروحية في فاعليتها ، الاجتماعات الروحية أيضاً .

بكل ما فيها من صلوات وقراءات ، وتراتيل وألحان وجو روحي نافع لربط الإنسان بالله . يضاف إلى ذلك ما فيها من كلمات روحية نافعة . كل ذلك يوجدك في بيئة روحانية ، يشعر الشيطان أنه غريب عنها ...

والصدقات الروحية نافعة جداً . إنها من الأعمال الإيجابية التي تقوي بها قلبك وتجذبك إلى الله .

وصديقك الروحي ، هو الصديق الذي كلما تراه ، تذكر الله ووصاياه ، وتتبكت على خطاياك ، وتأخذ منه قدوة حياة الفضيلة .

إن الخطية لم تستطع أن تدخل في حياة لوط وأسرته . حينما كان لوط يعيش مع أبينا إبراهيم . ولكنها وجدت مجالاً حينما ابتعد لوط عن هذه الصداقة الروحية وسكن في سادوم . يعذب نفسه بأخطاء سكانها .

والتناول من أهم الأعمال الإيجابية بتأثيراته العميقة في النفس ، وربما يصحبه باستمرار من توبة واعتراف .

وقد قال السيد المسيح عمن يتناول " يثبت في وأنا فيه " (يو6 : 56) . نقول في صلوات القداس الإلهي نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا " ..

فما هو الذي لك من كل هذا العمل الإيجابي ؟ وماذا لك أيضاً من جهة التداريب الروحية التي تدرب بها نفسك على حياة الروح وثمار الروح . والتي تجعلك منشغل الفكر كل يوم بأبديتك وكل ما تتطلبه من أعمال ... ثم ماذا أيضاً عن محاسبة النفس . وتبكيتها على كل نقص وكل خطأ ... وماذا عن المطانيات والصوم والسلوك في حياة الروح ... ؟

فائدة العمل الإيجابي

فائدة العمل الإيجابي

إنك بكل هذا العمل الإيجابي ، تقيم توازناً داخل نفسك بين تأثيرات العالم عليك والتأثير الروحي .

أما أن يأتي الشيطان ليحاربك . فلا يجد حولك انجيلاً ، ولا مزموراً ، ولا صلاة ولا هذيذاً ولا تأملات روحية ولا اجتماعات ، ولا أصواماً ، ولا مطا نيات ، ولا اعتراف ، ولا تناول ... فماذا يكون حالك إذن ؟ وكيف تستطيع أن تقاوم الخطية بلا سلاح ؟!

تكون حينئذ مثل مدينة يحاربها العدو ، وهي بلا جيش ، بلا أسلحة ، بلا تحصينات ... ! خذ هذه قاعدة . وضعها أمامك : كل إنسان تجده ساقاً في الخطية ، لابد أن تكون قد مرت عليه فترة ، وهو بعيد عن العمل الإيجابي ، سواء من جهة الوسائط الروحية ، أو من جهة العمل الإيجابي في حياة الفضيلة ومحبة الله ...

وهكذا تكون الخطية قد أتته ، وهو غير مستعد لها . أو اتته وهو في حالة ضعف أو فتور . انظروا إن الرب قد قال :

" صلوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت " (متى24 : 20) .

" في شتاء " في حالة البرودة الروحية ولا " في سبت " في وقت لا تعمل فيه عملاً من الأعمال . وكلا الأمرين يذكرانا بالبعد عن العمل الإيجابي الروحي ...

لذلك كن متيقظ القلب باستمرار . وليكن زيتك في مصباحك . وكما قال الرب في هذا الاستعداد . وكلا احقاؤكم ممنطقة ، ومصابيحكم موقدة " (لو12 : 35) . اهتم بالعمل الإيجابي الروحي الذي يمنحك قوة لمقاومة الخطية . املأ مخازنك من الروحيات . لكي لا تقوى عليك السنوات العجاف بكل ما فيها من جوع وقحط . واحتفظ بحصاتك في مقلاعك . حتى إن ظهر أمامك جليات . يمكنك أن تتقدم إلى الصف وأنت تقول في ثقة " اليوم يحسبك الرب قي يدي " (1صم17 : 46) .

ولا تقصر جهادك على مقاومة السلبيات فقط ، فإنها عمل مضن . وإنما بالعمل الإيجابي تنال قوة يمكنك بها التصدي للخطية . وليكن الرب معك ...

أهمية العمل الداخلي

الحياة الروحية ليست مجرد ممارسات خارجية تعمل بالجسد . إنما المقياس الروحي لها يتوقف على مدي روحانية الإنسان من الداخل ، من حيث دوافعه ونياته ، ومشاعر قلبه وحالة فكرة ... ولا ننسي قول الرب في ذلك : " يا إبني اعطني قلبك ، لأن منه مخارج الحياة " (أم4 : 23) .
الفضائل إذن تبدأ في القلب . ومن القلب تخرج لتظهر في الأعمال الظاهرة وكل عمل خارجي فاضل ــ بدون القلب ــ لا يحسب فضيلة على الإطلاق .
ولقد رفض الله كل عبادة تقدم إليه دون أن تكون نابعة من قلب نقي . وقال موبخاً اليهود هذا الشعب يكرمني بشفتيه . أما قلبه فمبتعد عني بعيداً " (مز7 : 6) .

لذلك لا يصح أن تهتم بالفضائل الخارجية ، ولا أن تكتفي بذلك .

ولنضرب مثالاً لذلك : مقاومة الغضب . إنسان يريد أن يترك الغضب ، فيدرب نفسه على أن يهدئ ملامحه ، ويهدئ حركاته ، ويبعد عن الصوت العالي ، وعن الصوت الحاد ، ويبدو هادئاً ، بأعصاب هادئة بعيدة عن الانفعال . ولكن كل هذا هدوء خارجي . وربما يكون قلبه من داخل في أتون من نار ، مملوءاً من الغضب ، المكبوت في داخله ، وحسن طبعاً أنك لا تثور ، حتى لا تخطئ بلسانك وتفقد علاقاتك بالآخرين . ولكن ...
وهدوء القلب يأتي بتدريبه على الاحتمال ، وعلى الوداعة ، ومحبة الآخرين ، وعلى لوم النفس أيضاً .
وهكذا تقنع نفسك من الداخل ، حتى لا يتحرك قلبك حركة خاطئة ، مهما كانت غير ظاهرة للآخرين .
ولعل هذا يذكرنا بقول الآباء عن : معنى تحويل الخد الآخر ...
ما معني من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر أيضاً ؟ (متى5 : 39) .
قال بعض الآباء ــ كما في كتاب المعاهد ليوحنا كاسيان ــ إن اللطمة الأولي هي من الخارج ، على الخد أي إهانة خارجية ، تقابلها بتحويل الخد الآخر ، الذي هو اللطمة الداخلية ، بتوجية اللوم إلى نفسك ، بأن تقول لنفسك : أنا استحق كل هذا بسبب خطاياي . فاللطمة الثانية تأخذها من قلبك في الداخل .
وحتى إن أخذنا وصية تحويل الخد الآخر بالمعني الحرفي وليس بالمعني الرمزي يوافق ما حدث لداود النبي لما تعرض " شمعي بن جيرا " لسبه وإهانته حينئذ أراد قائد جيش داود أن يقتل شمعي بن جيرا ، فمعنه داود النبي قائلاً : " دعوه يسب ، لأن الرب قال له سب داود ... لعل الرب ينظر إلى مذلتي " (2صم 16 : 5 ــ 12) .
وهذا أيضاً يوافق قول القديس الأنبا أنطونيوس الكبير " إذا وبخك أحد من الخارج ، فوبخ نفسك من الداخل " وذلك لكي يصير هناك توازن في داخلك وخارجك ، حتى لا تتعب ...
فالبعض يحتمل من الخارج في هدوء ظاهري بين داخله وخارجه ...
ولكن بالعمل الروحي الداخلي ينجو من هذا التناقص ، إما عن طريق الاتضاع بلوم النفس وتذكر خطاياه .. وإما عن طريق الفرح بالدخول في شركة آلام المسيح (في3 : 10) . وهكذا يشعر بفرح في الآلام ، مثلما حدث مع الآباء الرسل الذين بعد أن جلدوهم " ذهبوا فرحن .. لأنهم حسبوا متسأهلين أن يهانوا من أجل أسمه " (أع5 : 41) . ننتقل إلى نقطة أخري وهي :

العمل الداخلي في التوبة

التوبة من خارج هي ترك الخطية والبعد عنها وعن كل مسبباتها . ولكن قد يترك الإنسان الخطيـــة ، ولا تزال في قلبه رغبة من نحوها . فهل نسمي هذه توبة ؟! كلا ، بل لابد أن يكون هناك عمل داخلي ، داخل القلب ، حتى يصل الإنسان إلى كراهية الخطية . وتكون هذه هي التوبة الحقيقية . حيث فـــي قلبه شهوة الحياة مع الله ، بدلاً من شهوة المادة والجسد ...

وهنا نود أن نشرح المعني الروحي للمطانيات أي السجود .

في المطانية يسجد الإنسان ، ينحني وتلصق رأسه بالأرض أي التراب . هذا هـــو العمـــل الخـــارجي الظاهر . ولكن هناك عملاً داخلياً يجب أن يصاحب انحناء الجسد ، وهو أن تنحني النفس من الداخل ، في انسحاق بتركها لكبريائها ، كما قال داود النبي " لصقت بالتراب نفسي " (مز119) . قال أخ لأحد الآباء " أحياناً اضرب المطانية للأخ معتذراً ، فلا يقبلها مني ! " . فأجاب الأب " ذلك لأنك تفعل ذلـــك بكبرياء " .. أي أن الجسد قد انحني ، بينما النفس مازالت في كبريائها ، لم تلصق بالتراب ...

التوبة إذن سواء في التصالح مع الله والنـاس ، هي عمل داخلي ، في إقنـاع النـفس تماماً بـهذا الطريق ، ورغبته فيه ، وندمها على ما سبق ...

وكل هذه أمور تتم في الداخل ، وليس الأمر مجرد ترك العثرات من الخارج لأنه لو أحاطتنا العثرات كلها من الخارج ، فلن تستطيع أن تضرنا بشيء ، مادام القلب منتصراً في الداخل . وصدق القـــديس يوحنا ذهبي الفم حينما قال " لا يستطيع أحد أن يضر إنساناً ، ما لم يضر هذا الإنسان نفسه " ...

وهنا ننتقل إلى نقطة أخري وهي :

في التربية وفي الخدمة

كثيراً ما يقف الوعاظ على المنابر ، ويندون بأزياء النساء وبعدها عن الحشمة ، كما يندون بطول شعر الشباب وما شابه ذلك . وكل هذه أمور خارجية ، قد يبعد عنها النساء والشبان عن طريـــق الضـــغط عليهم ، وتبقي مع ذلك قلوبهم غير نقية .

والحل هو العمل الداخلي ، بإدخال محبة الله ومحبة العفة إلى قلوب هؤلاء وأولئك ، واقنـــاعهم بـــأن جمال الروح أهم بكثير من جمال الجسد ...

حينئذ سيتركون ما هم فيه ، عن اقتناع وبكل رضي ، ويحبون الحشمة ويسلكون فيها بكل جديـــة ... ليس لمجرد الطاعة وليس عن خوف ، وإنما بنقاوة قلب . وحينئذ لا يحتاجون إلى رقيـــب ، ولا إلـــى توبيخ . ولا يقعون في تناقض ...

وهذه هي التربية الحقة التي تعتمد على العمل الداخلي في الاقناع ، وفي غرس المبادئ السامية داخل النفس .

ربوا أولادكم إذن من الداخل ، وليس من الخارج .

أعملوا بر وحياتكم داخل قلوبهم ، قبل أن تستخدموا العصا من الخارج اغرسوا داخلهم محبة الله أولاً . وثقوا أن محبة الله أقوي من العصا بكثير . وثقوا أن محبة الله تستطيع أن تطرد كل خطية بهدوء من القلب . نقوا أولاً داخل الكأس والصفحة ــ كما أمر المسيح له المجد ــ لكي يكون خارجها أيضاً نقياً (متى23 : 26) .

والعمل الداخلي هدفه الانـتصار على النـفس أولاً ، والوصول إلى تنـقية النـفس بـعد ذلك .

ويستلزم هذا إقناع النفس بالطريق السليم . ولكي تقتنع لابد من الفهم الحقيقي للأمور . فتفهم ما معني الحياة وما هدفها ؟ وما معني الحرية وما حدودها ؟ وما معني القوة ؟ وما معني الجمال ؟ وما معنـــي الرجولة ؟ بل ما هو المفهوم الحقيقي للدين وأساليب التعامل بين الناس ؟

إننا في التربية لا نسير الناس بالعصا ، إنما بالأقناع وبالفهم السليم .

وتبقي بعد هذا تقوية أرادتهم وكل هذا عمل داخلي ، في القلب والفكر .

ما أسهل من الخارج أن نعاقب وأن نضرب . ولكن هل هذه هي التربية ؟! كلا ، وإن أتت هذه الطريقة بنتيجة ، فغالباً ما تكون مؤقتة تزول بعد حين ، بزوال الضغوط الخارجية .
وهل الذي يخضع لهذه الضغوط يكون له أجر عند الله ؟! أي أجر وهو مسير يسير في الفضيلة خارجياً وبغير أرادته ؟!
العمل الداخلي إذن له اتجاهان : عملنا داخل أنفسنا ، وداخل أنفس الناس . ننتقل إلى العمل الداخلي بالنسبة إلى وسائط النعمة :

في الصلاة والصوم

الصلاة : هل هي مجرد كلام مع الله ؟ أم لها عمل داخلي ؟ ما هو ؟
الكلام مع الله هو العمل الخارجي الظاهر في الصلاة . ولكن لا شك هناك عمل داخلي أهم . وهو الشعور بالصلة مع الله والتلامس معه أثناء الصلاة ، وما يصحب ذلك من مشاعر الحب والخشوع والإيمان والحرارة الروحية ، والمتعة بالوجود في حضرة الله .
بل أحياناً تخرج الصلاة عن حدود الكلام مع الله ، كما قال الشيخ الروحاني .

سكت لسانك لكي يتكلم قلبك . وسكت قلبك لكي يتكلم الله ...

هذا هو العمل الداخلي في الصلاة ، وهو أولاً التقاء الإنسان مع الله ...
وثانياً : الاستماع إلى صوت الله داخل النفس ، أو على الأقل الإحساس الروحي العميق بالحضرة الإلهية . فهل وصلت إلى هذا ، أم أنك تكتفي بالعمل الخارجي ...
وهنا نري بعضاً من العمل الداخلي يكون منك ، وبعضاً آخر يصلك عن طريق الهبة من الله نفسه .
العمل الداخلي في الصوم :
كثير من الناس يقتصرون في أصومهم على العمل الخارجي الذي هو الامتناع عن الأكل ، والاقتصار بعد ذلك على أطعمة غير مشهية ...
أما العمل الداخلي للصوم ــ الذي يهمله هؤلاء ــ فهو منع النفس عن كل شهوة خاطئة ، كما منع الجسد من مشتهيات الطعام . وكذلك اتخاذ الصوم فترة ترتفع فيها الروح عن مستوي الجسد ، وتأخذ غذاءها الروحي المركز الذي يستمر معها حتى بعد الصوم ...
فهل أنت كذلك ؟ أم تقتصر على العمل الخارجي الجسدي ، وتظن أنك صائم ؟

العمل الداخلي في القراءة

القراءة هي عمل خارجي . أما التأمل في ما تقرأه فهو عمل داخلي . ولذلك فالتأمل أهم من القراءة .
والفهم هو عمل داخلي ، وكذلك التأثر والعمل بما تقرأ .
والمقصود بالعمل الداخلي في القراءة هو العمل الروحي ، وليس مجرد المعرفة التي تضيف بها معلومات إلى ذهنك .
العمل الداخلي في القراءة هو تحويل المعلومات إلى حياة .

العمل الداخلي للصمت

عدم الكلام هو المظهر الخارجي للصمت . ولكن الصمت لا يقتصر على هذا الجانب السلبي ، إنما له إيجابيات .
فالعمل الداخلي للصمت هو أن يغوص الإنسان داخل نفسه ، في استفادة روحية للتأمل والتفكير في الإلهيات ، وللصلاة . وهكذا ينتفع روحياً من صمته .
إنه لا يتكلم مع الناس ، لأنه في نفس الوقت يتكلم مع الله ... لذلك هو يجلس وحده ، لكي يتمتع بالله .

وبهذا لا تكون الوحدة هي مجرد الإنسان وحده ...

لأنه أية فضيلة في أن يجلس الإنسان وحده ؟! وربما يجلس وحده وتسرح الأفكار به هنا وهناك .

إن جلوس الإنسان هو مجرد عمل خارجي غايته الجلوس مع الله ، أو الانفراد بالله والتمتع بعشرته الإلهية ، في صلاة في تأمل ، في تسبيح ، في اعتراف ، في حب ... فهذا هو العمل الداخلي للوحدة .
لابد أن نهتم بالعمل الداخلي بكل قوتنا ، لأن الكتاب يقول : ملكوت الله داخلكم (لو17 : 21) .
إن وصلنا بالعمل الداخلي إلى أن يكون ملكوت الله داخلنا ، نكون بهذا قد وصلنا إلى عمق العمل الروحي حيث يملك الله على القلب ... وعلى الفكر ، وعلى كل ما فينا من مشاعر وأحاسيس ...
وكل عبادة بنا إلى هذا الهدف ، لابد أنها قد أخطأت الطريق .

والعمل الداخلي له اتجاهان : عمل مع الله ، وعمل مع النفس ...

أنت تعمل مع نفسك لكي تضبطها حسناً ، وتراقب كل أفكارها وحواسها ورغباتها ، وتبكتها إن انحرفت ، وتعيد مسارها إلى الوضع السليم ، وتقنعها بطريق الرب وجماله ، وتذكرها بالأبدية لكي تعد ذاتها لها بكل جدية وجهاد ...

وعملك مع الله أن تصارع الله لكي يثبت ملكوته في قلبك . كذلك عملك مع الله هو المفاجأة والحب ...

لاشك أن تكوين علاقة مع الله ، وتعميقها يوم بعد يوم ، هو عمل داخلي . وهذا العمل الداخلي لا تصلح له المظاهر الخارجية ولا الشكليات ، ولا السلوك في الطريق الروحي كمجرد واجب ...
والحياة الروحية ليست مجرد ممارسات خارجية وقوانين ونواميس ، إنما هي محبة لله وللناس .
والمحبة عمل داخلي ، يحتاج إلى رعاية وحفظ وتنمية ...
هذا من جهة الذين في العالم . أما الرهبان فعملهم الداخلي يأخذ معني أكثر عمقاً وسموا ... ولهذا نسأل :
ما معنى عبارة راهب عمال ؟
الراهب العمال هو المنشغل باستمرار بالعمل الجواني ، بحيث يكون عقله وفكره يشتغلان باستمرار مع الله .
وإن كان قد قيل عن الرهبنة إنها " الانحلال من الكل ، للارتباط بالواحد " ... يكون العمل الجواني للراهب إذن ، هو كيف يربط عقله باستمرار بالله ، وكيف يربط كل عواطفه بمحبة الله ، ويطرد كل فكر غير ذلك .
لهذا عليه أن ينشغل بالصلاة والتأمل والتسبيح والترتيل والقراءة الروحية ، حتى يكون عقله مع الله دائماً . لأنه إن لم يفعل هكذا ، سيشرد ذهنه بعيداً ، ويقع في طياشة الأفكار .

وعمله الجواني مع الله يدعوه بالضرورة إلى التزام الصمت ...

وذلك كما كان يقول القديس ارسانيوس " لا استطيع أن أتكلم مع الله والناس في نفس الوقت " ...
وكما قال أحد الآباء ــ الراهب الكثير الكلام ، يدل على أنه فارغ من الداخل ــ أي فارغ من العمل الجواني .
لهذا لجأ الأباء إلى الوحدة ، وحصروا على الصمت وحفظ الحواس ، لكي يستمروا في عملهم الداخلي مع الله ، حتى وصلوا إلى الصلاة الدائمة وإلى صلب العقل فلا يطيش هنا وهناك .

فوائد العمل الجواني

لعل في مقدمتها الارتباط الدائم بالله ... وأيضاً شعور الإنسان بضعفه إذ يشعر أنه عاجز عن تنفيذ تدريب الانحلال من الكل للارتباط بالواحد . وهكذا كلما يزداد إلتصاقاً بالله يزداد اتضاعاً .

والشيطان لا يترك هذا العمل الجواني بدون حروب ومعوقات .

فيحاول بقدر إمكانه أن يشتت الفكر ، ويعوض عليه عشرات الموضوعات ، ويشعره بأهميتها لينشغل بها ... كما قد يرسل إليه من الزوار والأصدقاء من يشغله عن عمله الروحي ، ويرسل إليه مشغوليات لا تحصي ... بل قد تحاربه الرعاية أيضاً لتأخذ وقته واهتماماته بدلاً من الانفراد بالله ... !

الفصل الثامن

الأمانة

أهمية الأمانة وحدودها.
أمانتك تجاه الله .
أمانتك نحو نفسك .
أمانتك نحو الآخرين .

الأمانة في القليل

كيف يمكنني ؟
الخدمة والتكريس .
الإرادة والفكر .
المحبة .
الجسد والروح .
الصلاة .
أمثلة عديدة .

الأمانة

أهمية الأمانة وجذورها

لست أقصد مجرد الأمانة في المال والأمور المادية ، أي أن الإنسان لا يكون سارقاً أو ناهباً لغيره ... إنما أقصد الأمانة بوجه عام في كل تصرفات الشخص وحياته الروحية :

أمانة في علاقته مع الله ، ومع الناس ، ومع نفسه .

وقد دعانا السيد المسيح إلى هذه الأمانة فتحدث عن الأمانة في الخدمة ، وعن " الوكيل الأمين الحكيم ، الذي يقيمه سيده على عبيده ليعطيهم طعامهم في حينه " (لو12 : 42) . بل أنه أكثر من هذا :

ذكر أن الأمانة هي مقياس الدينونة ، وعماد الدخول إلى الملكوت .

إذ أنه سيقول لمن يستحق الدخول إلى ملكوته " نعماً أيها العبد الصالح والأمين كنت أميناً في القليل ، فأقيمك على الكثير . أدخل إلى فرح سيدك " (متى25 : 21 ، 23) .

ولكن إلى أي حد تكون الأمانة ؟ يقول الرب :

" كن أميناً إلى الموت ، فسأعطيك إكليل الحياة " (رؤ2 : 10) .

" إلى الموت " ، أي إلى الحد الذي تبذل فيه ذاتك وتضحي بحياتك ، من أجل أن تكون أميناً ... ولعل هذا يذكرنا بتوبيخ القديس بولس الرسول للعبرانيين على عدم أمانتهم في مقاومة الخطية . فيقول في ذلك :

" لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية " (عب12 : 4) .

" حتى الدم " ، أي لو أدي الأمر أن يكون الإنسان مستعداً لسفك دمه ، وهو يجاهد ضد الخطية . وبذلك يكون أميناً في علاقته تجاه الله ، ولا يخونه بالاستلام للخطية .

والأمانة هي التي ساعدت الأبرار على الوصول .

كثيرون بدءوا الطريق معاً . ولكن بعضهم وصل ، والبعض لم يصل ، والبعض تأخر . وما السبب في ذلك ؟ السبب هو أن البعض كانوا أمناء في كل واجباتهم الروحية ، فاستطاعوا أن ينالوا الأكاليل ، بعكس غيرهم ...

والأمانة تشمل الأمور العالمية ، كما تشمل الأمور الروحية :

فكما يهتم كل إنسان بر وحياته ، ينبغي أن يكون أميناً في كل عمل يعمله فالتلميذ ينبغي أن يكون أميناً في كل عمل يعمله . فالتلميذ ينبغي أن يكون أميناً في حياته الدراسية ، في مذكراته ومراجعته ونجاحه

وتفوقه . وكذلك العامل في إتقانه لعمله وحفظه لمواعيده ، وكذلك الموظف ، وكل من هو في مسئولية ...

يوسف الصديق كان إنساناً روحياً ، وأميناً في عمله .

كان أميناً في خدمته لفوطفيار ، حتى أزدهر عمل الرجل . وكان أميناً أيضاً في عمله كوزير تموين لمصر ، حتى أنقذها وأنقذ البلاد المحيطة من المجاعة . بل كان أميناً أيضاً في عمله وهو سجين ، لدرجة أن حافظ السجن ائتمنه على مسئوليات ...

وهناك في الحياة العملية ، أمور لاختبار الأمانة :

مثال ذلك من يحصل على شهادة مرضية زائفة ، لمجرد الحصول على عطلة من العمل بدون وجه حق . وهو لا يكتفي بأن لا يكون أميناً ، بل يعثر في ذلك الطبيب بمكافأة على عمل زائد (over time) بينما يمكن القيام بالعمل في الوقت العادي بدون زيادة ...

والأمثلة كثيرة :

ومنها أيضاً من ينتقل الأخبار بطريقة غير أمينة ...

أو من لا يكون أميناً على سر أؤتمن عليه ...

ومن لا يؤدي أية مهمة كلف بها بالأمانة المطلوبة :

ننتقل إلى نقطة أخرى وهي :

أمانتك تجاه الله

إذا كان الله أميناً في علاقته بنا ، للدرجة التي وصلت إلى التجسد والفداء ، وإلى هذا الحد وصلت محبته ووصل بذله ، فكم بالأولي يجب علينا نحن أن نكون أمناء ؟!

وأمانتك تجاه الله ، تعني أنك لا تخونه أبداً .

خذ مثالاً لذلك : إنسان متزوج ، إن كانت زوجته أمينة له ، فمهما أعطاها من حرية دون رقابه ، تكون أمينة له ، لا نخونه ، ولا تكون لها علاقة مع غيره ...

كذلك نفسك ، إنها عروس للمسيح ، لا تخونه مع العالم ، ولا تخونه مع الشيطان ، ولا مع أي فكر شرير .

قلبك الذي هو ملك له ، لا تفتحه لأعدائه .

والإنسان الأمين ، لا يتساهل مع أية خطية ، لأنها عداوة لله . لا يتراخي مع أي فكر خاطئ ، بل بكل أمانة يطرده بسرعة . لا تقبل على الإطلاق أي أمر يفصله عن الالتصاق بالله ، معتبراً أن كل خطية هي خطية موجهة أساساً إلى الله ، لأنها ضد أي أمر يفصله عن الالتصاق بالله ، معتبراً أن كل خطية موجهة أساساً إلى الله ، لأنها ضد محبته وضد مشيئته وضد وصاياه ، وضد الثبات فيه ، كما تسامي يوسف الصديق عن الخطية وهو يقول :

كيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطئ إلى الله " (تك39 : 9) .

معتبراً أن تلك الخطية ليست موجهة أصلاً إلى فوطيفار أو إمراته ، إنما هو فيها " يخطئ إلى الله " ... وبنفس المعني قال داود النبي للرب في المزمور الخمسين " لك وحدك أخطأت والشر قدامك صنعت) ...

والخطية هي انفصال عن الله ، بل هي تمرد عليه .

والإنسان الأمين في علاقته مع الله ، لا يقبل اطلاقاً ما يفصله عنه ، كما قال القديس بولس الرسول " فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ، ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ، ولا علو ولا عمق ، ولا خليقة أخري ، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله ، التي في يسوع المسيح ربنا " (رو8 : 38) .

الذين عرفوا الله بالحقيقة ، لم يتركوه أبداً .

وتقدم مثالاً لذلك ، قديسي التوبة ، الذين لما تابوا ، وذاقوا محبة الله ، لم يرجعوا مرة أخري إلى الخطية ، التي تفصلهم عن محبة الله . بل استمر نموهم في المحبة حتى وصلوا إلى درجات من الكمال . ونذكر من بين هؤلاء : القديس أوغسطينوس والقديس موسى الأسود ، والقديسة مريم القبطية والقديسة بيلاجية .

وعن الحياة الخاطئة السابقة ، قال القديس أوغسطينوس للرب :

لقد تأخرت كثيراً في حبك ، أيها الجمال الفائق الوصف .

معتبراً ومعترفاً أنه كان في حالة الخطية بعيداً عن محبة الله . هذا من الناحية السلبية . أما من الناحية الإيجابية فتقتضي الأمانة لله أن يكون الإنسان أميناً في كل أعماله الروحية : في صلواته لأنها حديث مع الله ، وفي قراءته للكتاب ، لأنه في ذلك يستمتع إلى الله . كما يكون أميناً في تأملاته وفي تسابيحه وفي اعترافه وفي تناوله وفي صومه ...

كما يكون أيضاً أميناً في خدمته وروحانيتها .

أميناً في التعليم ، كما قال الرسول " تكلم بما يليق بالتعليم الصحيح " (تى2 : 1) . فلا يقدم أفكاره الخاصة كعقيدة . ولا يقدم تعليماً للناس إلا ما قد تسلمه من الكنيسة عن طريق قديسيها . كما قال القديس بولس لتلميذه تيموثاوس " وما سمعته مني بشهود كثيرين ، أودعه أناساً أمناء ، يكونون أكفاء أن يعملوا آخرين أيضاً (2تي2 : 2) .

وكما يكون أميناً في التعليم ، يكون أميناً في الافتقاد ، وفي السعي لرد الضال .

وقد أعطانا السيد المسيح مثلاً لذلك في السعي وراء الخروف الواحد الضال (لو15) ، وفي عمله من أجل زكا والمرأة الخاطئة ... وفي أنه جاء " ليخدم ويبذل نفسه فدية عن كثيرين " (مر10 : 45) .

ولنذكر من جهة الأمانه قول الكتاب :

" ملعون من يعمل الرب برخاوة " (أر48 : 10) .

فالأمين في عمل الرب ، يعمله بكل حرارة ، وبكل اجتهاد واخلاص ، وبكل غيره مقدسة ، وبكل عاطفة وحب . ويتعب من أجل الرب ، ولا يعطي لعينيه نوماً ، ولا لأجفانه نعاساً ، إلى أن يجد موضعاً للرب في كل قلب . كما قيل في الدسقولية عن الأسقف إنه " يهتم بكل أحد ليخلصه " . وينطبق هذا القول على كل معاونيه ...

وبهذه الأمانة في الخدمة عاش الأباء الرسل .

شهدوا للرب بكل أمان . كانوا أمناء ، وأوصلوا الرسالة إلى كل أقطار المسكونة ، كما قيل عنهم في المزمور " الذين ليس لهم صوت ، بلغت أصواتهم إلى أقطار المسكونة " (مز19) . فعلوا ذلك بكل مجاهرة وبكل قوة ، واحتملوا السجن والجلد والطرد والعذاب ، وهم يقولون عبارتهم المشهورة " ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس " (أع5 : 29 9 . وكمثال لهذه الأمانة قال القديس بولس الرسول :

" جاهدت الجهاد الحسن ، أكملت السعي ، حفظت الإيمان " (2تي4 : 7) .

وقال " وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا قواني ، إنه حسبني أميناً إذ جعلني للخدمة " (1تي 1 : 12) . وهكذا كان القديس بولس يمتدح في مساعديه أمانتهم في الخدم . فيقول " تيخكس الأخ الحبيب والخادم الأمين في الرب " (أف6 : 21) و" ابفراس العبد الحبيب معنا الذي هو خادم أمين للمسيح " (كو1 : 7) ، " وانسيمس الأخ الأمين الحبيب " (كو4 : 6) ، " تيموثاوس الذي هو ابني الحبيب والأمين في الرب " (1كو4 : 17) .

لهذا نسمي المسئول عن الخدمة : أمين الخدمة .

سواء الأمين العام ، أو أمين الفرع ، أو أمين أسرة ... كل منهم قد وضعت الخدمة أمانة في يده ، لكي يقوم بعمله فيها بكل أمانة . لذلك يقال عن الخادم إنه أؤتمن على خدمة . أو استأمنه الله عليها ، وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول " الكرازة التي أؤتمنت أنا عليها " (تى1 : 3) ، " أؤتمنت على إنجيل الغرلة ، كما بطرس على إنجيل الختان " (غل2 : 7) . ويقول أيضاً " قد استومنت على وكالة ... فويل لي إن كنت لا أبشر " (1كو9 : 17 ، 16) . والخدمة إن أمانة أمام الله ، ينبغي أن يكون فيها الخادم أميناً ، وليس هو مجرد لقب ...

والأمين في علاقته مع الله ، يكون أيضاً أميناً في عهوده وفي نذوره ...

من أول عهد نطقته أمه في جحد الشيطان ، نيابة عنه في يوم معموديته ، إلى سائر المناسبات ، وتعهداته في سائر لمناسبات وبخاصة في أوقات الضيقات ...

ويدخل في هذا النطاق نذوره التي يقول عنها الكتاب :

" أن لا ينذر ، خير من أن تنذر ولا تفي " (جا5 : 5) .

لذلك عليك أن تجلس إلى نفسك ، وتتذكر كل عهودك ونذورك ، لكي تفي بها ولو متأخراً ، فهذا خير من أن تهملها تماماً . ولا تحاول بعد أن تنذر ، أن تعود فتناقش الأمر من جديد ، وتساوم ، وتحاول أن تغير وتبدل ، أو تتخلص من نذرك وعهودك . وقبل النذر والتعهد ينصحك الكتاب قائلاً " لا تستعجل فمك . ولا يسرع قلبك إلى نطق كلام قدام الله " (جا5 : 2) .

أمانتك للرب تشمل أيضاً أمانتك في الشعور والبكور .

لأنها ليست لك . إنها نصيب الرب . تدفعه لمستحقيه . للكنيسة والفقراء ... وإلا كانت هذه الأموال هي " مال ظلم " عندك . قد ظلمت فيه من يستحقونه ، واستبقيته عندك . وعن هذا المال وأمثاله يقول الكتاب " اصنعوا لكم أصدقاء من مال الظلم " (لو16 : 9) . وهكذا يقول الرب في سفر ملاخي النبى " أيسلب الإنسان الله ؟! فإنكم سلبتموني ! فقلتم بما سلبناك ؟ في الشعور والتقدمة " (ملا3 : 8).

ننتقل إلى نقطة أخري وهي :

أمانتك نحو نفسك

وتشمل أموراً عديدة منها : أمانتك لأبديتك ، والاهتمام بروحك ، وبنموك الروحي ، وأمانتك في مقاومة الخطية ، وأمانتك من جهة وقتك ، ومن جهة عقلك ...

الأمين لأبديته يبذل كل جهده لكي يؤهل لها .

هذا ينظر إلى نفسه كغريب على الأرض ، لا يشتهي شيئاً مما فيها ، وكل رغباته مركزة في الحياة الأبدية ، كما قال الكتاب " غير ناظرين إلى الأشياء التي تري بل إلى التي لا تري . لأن التي تري وقتيه . أما التي لا تري فأبدية " (2كو4 : 18) .

وهو في ذلك يهتم بروحه بكل الاهتمام أكثر مما يهتم بجسده .

وهذا عكس ما نراه في دنيانا . لأن كثيرين يهتمون بأجسادهم في أكلها وفي لبسها وفي صحتها وفي علاجها وتقويتها وأيضاً في رياضتها ... بينما أرواحهم لا يهتمون بها على الإطلاق ، كما لو كانت أبديتهم لا تشغل بالهم أبداً ...

الأمناء لأبديتهم يهتمون بغذاء أرواحهم .

يقدمون للروح كل ما تحتاجه من كلمة الله ، ومن الصلوات والتراتيل والتأملات ، ومن الاجتماعات الروحية والصدقات الروحية . وما يغذيها من سر الأفخارستيا ، بكل استعدادته ، وما يغذيها أيضاً من محبة الله ومن ثمار الروح ، ومن التداريب الروحية النافعة .. فهل أنت كذلك .

والأمناء لأبديتهم يهتمون بعلاج أرواحهم .

إن وجدوا أي مرض روحي يزحف إليهم ، يلجأ ون إلى طبيب أرواحنا وأجسادنا ، إلهنا الـذي قـوة بروحه القدوس . كما يلجأ ون إلى الآباء والمرشدين الروحيين يطلبون علاجاً لأنفسهم علاجاً من كل شهوة خاطئة ومن كل فكر شرير ...

والأمناء لأرواحهم دائماً بنموهم الروحي .

فهم لا يكتفون أبداً بأي مستوي يصلون إليه ، ذلك لأن الله يطلب منهم القداسة والكمال . فيقول " كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل " (متى5 : 48) ويقول الكتاب أيضاً " نظير القدوس الذي دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين في كل سيرة " (1بط 1 : 15) .

لذلك فالأمناء لأرواحهم يعيشون جياعاً وعطاشاً إلى البر .

وذلك لينالوا الطوبي التي وعد بها الرب (متى5 : 6) . عطشهم إلى الرب لا ينتهي ، مهما ارتـووا منه يطلبون المزيد ، قائلين مع داود رجل المزامير والصلوات " عطشت نفسي إليك " " كمـا يشـتاق الأيل إلى جداول المياه ، كذلك اشتاقت نفسي إليك يا الله " (مز63) . ومهما ارتفعوا في الفضـيلة ، يشعرون أنهم في حاجة إلى مزيد ، كما حدث للقديس بولس الذي صعد إلى السماء الثالثة (2كو12 : 2 ، 4) . وع ذلك كان يقول " لست أحسب نفسي " لست أحسبت نفسي أني قد أدركـت ... ولكنـي أسعي لعلي أدرك ... أنسي ما هو وراء وامتد إلى ما هو قدام . اسعي نحو الغرض ... " (فـي 3 : 12 ــ 14) .

وهكذا فالأمين لروحياته يعيش في نمو دائم .

كالشجرة التي هي كل يوم في نمو ، سواء شعرت أنت بذلك أم لم تشعر ... وقد قال المزمـور فـي ذلك " الصديق كالنخلة يزهو ، كالأرز في لبنان ينمو " (مز92 : 12) . إنه ينمو في صلواته طـولاً وعمقاً ، وينمو في إيمانه وفي اتضاعه وفي محبته ، كما ينمو قي بذله وعطائه ، ولا يقف عند حـد . ويوبخ ذاته كلما توقف نموه .

وفي نموه لا يبحث عن أبديته فقط، أنما أيضاً عن مركزه فيها .

ومادام كل إنسان سيأخذ أجرته بحسب تعبه (1كو3 : 8) ، فهو يتعب بكل جهده ، لينال أجره أكثر . ومادام " نجم يفوق نجماً في المجد " (1كو15 : 41) . فهو أيضاً يعمل لكي يستحق تلـك الأمجـاد الأبدية و يتفانى في محبة الله ، وينمو فيها باستمرار ، حتى يمكنه أن يتمتع بذلك في الأبدية ، شاعراً أن نموه في محبة الله ، ليس يساعده فقط على أبدية أسعد ، إنما أيضاً يحرسه هنـا مـن السـقوط . والأمانة تدعوه أن ينمو ...

فهل أنت ذلك، وهل في كل يوم تنمو ؟ ...

أم تراك مازلت حيث أنت وقد توقف نموك . أم أنت ترجع إلى خلف ، وقد بردت محبتك الأولي . أم أنت لا تزال محتاجاً إلى توبة لكي تقوم .. ؟ اسأل نفسك . فإن كنت كذلك فإن الأمانة تقتضـي منـك الجهاد بكل قوتك في مقاومة الخطية .

احترس من أن تخجل أحد أبواب نفسك مفتوحاً للخطية .

بكل أمانة سد جميع الأبواب التي يدخل منها الشيطان إلى نفسك . كن أميناً في ضبط فكرك وفي ضبط حواسك . لأن الحواس أبواب للفكر . كما أن الفكر باب تدخل منه الشهوة إلى القلب . أما أنت فرتـل مع داود النبي قائلاً " سبحي الرب يا أورشليم . سبحي إلهك يا صهيون . لأن الـرب قـوي مغـاليق أبوابك ، وبارك بنيك فيك " (مز147) . حقاً كما قيل في النشيد :

" أختي العروس جنة مغلقة ... ينبوع مختوم " (نش4 : 11) .

إنها جنة حافلة بثمار الروح ، ولكنها مغلقة أمام عدو الخير وكل أفكاره وكل حيلة ، لا يستطيع أن يدخل إليها ، لأن الرب في داخلها . إنها هيكل لروحه القدوس (1كو3 : 16) . لذلك هي محصنة تماماً ضد هجمات العدو .

هذه النفس الأمينة تشبه سفينة بلا ثقوب .

لا يوجد فيها ثقب واحد يدخل منه الماء . الماء يحيط بها من كل جانب ، ولكنه في الخارج ، لا يجد منفذاً أمامه ينفذ منه إلى داخلها . هكذا الإنسان الأمين . وإن رأي الشيطان يحاول أن يثقب ثقباً في نفسه ، يسارع بعلاجه بلا إبطاء . وتبقي نفسه سليمة ، يحاربها الشيطان من الخارج ، دون أن يدخلها

والإنسان الأمين لروحياته لا يبرر نفسه إن سقطت .

ولا يتعذر بضعفه ، ولا بشدة الحروب التي تصادفه ، بل هو يقاوم حتى الموت . إن يوسف الصديق رفض الخطية ، ولم يعتذر بالظروف الضاغطة عليه . ودانيال النبي والثلاثة فتية تمسكوا بالرب ولم يعتذروا بأنهم أسري في السبي ، وبأن التهديدات شديدة ومرعبة : جب الأسود وأتون النار ... بل صمدوا . وكذلك كان الشهداء أمام كل ألوان التعذيب والتخويف ...

فالإنسان الأمين إنسان صامد ، يحارب حروب الرب ببسالة .

لا يقول " حدث هذا الأمر غضباً عني ، أو فوق إرادتي " . كلا بل إنه يقف أصعب الحروب الروحية ، كما وقف داود الصبي أمام جليات الجبار ، بكل إيمان وبدون خوف ، واثقاً أن الله سينصره . والإنسان الأمين في حروبه يذكر ما يقال عن ضابط الجيش الباسل :

إنه يقاوم إلى آخر طلقة وأخر رجل .

أي بكل ما عنده من جهد ، وبكل ما أوتي من نعمة ومن معونة ، ولا يستسلم مطلقاً للعدو ، ولا يخون الرب ، ولا يعتمد على أعذار يقدمها .

وقصص الكتاب وقصص التاريخ حافلة بأمثلة الأقوياء الأمناء الذين ثبتوا في محبة الرب مهما كانت الظروف المحيطة بهم .

إذا وجدت أمانة القلب ، توجد أمانة الإرادة .

فالذي يريد ، يستطيع . وإن أعوزته القوة ، يطلبها من فوق فتأتيه . ولذلك مع حديث القديس بطرس الرسول عن قوة الرسول ع قوة الشيطان ، وكيف أنه مثل أسد يزأر ويجول ملتمساً من يبتلعه هو ، نراه يقول بعد ذلك :

" فقاوموه راسخين في الإيمان " (1بط1 : 8 ، 9) .

نعم ، إن المقاومة هي دليل الأمانة ، على أن تكون مقاومة جادة ، من عمق القلب ، وبكل الإرادة . وماذا تكون نتيجة المقاومة ؟ يقول القديس يعقوب الرسول :

" قاوموا إبليس فيهرب منكم " (يع4 : 7) .

المهم إذن في القلب النقي الأمين الذي يريد أن يقاوم ، ويدفع الإرادة لكي تقاوم . ولهذا كان الرب يسأل عن حالة القلب أولاً ، وقبل أن يشفي مريض بيت حسدا ، يسأله أولاً " أتريد أن تبرأ " (يو5 : 6) .

إن الشيطان من عادته أن يجس نبضك أولاً .

يختبرك هي تتساهل معه ولو في أمر بسيط جداً . فإن فعلت ، يتجرأ إلى ما هو أكثر . إن فتحت أمامه ولو فتحته كثقب إبرة ، يهجم عليك بقوة أكثر ، لأنه يدرك بذلك أن أمانتك ليست كاملة أمام الله ، وأ تساهلك في القليل يشجعه على أن يجد فيك موضعاً ، أو نقطة ضعف يستغلها !

إن تساهلت في الحواس ، يحاربك بالأفكار .

وإن تساهلت مع الفكر ، يحاربك بالشهوة .

وإن تساهلت مع الشهوة ، يحاربك بإتمام الفعل .

لذلك لا تتساهل مطلقاً في أي شئ . وإن سقطت في خطوة ، أسرع وقم ولا تتطور إلى غيرها . فالأمانة تقتضي منك أن تلاحظ نفسك ، ولا تهمل في نقاوتها ولا في أمر خلاصها . وإن وجدت الشيطان قد ألقى في فكرك أي أمر رديء ، تذكر بسرعة قول الكتاب :

" مستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح " (2كو10 : 5) .

الإنسان الأمين لأبديته وروحيا ته يراقب نفسه . لا ينتظر حتى تسقط سقطه مميتة ، إنما إن وجدت شيئاً من الفتور قد زحف إليها ، يسرع إلى معالجته لئلا يتطور الأمر معه . إن يقاوم الخطأ من بادئ الأمر ، ولا تمهل حتى يصل إلى خطورة تتعبه . ذلك لأنه إن تراخي ، لن يتراخى الشيطان معه .

إن الإنسان الأمين لا يعتذر بقله إمكانياته .

إنما هو يحاول إمكانياته باستمرار. وهو لا يعتذر بعدم قدرته ، لأن الله قادر أن يمنحه القوة . والله أمين لا يسمح أن يجرب أحد بما هو فوق قدرته . وفي ذلك قال الرسول " ولكن الله أمين ، الذي لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون . بل سيجعل مع التجربة المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا " (1كو10 : 13) .

الإنسان الروحي أمين من جهة وقته .

يستغله فيما يفيده من كل ناحية ، يفيده روحياً ، ويفيده عقلياً ، ويفيده من جهة خدمة الآخرين . وهو يرى أن هذا الوقت جزء من حياته لا يجوز أن يبدده بلا فائدة . والوقت أيضاً أمانة قد أؤتمن عليها ينبغي أن ينفقه في الخير فانظر كم من وقتك يضيع عبثاً . واسأل نفسك : هل أنا أمين من جهة وقتي ...

خذ مثلاً لذلك أمانتك من جهة يوم الرب .

إنه للرب ، ملك له . إن كنت غير أمين في قضاء هذا اليوم بطريقة روحية كيوم الرب ، يقال عن مواسم الرب وأعياده . إنها له ، أيام مقدسة . يقول الرب في سفر اللاويين " موسم الرب التي تنادون فيها محافل مقدسة . هذه هي مواسمي " (لا23 : 2) . ويذكر الرب تقديسها كالسبوت تماماً (لا23 : 8 : 25 ، 32 ، 39) .

فهل أنت أمين لأيام ومواسمه وأعياده ؟ وهل تقدسها ؟

أمانتك نحو الآخرين

الإنسان الأمين ، كما هو أمين لملكوت الله داخله ، هو أيضاً أمين لملكوت الله في الآخرين ، يحبهم كنفسه ، ويحرص عليهم كحرصه على نفسه ، ويهتم بخلاصهم ونموهم وسعادتهم كاهتمامه بنفسه . فهكذا الوصية (متى22 : 39) .

إن الله حينما خلق الشجر ، لم يخلقه الشجر ، ، إنما وضع فيه خاصية هامة وهي أنه جعله :

شجراً ذا ثمر ، يعمل ثمراً كجنسه (تك1 : 11) .

والبقل أيضاً خلقه " يبذر بذراً كجنسه " (تك1 : 12) . فهل أنت كهذا الشجر تعمل ثمراً كجنسك ، وتبذر ينبت هو أيضاً ؟ هل أنت تنشر ملكوت الله حيثما تحل ؟ ما مدي أمانتك لملكوت الله ؟ سؤال أقدمه لك ن تجيب عنه فيما بينك وبين نفسك ، وأيضاً تجيب عليه أمام أب اعترافك ...

هل إن دخلت بيتاً ، تدخله كلمة الله معك .

هل إن هشت وسط الناس ، أصدقاء أو معارف أو زملاء ، يكون لك فيهم ثمر روحي ، سواء بالكلام أو بالقدرة أو بكليهما ؟ هل إن زرت أناساً يقولون في قلوبهم " اليوم زارنا المسيح " ؟ هل بركة الرب تحل بسببك ؟

هل في أمانتك تصير للأرض ونوراً للعالم ؟

أليس هكذا أوصانا الرب في عظته على الجبل (متى5 : 13 ، 14) . فهل نحن أمناء في تنفيذ هذه الوصية ؟ إن القديس بطرس الرسول يقول " نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس " (1بط1 : 9) والقديس بطرس الرسول يقول " ... لكي أخلص على كل حال قوماً " (1كو9 : 22) . بل يقول " استعبدت نفسي للجميع ، لأربح الأكثر ين " (1كو9 : 19) .

القديس أغناطيوس الأنطاكي كانوا يلقبونه " ثيئوفورس " أي حامل الله .

فهل أنت أيضاً " ثيئوفورس " (حامل الله) ؟

تحمله للكل ، ويراه الكل في حياتك ، وتبني ملكوته في كل علاقاتك ...

ألا تري معي أن موضوع الأمانة يصلح ككتاب ، ويعز علينا أن نختصره في مقال ...! إذن ننتقل إلى نقطة هامة منه وهي :

الأمانة في القليل

كيف يمكنني ؟

لعل إنساناً يقول : الطريق الروحي طريق طويل . كيف أصل إلى نهايته ؟! كيف يمكنني أن أصل إلى القداسة التي بدونها لا يعاين أحد الرب ؟ وكيف أصل إلى الكمال المطلوب منى ؟ والجواب على ذلك سهل وممكن وهو :

كن أميناً في القليل ، يقيمك الرب على الكثير .

فهذه هي طريقة الله ، وهذا وعده . وهكذا سيقول للناس في يوم الدينونة (متى25 : 21 ، 23) . إذن هذا كل ما عليك . وليس عليك أن تفكر في نهاية المطاف مرة واحدة . بل أعرف تماماً أن أطول مشوار أوله خطوة .

كن أميناً في الخطوة الأولي ، يقيمك الله على باقي الخطوات .

كن أميناً في هدفك الروحي ، يدبر لك الله الوسيلة .
كن أميناً من جهة النية ، يقيمك الله على العمل .
إن الشيطان قد يصعب لك الطريق ويعقده ، ويضع أمامك مخاوف تصور لك الكثير المطلوب منك والذي لا تستطيعه ، لكي يوقعك في اليأس . أما الرب فإنه يطلب منك مجرد الأمانة في القليل . أما الكثير فإن الرب هو الذي سوف يقيمك عليه . ولذلك جميل أن المزمور الكبير يبدأ بعبارة :

طوباهم الذين بلا عيب في الطريق (مز119 : 10) .

يكفي أن تكون سائراً في طريق الرب بلا عيب . هذا هو ما يريده منك . أما الوصول إلى نهاية الطريق ، فاتركه هو يدبره . يبدو هو : متى ؟ وكيف ؟

الخدمة والتكريس

إنسان يقول : كيف تكون حياتي كلها للرب ؟ هل من المعقول أن يهبني الله تكريس الحياة له ؟ هل يمكن أن تكون كل الحياة في خدمته ؟ وكيف ؟ نقول لك :

ابدأ بالقليل الذي تستطيعه ، بإعطاء وقت الفراغ للرب .

ابدأ بتقديس يوم الرب للرب ، فإن كنت أميناً في هذا يمكن أن يقيمك على الأكثر . كن أميناً في خدمة مدارس الأحد وفصول التربية الكنيسة ، حينئذ إن سر الرب بأمانتك ، يقيمك على خدمة أكبر .

كن أميناً في كل خدمة تعهد إليك ، يقيمك الله على التكريس .

هناك قوم يظنون أنهم لا يستطيعون أن يخدموا الكنيسة إلا إذا تولوا قيادتهم العليا . يقول الواحد منهم : لو كنت مطراناً أو اسقفاً ، لفعلت وفعلت . لو كنت كاهناً ، لأصلحت هذا الحي كله ، أو هذه المدينة أو القرية كلها . بينما قد يكون بعيداً عن الخدمة ، أو خدمته ليست ناجحة . أما أنت فلا تقل هكذا ، إنما :

كن أميناً على بيتك ، يقيمك الروح على بيت الله .

افعل القليل الذي تستطيعه ، وكن أميناً في تربية أولادك ، حينئذ يقدم لك الله أولاده لتربيهم . ولعله من أجل هذا ، ذكر الكتاب في شروط الكاهن أنه " له أولاد مؤمنون ليسوا في شكاية الخلاعة ولا متمردين " (تى1 : 6) . وأيضاً " يدبر بيته حسناً . له أولاد في الخضوع بكل وقار . وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته فكيف يعتني بكنيسة الله ؟! " (1تي3 : 4 ، 5) .

فالذي لا يمكنه القليل ، كيف يمكنه الكثير ؟

الذي لم يستطيع أن يدبر بيتاً واحداً ، كيف يمكن أن يؤتمن على تدبير جميع المؤمنين ؟ إن الأمانة تختبر أولاً في القليل . ليس فقط من جهة بيت أو فصل في التربية الكنسية ، إنما هناك ما هو قبل هذا أيضاً . هناك الأمانة من جهة جياة الخادم الخاصة وحدها ، وكيف يدبرها . لذلك نقول :

لذلك نقول كن أميناً من جهة نفسك ، يقيمك الله على نفوس الآخرين .

أختبر أمانتك أولاً في تدبير نفسك ، هذه التي هي معك كل حين ، وتعرف كل أسرارها ، وتعرف نقط ضعفها ، ويمكنك أن توبخها ، ويمكنها أن تعطيك .. فإن كنت غير أمين في تدبير نفسك ، كيف تؤمن إذن على تدبير غيرك ؟! إن لم تقدر على قيادة نفس واحدة هي داخلك ، فكيف تقدر نفوس كثيرة ؟!
قال أحد القديسين : الذي لا يكون أميناً على درهم ، كاذب هو إن ظن أنه يكون أميناً على ألف دينار .

المهم هو الأمانة ، وليست الدرجة التي تتولاها .

القديس اسطفانوس لم يكن واحداً من الأثني عشر رسولاً ، ولا كان أسقفاً في الكنيسة ، إنما كان مجرد شماس . ولكنه كان أميناً لهذه الدرجة ، حتى آمن الكثيرون على يديه ، وافحم مجامع الفلاسفة . وصار في قمة قادة الكنيسة وهو شماس . وبالمثل كان الشماس أثناسيوس القديس ، وكان أيضاً الأغنسطس مارافرام السرياني ، والقديس سمعان الخراز .

والقديس الأنبا رويس ، كان أميناً بلا رتبة .

لم يكن شماساً ولا أغنسطساً ولا راهباً ، ولا من الاكليروس جملة ، ولا من خدام الكنيسة . ولكنه كان أميناً في حياته الروحية وفي علاقته مع الله ، فصار من قديسى جيله ، وموضع محبة وتقدير البابا البطريرك في جيله . المسألة إذن هي الأمانة في الحياة وليست الدرجة .

ما هي إذن أمانتك في مسئوليتك ، مهما كانت قليلة ؟

إن بطل أية رواية لا يشترط أن يكون ملكاً أو رئيساً أو قائداً ... بل قد يكون الخادم هو البطل في الرواية . والناس يقدرونه ويعجبون به من أجل أمانته في إتقان دوره ، بغض النظر عن ما هو هذا الدور ...
إذن كن أميناً في القليل الذي في يدك . واعرف إن صاحب الوزنتين نال نفس الطوبي التي نالها صاحب الخمس الوزنات ، لأنه كان أميناً مثله . وكان تطويب الرب مركزاً على الأمانة ، وليس على الوزنتين أو الخمس (متى25 : 21 ، 23) .

داود كان أميناً في رعي الغنم ، فأقامه الله على رعاية شعبه .

كان داود أميناً على القليل ، وهو الغنيمات القليلات في البرية (1صم17 : 28) ولما هجم أسد ودب على شاة من القطيع ، تصدي لهما داود أنقذ الشاة منهما . وإذ رأى الرب أمانته هذه أقامه على إنقاذ الجيش كله من جليات الجبار . وإذ كان أميناً في التصدي لجليات ، أقامه الله على المملكة كلها ...
وهكذا أنت ، ادخل في مثل هذه السلسة من الأمانة .

كن أميناً في بيت فوطيفار ، يقيمك الله على قصر فرعون وأرض مصر ...

كن أميناً في الإمكانيات القليلة التي معك ، يقيمك الله على إمكانيات أكثر وأكثر . كن أميناً في تقديم حفنة الدقيق التي معك وقليل الزيت الذي في الكوز ، كما فعلت أرملة صرفة صيدا ، يقيمك الله على كوار الدقيق الذي لا يفرغ وعلى الزيت الذي لا ينقص ، طول فترة المجاعة (1مل17 : 12 ، 16).

الإدارة والفكر

لعلك تقف يائساً أمام أخطاء مسيطرة عليك ، ، كأنها عادة متمكنة ، أو طبع ثابت ، وأنت تصرخ مع الرسول " ... أما أن أفعل الحسنى ، فلست أجد . لأني لست أفعل الصالح الذي أريده ، بل الشر الذي أريده ، إياه أفعل " (رو7 : 18 ، 19) .

فماذا أقول لك ؟

كن أميناً فيما هو في مقدور إرادتك ، يقيمك الله على ما هو فوق إرادتك .

كن أميناً في مقاومة الخطايا الإرادية ، يقيمك الله على مقاومة الخطايا غير الإرادية ... تقول وماذا أفعل من جهة الأحلام الخاطئة التي تأتيني وأنا نائم ، لا أملك ردها عنى ، وهي أشياء مترسبة وراسخة في عقلي الباطن ؟ أقول لك :

كن أميناً في ضبط عقلك الواعي ، يقيمك الله على ضبط العقل الباطن .

كن أميناً في مقاومة أخطاء الصحو ، يقيمك الله على مقاومة أخطاء النوم . كن أميناً في حراسة فكرك أثناء النهار ، يقيمك الله على نقاوة الفكر في الليل . فإن حرصت على نقاوة فكرك وأنت نائم لتكن لك أفكاراً مقدسة بالنهار ، حينئذ تصحبك قدسيتها بالليل ...

وإن كنت أميناً في محاربات الحواس ، ينصرك الله في حروب الفكر .

ذلك لأن الحواس هي أبواب الفكر ومسبباته . فإن كنت أميناً في الابتعاد عن مسببات الفكر الخاطئ ، سيحرسك الله من الأفكار الخاطئة .

وإن كنت أميناً في محاربة الأفكار ، يقيمك الله على نقاوة القلب ، وهي أفضل وإن كنت أميناً في محاربة الأفكار ، يقيمك الله على نقاوة القلب ، وهي أفضل . وإن كنت أميناً في الحفاظ على هذه النقاوة ، يقيمك في اليوم الأخير على إكليل البر (2تى4 : 8) ، في العالم الآخر ، حيث لا تعرف خطية ...

تقول : أريد أن أصل إلى المحبة الكاملة ، فأحب الله من كل قلبي ومن كل فكري (تث6 : 5) وأحب الناس كلهم حتى أعدائي . وأحب الخير . فهل من الممكن أن أصل إلى ذه الفضيلة التي تبدو صعبة ؟ أقول لك : ابدأ بالقليل ، تصل إلى الكثير ...

إن كنت أميناً في حفظ فضيلة (مخافة الله) ، حينئذ يقيمك الله على فضيلة المحبة .

وذلك لأن " بدء الحكمة مخافة الرب " (أم9 : 10) . فإن كنت أميناً في مخافة الله ، وبذلك تحفظ وصاياه ، يقيمك الله بعدئذ على " المحبة التي تطرح الخوف خارج " (1يو4 : 18) . لأن الأمانة في درجة توصل إلى درجة أخري أعلى منها ..

تقول : وكيف أحفظ الوصايا ، وأنا أحب العالم ؟! وهناك وصايا ، قلبي يحب ما هو ضدها !! أقول لك : ابدأ بالتغصب نفسك على عمل الخير .

وإن كنت أميناً في التغصب ، ستصل حتماً إلى محبة الخير .

لأن المحبة ، محبة الله ومحبة الخير ، قد لا تكون نقطة البدء ، وإنما نتيجة لعمل روحي طويل . فأغصب نفسك على عمل الخير . وإذ تمارسه ، ستجد فيه لذة ، وحينئذ تحبه وتعمله حباً بدون تغصب . وهكذا يكون الله قد أقامك على الكثير .

كذلك إن كنت أميناً في محبة أخيك الذي تراه ، ستصل إلى محبة الله الذي لا تراه (1يو4 : 20) .

ابدأ إذن بهذا القليل وهو محبة الناس ، تصل إلى الكثير الذي هو محبة الله . ولكن لعلك تقول : كيف أصل إلى محبة الناس ، وفيهم أعداء ومقاومون ؟! كيف يمكنني أن أصل إلى محبة الأعداء ؟ أنك تصل بنفس القاعدة : وهي كن أميناً في القليل .

كن أميناً في محبة أقربائك ، تصل إلى محبة معارفك .

لأن القلب الذي تعوده على المحبة ، سيأتي وقت تنزع منه الكراهية تماماً . فتصبح العداوة من جانب واحد فقط . هي في أعدائك وحدهم ، وليست فيك ...

الجسد والروح

الذي هو أمين للفضيلة التي تمارس بالجسد ، يرتقي إلى فضيلة الروح .

فالأمين في صوم الجسد عن الطعام ، يقيمه الله على صوم الروح عن الخطيئة .

فيصوم لسانه عن الكلام الباطل ، ويصوم ذهنه عن الفكر الشرير ، ويصوم قلبه عن الشهوات الخاطئة . أما الذي لا يكون أميناً في صوم الجسد عن الأكل ــ وهذا شئ قليل لا يحتاج إلى مجهود ــ كيف إذن يمكنه أن يصل إلى صوم الروح ؟! كذلك قال أحد الآباء :

بسكون الجسد نقتني سكون النفس .

سكون النفس شئ كبير لا نصل إليه إلا إذا كنا أمناء في سكون الجسد . أي عدم انشغاله بالجولان من موضع إلى موضع ، مع ضبط الحواس من الطياشة فيما لا يفيدها سمعاً ونظراً ولمساً وشماً ...

كذلك بخشوع الجسد نقتني خشوع الروح .

وبالأمانة في أتضاع الجسد نقتني أتضاع النفس .

لاشك أن الذي يكون خاشعاً بجسده أثناء الصلاة ، واقفاً باحترام ، رافعاً نظره إلى فوق ، حافظاً لحواسه وحركاته ، يركع وقت الركوع ، ويسجد وقت السجود . إن فعل هذا بكل أمانة ، ينعم الله عليه السجود الروح والحق . والذي يقول كلمة أجيوس (قدوس) وهو ينحني بكل إيمان ، لاشك أن هذا الانحناء يولد الخشوع في قلبه ..

وبهذا نستفيد من خلع الحذاء حينما ندخل إلى الهيكل ونسجد أمامه .

إنها أعمال جسدية ، ولكنها إذا عملت بأمانة وإيمان ، تنقل خشوع الجسد إلى الروح ، فتخشع هي أيضاً . وذلك لارتباط الجسد والروح معاً .

وهكذا إذا كنا أمناء في هيكلنا الجسدي ، يتحول إلى هيكل لله .

وإذا كنا أمناء في هذا الجسد المادئ ، يقيمنا الله على الجسد النوارنى الروحاني في يوم القيامة (1كو15 : 44) .

وإن كنا أمناء في الأمور المادية عموماً ، يقيمنا الله على الأمور الروحية ... ولنأخذ الصلاة كمثال ...

الصلاة

لعل إنساناً يقول لأي أحد أن " يصلي كل حين ولا يمل " (لو18 : 1) وكيف يمكن تنفيذ الوصية القائلة " صلوا بلا انقطاع " (1تس5 : 17) ؟! أليس هذا كثيراً علينا جداً ؟! نعم إنه كثير ، إن اعتبرته نقطة البدء . لكن ابدأ بالقليل يقيمك الله على الكثير .

كن أميناً في تعود الصلاة ، يقيمك الله على طول الصلاة .

إن كنت أميناً في صلاة " أبانا الذي " ، وقلتها في عمق ، وأنت تعني كل عبارة فيها ، لاشك أنها ستفتح لك أبواباً من التأملات ، وتقودك إلى صلوات أخري كثيرة ...

وإن كنت أميناً في الصلوات المحفوظة ، يقيمك الله على صلاة القلب .

وتبقي أمامنا مشكلة الوقت ، يثيرها البعض . نقول فيها : إن كان الإنسان أميناً على الصلاة في الوقت المتاح له ، سيتيح له الله أوقاتا أخري كثيرة يصلي فيها . إنما المشكلة هي أنه أمامنا وقت طويل يمكننا الصلاة فيه ، ولكننا نضيعه عبثاً ، ولا نكون أمناء من حيث رغبتنا في الصلاة ...

يثير البعض سؤالاً آخر عن درجات الصلاة ، وحالات الدهش والثيئوريا ، والصلاة بدموع ، وكيفية الوصول إلى كل هذا ؟ نجيب بنفس المبدأ : الأمين في القليل يقيمة الله على الكثير .

كن أميناً من جهة الصلاة بفهم وحرارة ، يقيمك الله على الصلاة بدموع ...

كن أميناً في المداومة على الصلاة ، وبحب لله ، يقيمك الله على باقي الدرجات . تأتي وحدها ، دون أن تشتهيها كدرجة ... لأن موضوع الدرجات ، قد تدخل فيه الذات ... الحياة الروحية هي سلم روحاني ، لا تستطيع أن تصل إلى أعلى درجات ، إلا إذا اجتزت كل درجة سابقة بسلام .

أمثلة عديدة

كن أميناً على الذي في يدك ، يقيمك الله على الذي في يده هو .
كن أميناً في استخدام إمكانياتك الحاضرة ، يقيمك الله على الإمكانيات التي ليست لك . إن أتقنت المشي مع المشاة دون أن تتعب ، يقيمك الله على مباراة الخيل (أر12 : 5) .
إن كنت أميناً في محاربة الخطايا الظاهرة ، يقيمك وينصرك على الخطايا الخفية والشهوات .

إن كنت أميناً لله في فترة الطفولة والفتوة ، يجعلك الله أميناً في محاربات الشباب .

إن كنت أميناً في قبول ليئة ، يقيمك الله على الزواج براحيل (تك29 : 27) وإن كنت أميناً في غربة برية سيناء ، يقيمك الله على أرض الموعد في كنعان .

إن كنت أميناً في هذا العمر القصير المحدود ، يقيمك على الأبدية غير المحدودة .

المهم أن تكون أميناً في كل ما تمتد إليه يدك مهما كان صغيراً وقليلاً . لذلك كن أميناً في الوزنة الواحدة التي معك ، يقيمك على الخمس وزنات . وكن أميناً في الأمور التي تري يقيمك على التي ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان (1كو2 : 9) .

كن أميناً على ثمار الروح ، يقيمك على مواهب الروح .

لا تسرع في طلب المواهب (1كو12) ، دون أن تقتني الثمار أولاً (غل5 : 22 ، 23) فثمار الروح في معالم الطريق الروحي ، لابد أن تسبق المواهب . لو كان أبونا آدم أميناً في القليل (مجرد أنه لا يأكل من إحدى الأشجار) ، ما كان قد حدث له كل ما حدث . ولأمكنه لو نجح في الأختبار ، أن يأكل من شجرة الحياة .

* * *

من قوانين الرهبنة ، أن الذي يكون أميناً في فترة المجمع وفي اقتناء فضائلها ، يمكنه أن يدخل في حياة الوحدة إن أراد .
قال أحد الرهبان للأب الروحي في الدير " اسمح لي أن أسكن في الوحدة ، لأني لا أطيق مضايقات الأخوة " . فأجابة الأب المختبر :

إن كنت لا تحتمل مضايقات الأخوة في المجمع ، فكيف تحتمل حروب الشياطين في الوحدة ؟!

اللص اليمين كان أميناً خلال ساعات خمس قضاها على الصليب ، فأقامه الله على الدخول معه إلى الفردوس

* * *

أحد الآباء طلب من إبنة أن ينظف الحقل من الشوك . فلما ذهب ووجد الحقل مملوءاً شوكاً ، يئس ونام دون أن يفعل شيئاً . فلما علم أبوه بما حدث ، قال له " يا ابني . نظف كل يوم على قدر مفرشك فقط . وسيأتيك الوقت الذي يصبح فيه كل الحقل نظيفا من الشوك .

* * *

القديس الأنبا إبرام أسقف الفيوم كان أميناً في فضيلة الرحمة ، يعطي كل من يسأله ، ولا يستبقى شيئاً من ماله له ، بل الكل للمحتاجين . فلما رآه الله أميناً هكذا ، ائتمنه ، ولا يستبقي على عمل الرحمة أكبر وأعظم ، إذ منحه شفاء المرضى ... وهكذا كان الأنبا إبرام في أميناً في القليل .

الفصل التاسع

الجدية والتدقيق

أهمية الجدية .

صفات الإنسان الجاد .

محاربات الشيطان .

أهمية التدقيق .
التدقيق والوسوسة .
مجالات التدقيق .
محاربات الشيطان .

الجدية

أهمية الجدية

- **الشيطان يحارب الجدية بأسباب كثيرة ...**

الجدية هي من أهم معالم الطريق الروحي .. وبدونها لا يمكن للإنسان أن يصل إلى هدفه . ولو أننا سألنا :

كيف وصل القديسون إلى تلك القامات العالية في حياة الروح ؟

لكانت الإجابة : ذلك لأنهم سلكوا في الطريق الروحي بجدية كاملة .
كان لهم خط واضح رسموه لحياتهم وساروا فيه بلقب ثابت لا يتزعزع . ولم ينحرفوا عنه يمنه ولا يسره . وكانت لهم مبادئ ثابتة لا يحيدون عنها . ولم يسمحوا مطلقاً للظروف أن تعوقهم .

وهكذا وصل القديسون بسرعة . القديس الأنبا ميصائيل السائح : سلك في الرهبنة بجدية من أول يوم . وأمكن أن يصير من السواح وهو في حوالي السابعة عشرة من عمره . وكان أبوه الروحي الأنبا اسحق يلاحظ الصرامة الشديدة التي يعامل بها نفسه . والقديسان مكسيموس ودوماديوس وصلا إلى درجة عالية في الروحانية ، بينما كانت لحية أحدهما لم تنبت بعد . ولكن صلاتهما كانت كشعاع من نور واصل إلى السماء ، ذلك لأنهما سلكا في الطريق الروحي بجدية .
والقديس تادرس تلميذ الأنبا باخوميوس وكذلك القديس يؤانس القصير ، صار كل منهما مرشداً روحياً لجيله في الرهبنة ، وهو بعد شاب صغير .
بل ما الذي تقول " إن أردت أن تكون كاملاً ، اذهب بع كل مالك ، أعطه للفقراء وتعال اتبعني " وسمع هذه الآية معه كل الشعب في الكنيسة ... ولكنه كان الوحيد الذي قام في جدية كاملة ونفذها عملياً .
كذلك سمع عبارة لو كانت راهباً لدخلت إلى الجبل في البرية ، لأن هذا المكان لا يصلح لسكني الرهبان ــ فقال ــ هذا صوت الله إلى ــ وقام في جدية ودخل إلى أعماق الرهبنة . وهكذا أسس حياة الرهبنة بجدية .

من منا له مثل هذه الجدية في تنفيذ الوصية ، بدقة وسرعة ؟

هذه بعض أمثلة في حياة الرهبان . أما في مجال الخدمة ، فيمكن أن نذكر كمثال : القديس يوحنا المعمدان ، الذي كانت كل مدة خدمته حوالي السنة وفي هذه السنة كرز بالتوبة وأعد للرب شعباً مستعداً . وكان جاداً في خدمته حتى قال عنه الرب لم يقم من بين المولودين من النساء من هو أعظم من يوحنا المعمدان " (متى11 : 11) .
كذلك نذكر الجدية التي سلك بها القديس بولس الرسول في خدمته ، حتى أنه تعب أكثر من جميع الرسل الذين كانوا قبله (1كو15 : 10) .

إن الجدية في الحياة دليل على الرجولة وقوة الشخصية .

الإنسان الجاد في روحيا ته ، هو إنسان يحترم نفسه ، ويحترم مبادئه ، ويحترم الكلمة التي تخرج من فمه ، ويحترم الطريق الروحي الذي يسلكه ... لذلك يتميز بالثبات وعدم الزعزعة هو كسفينة ضخمة تشق طريقها في بحر الحياة بقوة متجهة نحو غايتها ، وليس كقارب تعصف به الأمواج في أي اتجاه .

عجيب أن كثيرين يسلكون في أعمالهم المادية والعالمية بجدية ، وأما في روحياتهم فلا جدية على الإطلاق ...

هم جادون في أعمالهم من أجل المكسب أو الترقية ، أو من أجل ثباتهم في عملهم ، أو خوف الجـزاء أو العقوبة أما في رو حياتهم فلا حافز داخلي يدفعهم إلى الجدية ، ربما لأن مخافة الله ليست في قلوبهم ، أو لأن الأبدية ليست أمام أعينهم .. لذلك لا يلتزمون بخط روحي واضح يسيرون فيه .

صفات الأنسان الجاد

الإنسان غير الجاد في روحياته ، يتأرجح بين الصعود والهبوط . ومسيرته غير ثابته : يسقط ويقـوم ... وفي حين يكون حاراً في الروح .. وفي أحيان أخري يكون فاتراً ، أو بعيداً بالكلية عـن الحيـاة الروحية . أحياناً يصلي ، وأحياناً ينسي صلواته ... قد يقرأ الكتاب أولاً يقرأ ... إن وجد وقتاً ، يجلس مع الله ، وإن لم يجد ، فإنه لا يهتم كثيراً ويقابل الأمر بلا مبالاة .
حياته وعبادته تتصف بالتراخي ... بينما يقول الكتاب : " ملعون من يعمل عمل الـرب برخـاوة " (أر48 : 10) . الجدية في الحياة الروحية لا تقبل الإهمال والتراخي والتردد ، والرجوع أحياناً إلـى الوراء . ولا تقبل التأرجح بين الفرقتين : محبة العالم ومحبة الله .
الإنسان الجاد لا يتساهل في حقوق الله مطلقاً .
إنه يأخذ حق الله من نفسه أولاً قبل أن يأخذه من الآخرين ... هو يسلك في وصية الله بكل حزم وبكل دقة وبكل عمق .. وطاعته لله تكون بغير مناقشة وبغير مساومة .

أبونا أبراهيم يسلك في الطاعة بكل جدية ، حينما أخذ أبنه الوحيد لكي يقدمه محرقة حسب أمر الرب .

إنه لم يجادل الله ولم يعترض على أمره ، إنما أطاع دون أن يتغير قلبه من جهة الرب .. هـذه هـي الجدية في الطاعة .
وبالمثل كان يوسف الصديق جاداً في طاعته للوصية وفي حفظه لعفته ، ولو أدي به الأمر إلى السجن.
وكان دانيال جاداً في عبادته للرب ، ولو ألقوه في جب الأسود .

الإنسان الجاد له قلب قوى ، لا يضعف أمام الظروف الخارجية .

يوحنا المعمدان كان جاداً في حفظ وصية الرب .. حينما قال لهيرودس الملك " لا يحل لك أن تكون لك إمرأة أخيك " (مر6 : 18) .. ولقد فعل يوحنا هذا ، ولم يبال أن يلقي في السجن أو تقطع رأسه ...
أين هذا من الذين يضغطون على الكنيسة في أن يتزوجوا خلال الصوم ، دون أن يأخذوا وصـية الله بجدية .

الإنسان الجاد لا يعذر نفسه ، ولا يقدم تبريرات لخطيئته .

الرجل هو رجل ، مهما كانت الظروف الخارجية ، يوسف العفيف كانت تضغط عليه الظروف .. لكنه لم يخضع لها ولم يستأهل مع الخطية بحجة أنه عبد ، وتحت سلطان غيره ، وبإمكان سيدته أن تؤذيه .
ودانيال لم يسمح لنفسه أن يأكل من أطياب الملك مع أنه كان أسير حرب وخاضعاً لنظام ، لقـد كـان جاداً في المبادئ التي يؤمن بها مهما كانت الظروف المحيطة .

الإنسان الروحي يكون جاداً أيضاً في توبته .

فإن ترك الخطية ، يتركها بجدية ولا يعود إليها مرة أخري . يكون جاداً في مقاومـة الخطيـة . ولا يكون كالعبرانيين الذين وبخهم الرسول قائلاً " لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضـد الخطيـة " (عب12 : 4) ما أعمق جدية هذه العبارة ... حتى الدم ..
والجاد في التوبة ، لا يؤجلها مثلما فعل فليكس الوالي (أع24 : 25) واغريباس الملك (أع26 : 28) بل يكون كالابن الضال الذي قام لوقته وذهب إلى أبيه ، وقدم توبة في انسحاق قلب ..
وجدية التوبة تظهر في قول ذلك الأب الروحي : " لا أتذكر أن الشياطين قد اطعنوني مرتين في خطية واحدة .."

لأنه مادام قد عرفها ، فلا يمكن أن يعود إليها مرة أخري .

أما الذي يعترف ويتناول ، ويكرر نفس الخطايا ، ويكرر نفس الاعتراف فلا شك أنه غير جاد في توبته ... في قصص التوبة المشهورة في سير القديسين ، مثل توبة مريم القبطية وبيلاجية واغسطينوس وموسى الأسود نلاحظ ملاحظة هامة . إن التوبة كانت نقطة تحول في الحياة بلا عودة إلى الخطية . كانت توبة جادة ، انتقلت من الخطية إلى النقاوة ، وارتقت منها إلى القداسة ثم سمت إلى الكمال ... وتحول . أولئك الخطاة إلى قديسين . وصاروا أمثلة في حياة البر ، وبركة لغيرهم ، وصاروا أيضاً مرشدين روحيين .

كانوا جادين في جحد الشيطان .. وكل أعماله الرديئة .. وكانوا جادين في علاقة الصلح مع الله ، وفي شهوتهم للحياة الفاضلة .

أما الذين يخطئون كل يوم ، ويعتمدون على قول المزمور " لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا بحسب آثامنا " (مز103 : 10) فهؤلاء ليسوا تائبين بالحقيقة ... ورحمة الله إنما تكون للجادين في توبتهم .

الإنسان الجاد في طريقه الروحي ، من صفاته أنه ينمو باستمرار . الجدية تمنحه حرارة روحية .

والحرارة تدفعه كل حين إلى قدام .

إنه يجاهد من أجل النقاوة والكمال إلى أبعد الحدود .. بكل مثابرة واجتهاد يعطي الله كل قوته وكل إمكانياته ... وكل أرادته وكل قلبه .. ويعمل بكل النعمة المعطاة له . ولا يقصر في شئ إنما يبذل كل طاقاته . وفي كل يوم إلتصاقاً بالله وقرباً منه . ويزداد عمقاً في المحبة الإلهية ، ويزداد فهماً للفضيلة ... وممارسة لها .

إنه لا يدلل نفسه ولا يحابيها ، ولا يعذرها في أي تقصير . وإن توانت يغصبها على عمل الله .. حتى تتعوده وتؤديه في حب .

والجاد لا يهتم بهواه الخاص ، بل يضحي بأية متعه من أجل الرب .

وهكذا الذين تدربوا على الجدية ، كانوا يتعبون باستمرار لأجل الرب .

يضحون دائماً براحتهم من أجل روحياتهم مثل القديس بولا الطموهى الذي كان يجاهد بتعب شديد في نسكياته ، وفي اخضاع جسده لروحه ، حتى قال له الرب " كفاك تعباً يا حبيبي بولا " ... ومثل داود النبى الذي قال " لا أدخل إلى مسكن بيتي ، ولا أصعد على سرير فراشي ، ولا أعطي نوماً ، ولا لأجفاني نعاساً ... إلى أن أجد موضعاً للرب ومسكناً لإله يعقوب " (مز131) .. هذه هي الجدية في الحياة الروحية .

والإنسان الجاد ، إذا وجد صعاباً لا يعتذر بها ، بل ينتصر عليها .

إنه لا يستسلم لعقبة ، بل يكافح ويصلي ، ساعياً إلى المثاليات واضعاً أمامه قول الرسول " اركضوا لكي تنالوا " (1كو9 : 24) . " وبهذا يكون باستمرار حاراً في الروح " (رو12 : 11) ...

ومادامت المثاليات أمامه ، لا يرضى بأنصاف الحلول ولا باجتياز مرحلة من الطريق ، بل يكمل بكل نشاط ، متجهاً نحو الكمال . لذلك فهو في صعود مستمر نحو الله . وطبيعة أن الذي يتقدم باستمرار ، فهذا لا خوف عليه من النكسات والرجوع إلى الوراء .

إنه يأخذ كل شئ بجدية . إنه جاد في حياة التوبة وعدم التساهل مع الأفكار وهو جاد في خط سيره الروحي وفي كل ممارسات الفضيلة . وهو جاد في تداريبه الروحية ، لا يكسرها مهما كانت الأسباب ، وهو جاد في كل كلمة تخرج من فمه . وهو جاد أيضاً في كل نذوره وتعهداته أمام الله .

لا ينذر نذراً ثم يعاود التفكير فيه . أو المساومة . ولا يؤجل الوفاء بنذره ولا يحاول استبداله بغيره ، ولا يماطل ولا يرجع في كلمته . إنما بكل جدية وبكل سرعة ودقة ينفذ . جاعلاً أمامه قول الكتاب " خير لك أن لا تنذر ، من أن تنذر ولا تفي " (جا5 : 5) ومثال يفتاح الجلعادي واضح في جدية النذر (قض11 : 30 ــ 25) .

والجاد جاد أيضاً في عبادته . لا يكتفي فيها بالشكليات .

إنما هو يهتم بجوهر الروحيات وعمقها لذلك فهو عميق في عبادته ، بكل إيمان ، وكل تواضع وخشوع قلب ، يصلي بفهم وحرارة وتركيز ، بمحبة قلبية لله ، لا يسمح لفكره أن يسرح هنا أو هناك ، ولا يسمح لحواسه بالتجول ، إنما يسكب نفسه سكيباً في صلواته وتأملاته ومطانياته وصومه . ولا يكون جسده داخل الكنيسة وعقله خارجها وكل ما يرشده الرب إليه ، يسعى جاهداً لتنفيذه ... ويكون جاداً أيضاً في خدمته .

والجدية تقود دائماً إلى النجاح وإلى الإتقان .

كل مسئولية تعهد إليه يؤديها بنجاح وعلى أكمل صورة ، سواء في حياته الكنيسة ، أو في وظيفة العلمانية أو أي مشروع يقوم به .

محاربات الشيطان

ولكن الشيطان يحارب الجدية بكل وسيلة ، وربما باقناعات كتابية .

قد يسميها أحياناً حرفية ، أو خضوعاً للناموس بدلاً من النعمة . ولكننا نقول إن النعمة لا تشجع على الكسل أو التراخي أو التسيب . أو قد يقول الشيطان إن الجدية ضد المرونة . فنقول : إن المرونة ليست مجالاً للتراخي أو للتحلل من الدقة ، والالتزام . أو قد يقول الشيطان إن هذه ضد حرية مجد أولاد الله " رو8 : 21) فنقول إنه لا توجد حرية تتعارض مع الوصية . والحرية الحقيقية هي التحرر من الخطية .

أخيراً نقول : إن الجدية ترتبط أيضاً بالأمانة والدقة والالتزام . وهذا ما أود أن أحدثكم عنه إن شاء الله .

حياة التدقيق

لكي نفهم التدقيق في عمقة ، نفترض الآتي :

تصور أن ملاكاً أعلن لإنسان أن حياته على الأرض ستنتهي بعد أسبوع ، فلا شك إن هذا الإنسان سيسلك في خلال هذا الأسبوع بكل تدقيق ممكن استعداداً لأبديته .. وعلى هذا المقياس نود أن نحكم على حياة التدقيق .

أهمية التدقيق

إن التدقيق هو من أهم معالم الطريق الروحي . والإنسان الروحاني يدقق في كل شئ . يدقق في كل علاقاته مع الله ومع الناس ، ومع نفسه . يكون مدققاً في كل تصرف ، وفي كل كلمة وكل فكر . ويكون مدققاً من جهة حواسه ومشاعره واتجاهاته . ومن جهة مواعيده ووقته والنظام الذي يسير عليه

والإنسان المدقق ، لا يكون مدققاً فقط وهو مع الناس . وإنما حتى حينما يكون وحده في حجرته الخاصة .

إن التدقيق في التصرف قد يكون سهلاً نوعاً في حضرة الناس . لأننا بطبيعتنا لا نحب أن ينتقدنا الناس ، أو نخشى أن نكتشف أمام الناس ، وتظهر أمامهم عيوبنا وأخطاؤنا . ولذلك فإن المقياس الحقيقي لتدقيقنا ، يظهر حينما نكون وحدنا لا يبصرنا أحد . فإن كنا مدققين فيما بينا وبين أنفسنا ، يكون هذا تدقيقاً حقيقياً وليس ريائياً .

الإنسان الروحي يصبح التدقيق جزءاً تلقائياً من طبعه وليس مجرد محاولة أو تدريب .

إنه إنسان تعود أن يكون مدققاً في كل شئ بدوافع داخلية فيه تمثل بعضاً من مبادئه وقيمه ...

وحتى إن كان الناس لا يرونه ، فإنه يحب أن يكون بلا لوم أمام الله الذي يراه ، وأمام الملائكة الذين يرونه ، وكذلك من أرواح القديسين ...

فهل أنت في داخلك نفسك تكون مدققاً بغض النظر عن أحكام الناس ؟

هنا ونسأل ، ما هو التدقيق ؟

التدقيق هو حرص من أقل خطأ هو تصرف سليم متزن في احتراس ، وفي سعي نحو أكمل وضع ممكن ، بغير تسيب ولا تراخ ولا إهمال ، وفي بعد عن الضمير الواسع الذي يبرر كثيراً من الأخطاء والتدقيق خطوة نحو الكمال فالذي يدقق محترساً من الوقوع في الصغائر من الصعب أن يقع في الكبائر . الذي يحترس بكل قوته لكي لا يقع في الخطية بالفكر ، ليس من السهل أن يقع في الخطية بالعمل .

التدقيق والوسوسة

ولكن فليحرص كل إنسان أن يفرق بين التدقيق والوسوسة الوسوسة هي الضمير الذي يظن الخطأ حيث لا يوجد خطأ ، أو الذي يكبر من قمة الأخطاء فوق حقيقتها ، أو الذي تحاربه عقدة الإثم بدون سبب معقول أو الذي يخرجه حب التدقيق إلى التطرف البعيد عن الحق ، فيؤثم تصرفات سليمة ...
والوسوسة لون من الحرفية والفريسة وهي سطحية بلا فهم . ومثالها ما كان يراه الكتبة والفريسيون دقة في تقديس يوم السبت وهي لم تكن دقة ، وإنما حرفية بلا روح، وبلا عمق ، وبلا فهم سليم للوصية .
ونحن نرفض أن نسمي هذا الوضع تدقيقاً . إنما التدقيق هو التصرف الروحي السليم ، الذي هو في وضع وسط بين التسيب والوسوسة . إنه يذكرنا بميزان الصيدلي كل مادة في تركيب الدواء ، يكون وزنها دقيقاً جداً . إن زاد قد يضر ، وإن نقص قد يضر . وهكذا تكون حياة التدقيق روحياً .. الإنسان المدقق يراقب نفسه ويحاسبها ، ولا يتساهل معها في شئ . له مبادئ وقيم يدقق في حفظها ولا يسمح لنفسه أن يهبط مطلقاً عن مستوي هذه القيم والمبادئ التي تمثل علامات واضحة في طريقة الروحي .

مجالات للتدقيق

الإنسان المدقق حريص على وقته يري أن الوقت هو جزء من حياته فهو يحرص على هذا الوقت واستخدامه له . ولا يضيع دقيقة واحدة منه فيما يندم عليه ، أو فيما لا يستفيد منه . وهو يوزع هذا الوقت توزيعاً عادلاً على كافة مسئولياته .
وفيما هو يحرص على وقته ، يحرص بالتالي على دقة مواعيده ، وعلى نظام حياته فلا تضيع أوقاته عبثاً .

وكما يكون مدققاً من جهة وقته ، يكون أيضاً مدققاً من جهة وقت غيره .

نقول هذا لأنه قد يوجد إنسان وقته رخيص عنده ، فيظن أن وقت الآخرين رخيص أيضاً عندهم . فيزور غيره أو يكلمه أو يشغله مضيعاً وقته ، بينما هذا الغير لا يعرف في خجل كيف يهرب منه ؟!
أما الإنسان المدقق فهو يحترم حياته ووقته ، ويحترم حياة الآخرين ووقتهم . ولا يسمح أن يضيع وقته في التوافه أو أن يعطى حديثاً أو مشغولية أو زيارة فوق ما تستحق من وقت .
ويحرص أن يعطي روحياته وقتها يكون دقيقاً في الوقت الذي تسمح به حياته للصلاة والتأمل والقراءات الروحية ، والوقت الخاص بالكنيسة والخدمة والاجتماعات . ويكون دقيقاً أيضاً في حفظ يوم الرب ، وكل ما يتعلق بحياته الروحية ، فلا تضيع في زحمة المشغوليات .
وهو دقيق من جهة صلواته يحرص أن تكون صلاة بكل ما تحمل كلمة صلاة من معني ، بكل ما يجب لها من فهم ، ومن حرارة وخشوع ، ومن عمق وإيمان وحب واتضاع ... لا يسرع فيها السرعة التي تفقدها عمقها ، ولا يترك عقله في طياشة وعدم تركيز .
ولا يهمل قانونه ومزاميره وساعاته إنه إنسان يعبد الله في تدقيق كذلك إذا رشم علامة الصليب إنما يفعل ذلك بكل دقة ، بكل ما تحمل علامة الصليب . من معان عقائدية وروحية ، وبكل ما فيها من احترام ومن تأثر روحي ، ومن ثقة في فاعليتها .
ولا تكون عنده علامة الصليب مجرد حركة سريعة بلا خشوع ولا فهم كما يفعل البعض ...

وفي دخوله إلى الكنيسة دقيقاً وفي حركاته فلا يتلفت هنا وهناك ، ولا يتحدث داخل الكنيسة مع هذا أو ذاك ، ولا ينشغل بغير العبادة ، ولا يسرع في مشيته اسراعاً يتنافي مع الخشوع وهيبة المكان . إنما يدخل إلى الكنيسة في هدوء وهو يرتل يتنافي مع الخشوع وهيبة المكان . إنما يدخل إلى الكنيسة في هدوء وهو يرتل قول المزمور " أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل إلى بيتك ، واسجد قدام هيكل قدسك بمخافتك " .

ويسجد ، ويقف في مكانه بكل مهابة ، مدققاً في كل ما يفعله بسلوك روحي ، وبحفظ دقيق لعقله وحواسه وقلبه ، بحيث حينما يقول الكاهن " أين هي عقولكم ؟ " فيجيب (هي عند الرب) فيكون صادقاً تماماً ... والإنسان الروحي يكون مدققاً أيضاً في أفكاره لا يتباطأ مطلقاً في طرد أي فكر خاطئ بل يحرص أيضاً أن يبعد عن الأفكار الزائلة الباطلة التي لا منفعة فيها ، ويحاول بقدر إمكانه أن يجعل فكره نقياً بالله ، بعيداً عن الطياشة .

ويجعل أمامه قول الرسول " مستأسرين كل فكر لطاعة المسيح " (2كو10 : 5) . أما الذي يتساهل مع الأفكار ، فهو ليس دقيقاً في ضبطه لفكره .

الإنسان الروحي ينبغي أن يكون أيضاً في كلامه إنه يزن كل كلمة قبل أن يقولها ، سواء من جهة معنى الكلمة أو قصدها ، أو مناسبتها للمجال أو للسامعين .

إن الذي يتكلم ثم يندم على ما يقول ، هو غير مدقق في كلامه . والذي يتكلم ثم يعاتبونه على معنى كلامه ، فيقول : ما كنت أقصد .. ، هو أيضاً غير مدقق في كلامه . كذلك الذي يتكلم فيجرح شعور غيره بغير حكمة ..

إن السرعة في الكلام من الأسباب التي تؤدي إلى عدم التدقيق فيه . إن السرعة في ابدأ الرأي ... والسرعة في الحكم على الآخرين ... والسرعة في الاستسلام للغضب ... كل ذلك يعرض الإنسان للخطأ ، فلا يكون مدققاً في كلامه ، ولا يكون موفقاً في كلامه ..

أما الذي يتباطأ ، ويزن الكلمة قبل أن يقولها ، فهذا يكون أكثر تدقيقاً . لذلك يقول الرسول " ليكن كل إنسان مسرعاً إلى الإستماع ، مبطئاً في التكلم ، مبطئاً في الغضب " (يع1 : 19) .

وفي الإبطاء ، أو التفكير المتزن ، يقدر الإنسان أن يتحكم في ما يريد أن يقوله ويتخير الألفاظ المناسبة ، ويكون مدققاً أكثر في كلامه . لأن الكلمة بعد أن يلفظها لا يستطيع أن يغيرها أو يسحبها لقد حسبت عليه ..!

وكما يدقق الإنسان في كلامه ، ينبغي أن يدقق في مزاحه وضحكه . فلا يتحول ضحكه إلى نوع من التهكم على غيره والاستهزاء به ، وجعله مادة لفكاهاته ولسخريته وتسلية الناس !!

وبهذا يكون الضحك وسلية لجرح شعور غيره . من حق الإنسان أن يضحك مع الناس . ولكن ليس من حقة أن يضحك على الناس !

لهذا فإن الإنسان الروحي ينبغي أن يكون مدققاً في ضحكة ومرحه ، حتى لا يجرح أحداً أو يهين أحداً ، ولو في مجال مزاح ، ولو عن غير قصد ...

ولا يجوز أن يقول أية فكاهة تعجبه ، غير مبال بتأثيرها على السامع ، إن كان فيها ما يسمه ...

والإنسان الروحي يكون مدققاً أيضاً في نقده ، وفي عتابه ، وفي توبيخه ولا يجرح فيما يحاول أن ينصح . ولا يوبخ فيحطم .

ولقد حذرنا سيدنا يسوع المسيح قائلاً " من قال لأخيه رقاً يكون مستوجب المجمع ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم " (متى5 : 22) . وكلمة رقاً هي أقل كلمة تخلو من الاحترام ...

كم مرة يستخدم المتكلمون كلمة حق " أحمق " ومترادفاتها العديدة ، في شتى الألفاظ التي يعبرون بها ــ في غير تدقيق ، عن استصغارهم لعقول غيرهم ومستوي تفكيرهم . أما المدقق فلا يفعل هكذا .

لاحظوا كيف تخير السيد المسيح أرق الألفاظ في الحديث مع السامرية بحيث قادها إلى التوبة ، دون أن يجرح شعورها على الإطلاق . ولو أراد أن يستخدم ما يسميه الناس بالصراحة ، أو بمواجهة المخطئين ، لنفرت منه هذه المرأة وما كسب روحها ...

الإنسان المدقق تظهر دقته في أداء أية مسولئة تعهد إليه أياً كانت هذه المسئولية روحية أو مادية أو اجتماعية . ودقته هذه تقوده إلى النجاح وإلى الإتقان ، وإلى احترام الناس له وثقتهم به . وهو لا يحاول أن يتعذر بأية أعذار لتبرير موقفه إن لم يكن مدققاً . لأن المدقق لا يبرر تصرفاته مهما حدث ويرى أن محاولة التبرير ضد التدقيق للأسف . هناك كثيرون يدققون في محاسبة غيرهم . ولا يدققون في محاسبة أنفسهم بنفس القياس .

هم مع غيرهم في منتهى الشدة أما مع أنفسهم فما أكثر الأعذار بينما العكس هو ما ينبغي أن يكون . حاسب نفسك بتدقيق شديد ، ولا تعذر ذاتك . أما بالنسبة إلى الآخرين فحاول أن تلتمس لهم عذراً .

نلاحظ أن السيد المسيح أعطانا مثالاً لهذا في قوله عن خطيئتك " الخشبة التي في عينك " وقوله عن خطيئة الآخرين " القذى الذي في عين أخيك " (متى7 : 3) . هكذا ينبغي أن تحكم على أخطائك بالخشبة ، وعلى أخطاء غيرك بالقذى .

مشكلة الإنسان في حياة التدقيق ، أنه يقسم الخطايا إلى صغيرة وكبيرة ، ويستأهل في الأمور الصغيرة !

ومن الجائز أن هذه الأمور الصغيرة في نظره ، ليست هي صغيرة في الحقيقة . وحتى إن بدت صغيرة ستتحول إلى كبائر فيما بعد . والإنسان الروحي لا يستهين بأي خطأ ولا يحسبه صغيراً . لأن الخطية خاطئة جداً . وكل خطية تؤدي إلى الهلاك ، لأن " أجرة الخطية موت " (رو6 : 23) . وهي تفصله عن الله ، لأنه " لا شركة بين النور والظلمة " (2كو6 : 14) .

إن أي عيب في شئ ، ينقصه كماله . وأية بقعة في ثوب تشوه نظافته مهما كانت صغيرة .

الإنسان الروحي يدقق في مقاومة الخطية ، ويحترس لئلا يقع فيها .

حتى تأتيه الخطية فيقاومها ، بل يكون حريصاً في البعد عن الخطية ، وفي سد جميع مسالكها بحيث لا تجد منفذاً إليه . وإن حاربته خطية يكون دقيقاً جداً في طردها عنه . إنه دقيق في كل تصرفاته .

يستمع دائماً إلى قول الرسول " انظروا كيف تسلكون بالتدقيق ، لا كجهلاء بل كحكماء " (أف 5 : 15) . لذا فهو يدقق في كل ما يعمله ، في العمل ذاته ، وفي وسيلته وفي نتائجه سواء بالنسبة إليه أو إلى غيره . حتى الأشياء التي هي سليمة في ذاتها ، ولكن قد تكون غير مناسبة حسب قول الرسول " كل الأشياء تحل لي ولكن ليس كل الأشياء تبني " (1كو10 : 23) .

أنه يدقق في كل حركاته . في دخوله وفي خروجه . في صورته وفي مشيته ...

لا ينسي نفسه ، فيعلو صوته على من هو أكبر منه ، أو يقاطعه ليتكلم هو ! وفي انتقاله ، كما قال الشيخ الروحاني " بالرفق يفتح بابه ويغلقه " وفي كلامه يحترس من أن يتطور مزاحه إلى العبث أو التهكم . ويحترس أن يتطور من سرد قصة إلى الإدانة . ويحترس أن ينتقل من الأمور إلى التسلط ، أو ينتقل من القدوة إلى محبة المديح وأعلان الذات . كذلك يكون مدققاً في عدم التحول من الموضوعية إلى النواحي الشخصية .

إن كل خطوة عنده لها حسابها لا تجرفه التيارات السائدة ، ولا يجاري الأخطاء الشائعة . ولا ينحدر من وضع إلى آخر بدون تفكير .

إنه مدقق في علاقته في الله مدقق في حفظ الوصية ، ومدقق في عودة لله ، وفي كل نذوره ، وفي عشوره وبكوره ، لا يساوم الله ، ولا يرجع في عهد قطعه أمامه .

محاربات الشيطان

لذلك فالشيطان يحارب التدقيق ويسميه تزمتاً أو عدم مرونة ...

ويريد بهذا أن الإنسان الروحي كلمة " تزمت " فيتحلل من تدقيقه ! كلا . فما ينتقده الشيطان هو الحرفية والفريسية وليس التدقيق ، كما أن المرونة ليس معناها التحلل من القيم . إنما هي مرونة داخل تنفيذ الوصية ، وليست مرونة في كسرها فلا تستقر كم هذه الألفاظ لتغيروا مبادئكم ...

الفصل العاشر

حياة الانتصار

أهمية الانتصار وبركاته .
لست وحدك في الحروب .
لا تخف مهما سقطت .
مقومات الانتصار .

فصل النور عن الظلمة .

أوامر إلهية وكنسية .
فصل أخطر في الأبدية .
ماذا تفعل إذن .

الانتصار في الحياة الروحية

إجابة سؤال كيف اصلي ؟ وماذا أقول ؟
الإنسان الروحي هو إنسان منتصر في كل حروبه الروحية : منتصر على نفسه ، ومنتصر على المادة ، ومنتصر على الشياطين . ونتيجة لهذا الانتصار ينال الأكاليل في السماء في ذلك اليوم .
ولذلك فإن البعض يسقم الكنيسة إلى مجموعتين : أحدهما على الأرض وتسمي الكنيسة المجاهدة في السماء ، بعد فترة الجهاد على الأرض وتسمي الكنيسة المنتصرة هذه التي جاهدت وغلبت .

أهمية الأنتصار وبركاته

وسفر الرؤيا ، يشرح لنا الرب فيه البركات التي يحصل عليها الغالبون ...
ففي الرسائل التي أرسلها إلى الكنائس السبع ، يكرر في كل رسالة عبارة " من يغلب " فأعطية ، أو سيكون " من يغلب أن يأكل من شجرة الحياة ... " (رؤ2 : 7) .
" من يغلب فلا يؤذيه الموت الثاني " " من يغلب فسأعطية أن يأكل من المن المخفي " ... " من يغلب فذلك سيلبس ثياباً بيضاء ، ولن امحو أسمه من سفر الحياة " " من يغلب فسأجعله عموداً في هيكل إلهي " .

" من يغلب فسأعطية أن يجلس معي في عرشي ، كما غلبت أنا وجلست مع أبي في عرشه " (رؤ3: 21) .

كل هذه النعم أعدها الرب للذين يجاهدون ويغلبون ، ويحيون حياة الانتصار . ولم يستثن أحداً من هذه القاعدة . فالكل أعطى لهم أن يجاهدوا ويغلبوا لكي يكللوا .
ولهذا فإن القديس بولس الرسول عندما كان يسكب سكيباً ، ووقت انحلاله قد حضر ، قال " جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعي ، حفظت الإيمان . وأخيراً قد وضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم ، الديان العادل ... " (2تى4 : 6 ــ 8) .

لذلك كله سمح الله بوجود الحروب الروحية ، والاغراءات ، والشياطين إنه يختبر أرادتنا ، ومدي استحقاقاتنا لأكاليله ...

ولهذا قال أحد الآباء : لا يكلل إلا الذي انتصر . ولا ينتصر إلا الذي حارب . ولا يحارب إلا الذي له عدو ... وقال القديس بولس الرسول " البسوا سلاح الله الكامل ، لكي تقدروا أن تثبتوا ضد كل مكايد إبليس ، فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم ، بل مع الرؤساء مع السلاطين ... مع أجناد الشر الروحية في السماويات ... " (اف6 : 11 ، 12) .

لست وحدك في الحروب

والله يرقب حربنا وانتصارنا ، وترقبه أيضاً الملائكة وكل أرواح القديسين .

كلهم يتطلعون إلى جهادنا ، ويفرحون بنا إذا انتصرنا . وكما قال الكتاب إنه يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب ... " (لو15 : 10) .

والله وملائكته يرقبون حروبنا الروحية ليسوا وهم صامتون ، وإنما وهم يقدمون لنا المعونة في حربنا .

حقاً إن الله قد سمح بوجود العدو ولكنه لم يعطه سلطاناً علينا .. وسمح بالحروب الروحية ، ولكن منح القوة للانتصار فيها : قوة من الروح القدس وقوة من عمل النعمة ، وقوة في الطبيعة البشرية التي تجددت وعادت على صورة الله كما كانت ...

كل هذه القوي منحها لنا أيضاً أعطانا سلطاناً على جميع الشياطين نستطيع به أن ندوس كل قوة العدو .

ونحن نذكر هذه النعمة في آخر صلاة الشكر التي نصليها كل يوم ونذكر مهما القوة التي منحها الرب لتلاميذه القديسين ، حسبما يروي الإنجيل المقدس ، أن الرب قال لهم : " ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو " (لو10 : 19) .

عبارة " وكل قوة العدو " هي عبارة معزية بلا شك ، إذا وضعت إلى جوارها عبارة " تدوسوا " ... إذن فالشيطان ليس مخيفاً كما يتصور البعض ، مهما كان يبدو مثل أسد زأر ويبحث عن فريسة ويبتلعها ... لقد أعطانا الرب سلطاناً عليه .

لقد غلب الرب الشيطان في طبيعتنا هذه التي سبق أن غلبها الشيطان وهكذا أعطي طبيعتنا روح الغلبة والانتصار ...

أعطانا نحن أيضاً أن نغلب . وأرانا صورة الشيطان مهزوماً ومغلوباً حتى لا نخافه في المستقبل . بل أعطي طبيعتنا القوة على إخراج الشياطين . ورأى آباؤنا الرسل كيف أن الشياطين تخضع لهم باسم الرب " لو10 : 17) . وما أجمل قول الرب عن ضياع قوة الشيطان :

" رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء " (لو10 : 18) . إذن فلا تخافوا الشياطين .

إنها لسيت أقوى منكم مادمتم تحاربوها بقدرتكم الإنسانية المجردة . أما إن حاربتموها فبسلاح الله الكامل " (أف6 : 11) وبقوة الله العالم فيكم وبكم ، فحينئذ ستخضع لكم ، وستغلبونها في حروبكم ... الله الذي يعمل فيكم سوف يغلبها لقد قال الرب لنا " في العالم سيكون لكم ضيق . ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم " (يو16 : 33) .

ولم يقصد بهذا مجرد غلبته الشخصية للعالم ، وإنما أيضاً غلبته للعالم فينا ولهذا حسناً قال الرسول عن الرب إنه " يقودنا في موكب نصرته " (2كو2 : 14) .

نعم هذا هو المسيح المنتصر دوماً ، الذي انتصر على العالم وعلى الشيطان وعلى الموت ، والذي يقودنا معه دوماً في موكب نصرته . كما قال موسى النبي " الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون " (خر14 : 14) . إنه يحبنا ، ويحب لنا حياة النصرة ، وهو الذي يقاتل عنا أما نحن فنقول مع الرسول:

ولكننا في هذه جميعنا ، يعظم انتصارنا بالذي أحبنا " (رو8 : 37) .

حقاً لقد غلب الأسد الذي من سبط يهوذا (رؤ5 : 5) . وسنغلب نحن أيضاً طالما كنا ثابتين فيه ، آخذين لنا قوة منه . لأنه لم يعطنا مطلقاً روح الفشل ، بل أعطانا أن نغني قائلين :

" استطيع كل شئ في المسيح الذي يقويني " (في4 : 13) .

حروبنا الروحية هذه ، ليست مجرد حروب بيننا وبين الشيطان . إنما هي في أصلها حروب من الشيطان ضد الله وملكوته . وهو يحاربنا كجزء من محاربته لملكوت الله لذلك فغن الرب لا يتركه لينتصر علينا ، إنها حربه كما قال داود النبي : " الحرب للرب " (صم17 : 47) .

وشعر موسى بهذا أثناء حبه مع عماليق فقال " للرب حرب مع عماليق .. "

لا تخف مهما سقطت

إن الشيطان باستمرار يريد أن يشيع فيك روح الهزيمة وروح الضعف ، لكي تيأس وتستسلم له ! فلا تصدقه كلما قال إن التوبة صعبة وإن حياة البر غير ممكنة في عالم شرير مثل عالمنا .. ولا تصدقة إن قال لك لا فائدة ، فأرادتك ضعيفة لابد ستسقط !! قل له : ليس المهم إرادتي ، إنما في عمل الله من أجلي وحتى إن سقطت فلا بد سأقوم بعدها كما قال الكتاب :

" الصديق يسقط سبع مرات ويقوم " (أم24 : 16) . كما قال النبي أيضاً " لا تشمتي بي يا عدوتي . فإني إن سقطت أقوم " (مى7 : 8) .

لا تزعجك إذن السقطة بعد كل قيام ... إنما افرح بالقيام بعد كل سقطة وتأكد أن الله أعطاك القوة التي بها يمكنك أن تقوم ، مهما سقطت " سبع مرات " أي عدداً كاملاً من السقطات .

إن السقوط غير الهزيمة . إنه مجرد مرحلة ، تقوم منها لتنتصر أخيراً .

والله يعرف قوة عدونا ، وضعف طبيعتنا . لذلك هو يشفق علينا في حروبنا ، ويرسل إلينا قوة من عنده تسند ضعفاتنا . وهو الذي يقيمنا . وكما نقول له في القداس الإلهي " عرفتني القيام من سقطتي... حولت لي العقوبة خلاصاً . كأب حقيقي تعبت أنا الذي سقطت . ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة .. " .

وما اجمل قول أحد الآباء : **إن الجندي الذي جرحه العدو ، يكافأ أيضاً بالنياشين ، وليس فقط الجندي الذي انتصر وقتل أعداءه .**

طالما لم يهرب من الميدان ، وإنما حارب وقاتل ، فله مكافأته مهما جرحه العدو . ليست هذه هزيمة . إنما هو جهاد .

ضع أمامك قول الكتاب " الله يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون (1تي2 : 4) .

فلتكن من هؤلاء واطمئن من جهة إرادة الله الصالحة .

وإن تأخرت معونة الله في الوصول إليك فلا تيأس .

إن الله قد يأتي في الهزيع الرابع ولكنه لابد سيأتي ...

كان خلاص أوغسطينوس بعد سنوات طويلة جداً في الخطية . ولكنه نال الخلاص أخيراً مهما بدأ أن معونة الله قد وصلته متأخرة ! وبنفس الوضع نتكلم عن مريم القبطية ، وعن موسى الأسود ، وعن شاول الطرسوسى ، وعن أريانوس والى أنصنا .

إن الله قد ذهب ليعد لنا مكاناً ، وسيأتي ليأخذنا إليه (يو14 : 3) .

فليكن لنا الرجاء إذن في حياة الغلبة " لا تخش من خوف الليل ، وملا من سهم يطير بالنهار ، ولا من أمر يسلك في الظلمة " (مز91) وإنما قل مع داود النبي : " وإن قام على جيش ، ففي ذلك أنا مطمئن " " إن سرت في وادي ظل الموت ، لا أخاف شراً لأنك معي " (مز23) . املأ قلبك بمواعيد الله المشجعة . وثق أنك لابد ستنتصر .

مقومات الانتصار

قلنا أن أهم شئ هو أن يحارب الرب فيك ، ويحارب عنك . لذلك اسكب نفسك أمامه ليعطيك القوة والنصرة . على أنه مع معونة الله ، ينبغي لك الحرص الكامل الذي من وسائله ...

1 . البعد عن أسباب الخطية ... والهروب منها على قدر استطاعتك .

قال الملاك للوط " أهرب لحياتك ، ولا تقف في كل الدائرة " (تك19 : 17) . وبولس الرسول يقول لتلميذه تيموثاوس " أما الشهوات الشبابية ، فاهرب منها " (2تى2 : 22) . وقد رأينا مثالاً عملياً في يوسف الصديق الذي هرب لحياته لكيلا يسقط . وقد قال أحد الآباء :

الذي يكون قريباً من مادة الخطية ، تكون له حربان : إحداهما من الخارج والأخرى من الداخل . أما البعيد فإن حصلت له حرب تكون داخلية فقط .

فابحث من أين يأتيك السقوط ، وابعد عن الأسباب . وتذكر قول الكتاب " فصل الله بين النور والظلمة " (تك1 : 4) . وقوله " إن كانت يدك اليمني تعثرك ، فاقطعها والقها عنك " (متى5 : 30) .

2. كن مدققاً في حياتك، واحترس حتى من الأشياء إلى تبدو صغيرة .

وذلك كما يقول الوحي الإلهي " خذوا لنا الثعالب الصغار المفسدة للكروم " (نش2 : 15) " ولا تأخذ وتعطي مع إنسان يقاتلك به العدو " كما قال أحد الآباء :

3. كذلك لكي تنتصر ، جاهد بكل قوتك ولا تستسلم في الحروب .

قاوم الأفكار ، ولا تعطها مجالاً ، ولا تتركها تنمو في داخلك . وقاوم الشهوات والرغبات الخاطئة ، ولا تدخل في مجال تنفيذها مهما ألحت عليك . هوذا بولس الرسول يوبخ العبرانيين قائلاً : " لمتقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية (عب12 : 4) .

إن هروبك من الخطية ، وجهادك ضدها ، وتدقيقك ... كل ذلك دليل على أنك تعلن أنك متمسك بالله ، وأن إرادتك صالحة . وهذا يشجع النعمة أن تعمل فيك .

4. ولكي تنتصر عليك بتقوية محبة الله في قلبك بالمواظبة على وسائط النعمة .

فالغالبية الذين يسقطون ، يكونون بعيدين عن وسائط النعمة من صلاة وتأمل وقراءة وصوم واجتماعات روحية واعتراف وتناول . فتمسك بكل هذه الوسائط الروحية ، بأن تجعل فكرك مع الله باستمرار ، وتدخل في قلبك المشاعر الروحية التي تبعدك عن الخطية .

5. لتكن مبادؤك الروحية سليمة : وليكن هدفك هو الله وملكوته .

واعلم أنه كلما كانت لك أهداف أخري ، فإنها تسيطر على عواطفك وتبعدها عن الله . وحينئذ لا تستطيع أن تعبد ربين : الله ، وأهدافك العالمية ...

حاول باستمرار أن تجعل العمق لله وحده . وكلما تزحف إلى أعماقك أهداف غريبة ، كن متيقظاً لها ، ولا تعطها مجالاً ...

6. وإذا أرادت أن تنتصر ، احتفظ بتواضع قلبك باستمرار .

فالتواضع يجعلك تستشير ، ولا تعتمد على فهمك الخاص ، والتواضع يجعلك تعترف بخطاياك ، ويهبك انسحاق القلب ، فيقترب الله منك بنعمه ومعوناته . والتواضع يجعلك تصلى طالباً تدخل الله في حياتك ، بدلاً من الالتجاء إلى ذكائك ومقدوتك .

7. واشعر باستمرار أنك مبتدئ فإن ذلك يدفعك إلى قدام لكي تنمو فإن الذين وقف نموهم ، وقفت حرارتهم ، وفتروا وضعفوا ، وتعرضوا للسقوط...

فصل النور عن الظلمة

الفصل بين النور والظلمة

الإنسان الذي يبدأ طريقة الروحي مع الله ، لابد أن يقطع كل وصله له بالخطية واسبابها . ويحترس من كل خلطة خاطئة . ويستمع في ذلك إلى قول الكتاب :

" لأنه أية خلطة للبر والإثم ؟ وأية شركة للنور مع الظلمة ؟؟ وأي اتفاق للمسيح مع بليعال ؟ " (2كو6 : 14، 15) .

إذن لابد أن يفصل نفسه تماماً عن كل المجالات الخاطئة ، ويبعد عن مادة الحرب الروحية . لأن لا يستطيع أن يجمع بين محبة العالميات في وقت واحد . وهذا الأمر واضح منذ بادية قصة الخليقة ، إذ يقول الوحي الإلهي :

وقال الله ليكن نور ، فكان نور . ورأي الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة (تك1 : 3، 4) .

واستمر هذا الأمر ، من جهة الرمز ، كقاعدة ثابته سار عليها الله في معاملاته لأولاده في كل جيل ، فلما انتشر الشر في العالم قبل الطوفان ، ماذا حدث ؟

كان الفلك رمزاً لهذه القاعدة .

فيه انفصل نوح وبنوه عن كل خلطة خاطئة في العالم الشرير الذي حل عليه غضب الله . وهكذا خلصوا من الهلاك .

وحدث نفسه الأمر مع أبينا إبراهيم . قال له الله في بداية دعوته " اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك ، إلى الأرض التي أريك " (تك12 : 1) . وهكذا ابتعد أبونا إبراهيم عن الوثنية الموجودة في أيامه ، وتغرب في أرض مقدسة يستطيع فيها أن يعبد الله ويحيا في بر .

ولما خالف أبونا إبراهيم هذه القاعدة الروحية ، تعب في حياته : حدث ذلك لما نزل إلى أرض جرار ، فأنته تجرب ة شديدة من أبيمالك ، تدخل فيها الله لإنقاذه (تك20) . وحدث ذلك قبلاً لما نزل إلى مصر وقت المجاعة . فنالته تجربة من فرعون ، أنقذه الرب منها بمعجزات (تك12 : 14 ــ 20) . وأخذ إبرام من هذين الحادثتين درساً في حياته .

ونفس المشكلة بوضع أخطر تعرض لها لوط في أرض سدوم .

كانت معيشته في بيئة شريرة سبب تعب روحي له . وقال عنه القديس بطرس الرسول " كان البار ــ بالنظر والسمع وهو ساكن بينهم .. يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة " (2بط2 : 8) . ثم تطور معه إلى وقوعه في السبي ، ثم احتراق المدينة بغضب الله ، وإنقاذه بمعجزة إلهية بشفاعة أبينا إبرام الذي كان بعيداً عن خلطة الشر والأشرار .

أوامر إلهية وكنسية

ووضع الله قواعد روحية لوجوب الانفصال عن العشرة الخاطئة ، منها عدم الزواج بالنساء الأجنبيات .

ولما وقع سليمان الحكيم في هذا الخطأ ، انحرف بسبب نسائه الغريبات اللائى أملن قلبه وراء آلهة أخري ... وأقام المرتفعات " لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدون ويذبحن لألهتهن " (1مل11 : 1 ــ 8) .

وعاد سليمان ليحارب هذا الخطأ في مواضع كثيرة من سفر الأمثال (أم2 : 16 ؛ 7 : 5 ؛ 5 : 20 ؛ 6 : 24 ؛ 22 : 14) .

كما حورب هذا الأمر من عزرا ونحميا (عز10 : 2 ؛ نح13 : 16) .

وقد وضع لنا القديس بولس الرسول مبدأ روحياً هاماً قال فيه : " لا تضلوا . فإن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة " (1كو15 : 33) . ويقول ايضاً " لا تخالطوا الزناة " (1كو5 : 9) ، كما يقول " اعزلوا الخبيث من وسطكم " (1كو5 : 13) . وقال بالتفصيل " إن كان أحد مدعواً أخاً ، زانياً ، أو طماعاً أو عاب وثن ، أو شتاماً ، أو سكيراً ، أو خاطفاً ، أن لا تخالطوا ولا تؤكلوا مثل هذا " (1كو5 : 11) .

ووردت نفس النصيحة في المزمور الأول . " طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الشرار ، وفي طريق الخطاة لم يقف ، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس " (مز1) .

لاشك أن الإنسان يتأثر بالبيئة المحيطة . وكما قال الأباء أن الشخص البعيد عن مادة الخطية ، إذا حورب بها أنما يحارب من الداخل فقط . أما إذا كان قريباً من مادة الخطية ، فتكون أمامه حربان أحدهما من الخارج . والأخرى من الداخل . ويصبح الأمر صعباً عليه .

إذن البعد عن المجال الخاطئ أنفع .

لذلك كانت الكنيسة في أجيالها الأولي تعزل الخطاة عن جماعة المؤمنين .

وتسمح مطلقاً بتواجدهم داخل الكنيسة . ويبقي حضور الكنيسة وقداساتها للقديسين فقط . وكان نظام العقوبات شديداً جداً في الكنيسة في العصور الأولي للمسيحية واقصى ما كان يسمح به هو قداس الموعوظين ، وفي الغالبية كان يحضره الداخلون جديداً في الإيمان وليس الخطاة هؤلاء يحضرون القراءات الكنسية من الرسائل والسنكسار والإنجيل ثم العظة . وينصرفون ...

والعزل لم يكن يشمل فقط المنحرفين في سلوكهم ، وإنما أيضاً المنحرفين في الإيمان وفي الفكر والعقيدة .

وقد قال القديس يوحنا الحبيب في ذلك " إن كان أحد يأتيكم ولا يجئ بهذا التعليم ، فلا تقبلوه في البيت ، ولا تقولوا له سلام . لأن من يسلم عليه ، يشترك معه في أعماله الشريرة . (2يو10 : 11) .

وكان هذا الأمر خاصاً بأصحاب البدع والهرطقات ، حتى لا ينشروا فكرهم وسط الجماعة المؤمنين ويؤثروا عليهم .

ولعل وصية القديس يوحنا حالياً مع الذين ينشرون الشكوك في الدين من أمثلة الملحدين ، وشهود يهوه ، وكل من يبتدع أفكاراً منافية للإيمان المسلم به مرة للقديسين (يه3) .

ولعل من أشهر أمثلة العزل في العصر الرسل ، قصة حنانيا وسفيره .

حيث لم يقبل القديس بطرس الرسول أن يكذب هذان على روح الله القدوس (أع5 : 1 ــ 11) .

ومن اشهر الأمثلة أيضاً العقوبة التي أوقعها القديس بولس الرسول على خاطئ كورنثوس (1كو5 : 1ــ 5) .

وأقدم مثال للعزل ، هو طرد آدم وحواء من الجنة .

حيث فصلهما الله عن شجرة الحياة ، وفصلهما عن الفردوس ، وجعلهما خارجاً ... والخطية عموماً هي انفصال عن الله ، وعن ملكوته وملائكته وقديسيه . وحياة البر هي انفصال عن الخطية وعن مشاركة الخطاة .

وفي المعمودية يبدأ الإنسان الروحي اعتزاله الأول عن الشيطان والخطيئة : ففي المعمودية يجحده إنسان علناً ، هو وكل أعماله الشريرة ، وكل جنده وكل سلطانه ، وكل بقية نفاقه .

ويعتزل ايضاً عن إنسانه العتيق ، فيموت هذا الإنسان في المعمودية ، ليولد إنسان جديد على صورة الله . وكذلك ينفصل الإنسان عن كل الخطايا السابقة للمعمودية ، سواء الخطية الأصلية أو كل الخطايا الفعلية ، ليحيا الإنسان حياة جديدة طاهرة ثابتة في الله . وهكذا يتحقق أيضاً قول الكتاب " وفصل الله بين النور والظلمة " .

فصل أخطر في الأبدية

وكما يوجد فصل بين النور والظلمة هنا على الأرض ، يوجد فصل من نوع أعمق في العالم .

ويتضح هذا جيداً من قصة الغني ولعازر المسكين . حيث قال أبونا إبراهيم لذلك الغني " بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت . حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا " (لو16 : 26) .

وفي الدينونة يوجد فصل بين الذين عن اليمين ، والذين عن اليسار .

سيفصل الله في يوم الدينونة الرهيب بين الخراف والجداء ، وسيفصل ما بين الحنطة والزوان ، وبين الأبرار والأشرار . ولا يعود هؤلاء وأولئك يعيشون معاً كما كانوا يختلطون معاً على الأرض فيمضي هؤلاء إلى النعيم الأبدي . ويمضي أولئك إلى النار المعدة لأبليس وملائكته .

ويعيش الأبرار في كورة الأحياء . بينما يطرح الأشرار في الظلمة الخارجية .

الآن يستطيع أي خاطئ أن يقابل أي قديس ، ويسلم عليه ، ويجلس معه ويتحدث إليه ، ويطلب منه الصلاة لأجله . أما في الأبدية ، فإن الخطاة لا يستطيعون اللقاء بالقديسين . لا يستطيع الغني أن يجلس مع لعازر ، بل ينظره من بعيد . وربما لا يستطيع رؤية الأبرار على الإطلاق .

ويكون حرمانهم من عشرة الملائكة والقديسين جزءاً من عذابهم الأبدي .

إنه فصل بين النور والظلمة حسبما شاء الله منذ قصة الخليقة .

فإن كنت تحرص على محبة إنسان ، وداوم المعيشة معه ، هنا وفي العالم الآخر أيضاً ، ليس أمامك سوى هذه النصيحة ،

عيشا ههنا في حياة روحية ترضي الله ، لكي تعيشا معاً في الحياة الأبدية .

أما إن سرتما كل واحد في طريق يختلف عن الآخر من جهة البر والقداسة فلن تلتقيا في الأبدية . وإن عشتما هنا في طريق واحد في حياة الخطية ، فإن عذاب الأبدية سيشغل كلاً منكما عن التمتع بالآخر في الأبدية . وإن لم تستطع أن تجتمع بمن تحبه في الأبدية ، فعلي الأقل اهتم بأبديتك أنت وبمحبتك لله ، بدلاً من أن تخسر نفسك .

ماذا تفعل إذن ؟

إن لم تستطع أن تعتزل عملياً عن الخطاة ، فعلي الأقل اعتزل عن طرقهم ... إن كنت لابد لك أن تعيش في بيئة غير روحية ، إذ العالم غالبيته هكذا ، وليس بإمكانك أن تخرج من العالم كما قال معلمنا بولس الرسول ...

وإن كنت لا تستطيع الانفصال عن الخطاة جسدياً ، فانفصل بالقلب والفكر ...

افصل قلبك عن شهوة شريرة ، وافصل عقلك عن كل فكر خاطئ . وافصل حواسك بقدر الإمكان عن رؤية وعن سماع ما يتعبك روحياً . وتذكر قول القديس بولس الرسول " والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه " (1كو7 : 31) . واستمع أيضاً إلى قوله : " لا تشاكلوا أهل هذا الدهر " (رو12 : 2) . أي لا تصيروا في شكله وشبهه ، بل كونوا مميزين بطريقكم الروحي . وكما قيل " لغتك تظهرك " (متى26 : 73) أوم كما قال القديس يوحنا الحبيب " كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية ... بهذا أولاد الله ظاهرون ، وأولاد أبليس (ظاهرون) " (1يو3 : 9 ، 10) . أولاد الله قد ارتفعوا عن مستوي العالم وشهواته ، لأنهم ركزوا كل محبتهم في الله وحده يرفضون الوضع الذي انتقده إيليا النبي حينما قال :

" حتى متى تعرجون بين الفرقتين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه . وإن كان البعل فاتبعوه " (1مل18 : 21) .

لا يمكن للمؤمن الحقيقي أن يجمع بين الأمرين معاً : الله والعالم . فيعطي ساعة للصلاة ، وأخري للمتع العالمية دون أن يثبت على حال .. فقد قال الكتاب " تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ومن كل قدرتك " (تث6 : 5) . وعبارة " كل " هنا ، تعني أنه لا توجد محبة أخري إلى جوار الله تنافسه .. لا توجد ظلمة تشترك مع نوره العجيب داخلك . وانفصالك عن الظلمة ، ليس هو مجرد عمل سلبي ، وإنما له إيجابياته حسبما قال الرسول :

" لا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة ، بل بالحري وبخوها " (أف5 : 11) .

وتوبيخ الظلمة يعني أنك لا تقبلها فيك ولا غيرك ، وتعنى حرصك على ملكوت الله وانتشاره . وتوبيخ الظلمة يعني قوة في القلب من الداخل ، لا تضعف أمام سلطان الظلام (لو22 : 53) ، وإنما تتصدى للظلمة وتقاومها ، ومثلما وقف إيليا ضد آخاب وأنبياء البعل " (1مل18). ومثلما وقف المعمدان ضد هيرودس وهيروديا (متى14 : 3 ، 4) .

أنت نور . والخطية ظلمة . النور يستطيع أن يقشع الظلام .

أنت نور ، لأن السيد المسيح قد قال لنا " أنتم نور العالم " (متى5 : 14) . وقال بعدها " فليضئ نوركم هكذا قدام الناس ، لكي يروا أعمالكم الحسنة ، ويمجدوا أباكم الذي في السموات (متى5 : 16) . ونورك هذا حينما يضئ ، سيبدد الظلمة التي حوله . لا تغطي هي عليه ، بل هو الذي يبددها ...

فهل لك هذه الهيبة الروحية التي تبدد الظلمة التي حولها ؟

هل في مجرد وجودك يشعر من حولك أنهم لا يستطيعون أن يلفظوا بكلمة خارجة أو كلمة نابية ، ولا يستطيعون أن يتصرفوا أي تصرف غير لائق .

هل وجودك يشعرهم أنك تنقل إليهم حضور الله في وسطهم فيقولون لك العبارة التي قيلت لذلك المتنيح ... إننا عرفنا الله اليوم عرفناك .. ؟

هل أنت لا تنفصل فقط عن الظلمة أم أنت تقضي على الظلمة ؟

هل أنت مصباح يوضع على المنارة ، فلا تكون ظلمة ، لأنه ينير لكل من في البيت (متى5 : 15) أو هل أنت حتى مجرد شمعة ، تضئ فتطرد الظلمة .

قد يكون تعليمك نوراً . وهذا حسن ، وما هو بأحسن من ذلك أن تكون حياتك نفسها نوراً تضئ للآخرين .

ولا يمكن أن تكون نوراً ، إلا إذا أحببت النور . ولا يمكن أن تبدد الظلمة إلا إذا كنت تكرهها من أعماقك .

لذلك افحص قلبك جيداً ، وتأكد من سلامة مشاعره ، واطرد منه كل ظلمة ، بمحبة الله التي إن دخلت قلبك طردت منه كل محبة للعالم وللخطية .

وينبغي أن تثق بأن الخطية ظلمة . يكفي أنك لا تستطيع أن تفعلها إلا في الظلام ، في الخفاء ، في غير ملاحظة الناس لك ... وإن تكشفت لأحد ، تحاول أن تغطيها بالأعذار أو التبريرات ، أو الكذب ، أو بإلصاقها بغيرك ، لكي تبقي في الظلام لا يراها أحد فيك ...

ومادام الله نوراً ، إذن فالخطية . وهي ظلمة . تفصلك عن الحياة مع الله .

لأنه كما قال الرسول " أية شركة للنور مع الظلمة " ...

وإن كان الأبرار سيقومون في اليوم الأخير بجسد نوراني روحاني ، وسوف يضيئون كالجلد ، والذين ردوا كثيرين إلى البر يضيئون كالكواكب إلى أبد الدهور _ دا12 : 3) ، فماذا نقول عن قيامة الخطاة الذين كانوا ظلمة في حياتهم ؟

هؤلاء سيطرحون في الظلمة الخارجية فلا يمكن أن تكون أرواحهم مضيئة .

وهكذا يكون الله قد فصل في الأبدية أيضاً بين النور والظلمة ، ليس فقط من جهة المسكن ، حين يسكن الأبرار في المدينة المنيرة التي لا تحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ، لأن مجد الله يضيئها (رؤ21 : 32) .

وإنما أيضاً من جهة طبيعة الأرواح الأبرار الأبرار منيرة ، وأرواح الخطاة مظلمة ...

ولا يمكن أن تكون أرواح الأشرار منيرة ، لأنهم انفصلوا عن الله الذي هو النور الحقيقي ، ولأنهم يعيشون في الظلمة الخارجية ، ولا شركة للنور مع الظلمة .

الفصل الحادي عشر

حياة التسليم وحياة الشكر

حياة التسليم.

خصائص حياة التسليم .

حياة الشكر .

أشياء كثيرة نشكر عليها .
ماذا تعلمنا الكنيسة .
نشكر على النعم والضيقات .
عقبات أمام الشكر .
فضائل تتعلق بالشكر .

حياة التسليم

حياة التسليم هي أن تسلم الله حياتك تضعها في يديه ، وتنساها هناك . وتثق من كل قلبك أنـــه يـــدبر حياتك حسناً ، حسب مشيئته الصالحة الطوباوية .
المسألة إذن تحتاج إلى ثقة بالله ، وإيمان بمحبته وحكمته ورعايته .
ولكن للأسف الشديد ، غالبية الناس يثقون بأنفسهم وبذكائهم وعقليتهم وتدبيرهم البشري أكثر مما يثقون بالله !! لذلك هم يحبون أن يدبروا كل أمورهم بأنفسهم ، ولا يفكرون في اللجوء إلى الله ، والاعتمـــاد عليه كلية كما تقتضي حياة التسليم .
إن أخطر شئ يتعب الإنسان هو أن يستقيل عن الله ويعتمد على نفسه ، تقوده الذات : تقوده رغباتـــه وشهواته أو يقوده تفكيره ، أو يقوده الآخرون .
وفي ذلك إن اعتمد على الله ، إنما يكون اعتماداً جزئياً ، في حدود معينة لا يتخاطاها .. ! أو يكـــون اعتماداً في غير عمق ، وفي غير ثقة ... اعتماداً متردداً ، أو اعتماداً يحاربه الشك والخـــوف وعـــدم الاطمئنان .
يذكرني هذا بالقديس بطرس الرسول حينما مشى مع السيد المسيح على الماء ولكنه ما لبث أن خـــاف وبدأ يسقط ، واستحق أن يوبخه الرب قائلاً " يا قليل الإيمان ، لماذا شككت ؟ " (متى14 : 31) .
عكس هذا الذين مشوا في البحر الأحمر ، والمياه تحيطهم من الجانبين هؤلاء لابد أنهم سلموا حيـــاتهم لله ، ووثقوا به كل الثقة .
وهناك تأمل يقول : إن أكثر الناس تسليماً وقتذاك ، كان أول شخص وضع قدمه في الماء ، لما ضرب موسى البحر بعصاه ، وهو واثق أن الماء لابد سينشق .
ويشابه هذا الإيمان ، الذين مشوا تحت السحابة ، وهم لا يعلمون إلى أين هم ذاهبون . ولكنهم يثقـــون بقيادة الرب لهم .

ومثلهم أيضاً أبونا نوح حينما دخل الفلك مع الوحوش . وترك قيادة هذا الفلك لله وحده ، واثقاً أنه سيخرجه منه إلى أرض جافة انقشع عنها ماء الطوفان ..

إن أبانا آدم لم يسلك في حياة التسليم حينما تبع رغبته ، أو تبع امرأته ، أو تبع الحية ، مستقلاً عن الله ووصيته .. وترك شهوة المعرفة تقوده ، فقادته إلى الجهل وإلى الموت !
ويونان النبي لم يسلك في حياة التسليم ، حينما هرب من الله ، واغتاظ من مشيئته الإلهية حتى الموت ، طالباً الموت لنفسه (يون4) .
وشاول الملك كان سبب ضياعه ، أنه استقل عن الله ، تابعاً فكره ونزعاته ، وملتجئاً أحياناً إلى مشورة العرافة ...

حياة التسليم هي كما قلنا أن تسلم حياتك لله . وهي أيضاً أن يستسلم الإنسان لعمل الله فيه . يستسلم لعمل النعمة فيه ، ولعمل الروح القدس ، ولمشيئة الله الصالحة .

تماماً كالحملان مع الراعي ... حينما يقودها تمشى ، وهي مطمئنة واثقة برعايته وبقيادتـــه ، بـــدون تفكير ، بدون رأي خاص . وكما تقول الترتيلة " حيث قادني أسير " . إنها طاعة كاملة ، مبنية علـــى ثقة كاملة .

خصائص حياة التسليم

حياة التسليم إذن ترتبط بالطاعة . نقصد الطاعة الحقيقية ، التي لا تذمر فيها ، ولا إرادتين ...
حيث تطيع الله ، وأنت مبتهج القلب . وليست لك إرادة غير إرادته ، بل تقول :

ليس لي رأي ولا فكر ولا
شهوة أخري سوي أن اتبعك

إن سبب السقوط الوحيد ، هو الثنائية بين إرادة الإنسان وإرادة الله .
حياة التسليم أرشدنا الرب إليها في الصلاة الربية ، حينما علمنا أن نقول " لتكن مشيئتك ... " لتكن مشيئتك هي مشيئتي . ولتكن مشيئتي هي مشيئتك . ولا تسمح أن تكون له مشيئة أخري منفصلة عنك ...
وإذا دخل الإنسان في وحدة المشيئة ، لن يخطئ . لأنه يكون حينئذ في شركة مع الروح القدس ، لا يقاوم ، ولا يعاند المشيئة الإلهية . وهذه هي أحدي ثمار حياة التسليم ...
ومن هنا كانت الخطية لوناً من العناد ، لا يتفق مع حياة التسليم . ومن هنا أيضاً الذي يعيش في التسليم " لا يستطيع أن يخطئ والشرير لا يمسه " وبهذا " أولاد الله ظاهرون " (1يو3 : 9 ، 10) (1يو5 : 18) .

الذي يحيا حياة التسليم ، يسلم لله كل شئ ، يسلمه فكره وقلبه وحواسه ، ولا يحاول أن يتدخل في عمل الله فيه . يسلمه رغباته وانفعالاته وعواطفه .
هذا هو التسليم الكامل ، الذي به وحده يستطيع المؤمن أن يهتف مع القديس بولس الرسول " أحيا لا أنا ، بل المسيح يحيا في " (غل2 : 20) .
هذا هو التسليم الإنسان الذي صلب ذاته تماماً ، فلم تعد له ذات تقاوم مشيئته الله ...

الذي يحيا حياة التسليم ، يسأل الرب في كل أمر " ماذا تريد يارب أن أفعل " (أع9 : 6) .
أنا لا أختار لنفسي ، بل أطلب دائماً ما تختاره أنت لي . لأنني لو اخترت لنفسي ربما أخطئ في اختياري . أما أنت فتعرف ما هو الصالح لي .
وأنا لا اختار لنفسي ، لأني لا أثق بحكمتي الخاصة . وما أصدق قول الكتاب : " على فهمك لا تعتمد " (أم3 : 5) . وأيضاً " توجد طريق تبدو لإنسان مستقيمة ، وعاقبتها طرق الموت " (أم14 : 12 ؛ أم16 : 25) .
لذلك أنا أترك الأمر لحكمتك الإلهية واسلم الأمر لها . لأنك أنت يارب تري ما أراه ، وتعرف ما لا أعرف . وأنت تدرك ما هو الصالح لي وتقودني إلى الأرض الخضراء ، وإلى موارد الماء الحي .

إذن حياة التسليم ينبغي أن تبني على أتضاع القلب ، وعلى بساطة القلب كما تبني على اختفاء الذات إن الذات التي تثق بمعرفتها وقدرتها من الصعب عليها أن تصل إلى حياة التسليم .
والذين يفحصون كل مشيئات الله وكل عمله معهم ، والذين يأخذون عمل الله مجالاً للمناقشة والمجادلة ... هؤلاء لا يستطيعون بهذا الأسلوب أن يصلوا إلى حياة التسليم . بل يسمونهم " العقلانيين " ..

إبراهيم أبو الآباء عاش في حياة التسليم ، حينما ترك أهله ، وحينما رضي أن يقدم ابنه محرقة للرب.
ترك وطنه وعشيرته ، وهو لا يعلم إلى أين يذهب ، إنما كان قد سلم حياته للرب ، يقوده حيثما يشاء ، ويسكنه حيثما يشاء .
كذلك أخذ ابنه الوحيد ليقدمه ذبيحة محرقة ، مسلماً الأمر لقدرة الله التي تستطيع أن تقيم من الأموات (عب11) .

الذي يحيا حياة التسليم ، إنما يسلم للرب الغرض والوسيلة ، كذلك النتيجة أيضاً ...

الله يختار له الطريق والطريقة . وكل نتيجة تأتي من عند الله هي مقبولة . لذلك هو يعيش في فرح ورضي باستمرار . إن الحزن يأتي إذا حدد الإنسان لنفسه غرضاً ولم يتحقق . أما الذي يعيش في التسليم فإنه لا يحدد لنفسه أغراضاً ، لأنه قد ترك للرب أن يرشد طريقة . وكما قال أرمياء النبي " عرفت يارب أنه ليس للإنسان طريقة . ليس لإنسان يمشي أن يهدي خطواته " (أر10 : 23) .

الذي يسلم للرب طرقة ، لا يقلق ابداً ، لأنه واثق أن الرب سينجح طريقه أما الذي يقود نفسه ، فهو معرض للقلق ...

بولس الرسول سلم حياته للرب ، لذلك كان يغني ويسبح ، حتى وهو في السجن (أع16) لا يوجد شئ يزعجه ، بل كان أيضاً يكتب بعض رسائله وهو أسير في الرب .

وبطرس الرسول لأنه سلم حياته للرب ، نام في السجن مستريحاً ، بينما كان الموت ينتظره في اليوم التالي (أع12) .

حياة التسليم تقوده إلى الاطمئنان ، حتى في أشد الأوقات ...

إنها تذكرني باطمئنان المريض الذي يرقد في هدوء وثقة ، مسلماً جسده لمشرط الجراح " يجرح ويعصب " ...

هو في رقاده ونومه واستسلامه لا يحاول ، ولا يسأل الجراح ماذا يفعل به ... يكفيه جداً أنه في يد أمينة تريد الخير له ، ويكفيه ثقته في هذه اليد .

هكذا كل الذين ساروا وراء الله في تسليم . لم يسألوا ، ولم يجادلوا ، كما حدث في دعوة آبائنا الرسل .

متى ــ وهو في مكان الجباية لما وصلته الدعوة ، ترك كل شئ ، ولم يسأل إلى أين ؟ وبطرس واندراوس ويوحنا ويعقوب أخوه ، تركوا الشباك والصيد ، وساروا وراء المسيح وهو لا يعلمون إلى أين ... ولم يسألوا .. إنها حياة التسليم .

لذلك حسناً أن الله اختار أولئك الذين كانت لهم حياة التسليم ...

كان يعرف أن لهؤلاء قلوباً مستعدة بسيطة ، تثق ولا تحاول أن تفحص بعناد يدعي الحكمة والفهم ، ولهذا قال السيد المسيح " احمدك أيها الآب لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال " " أي للبسطاء " (لو10 : 21) .

وكأني بالمؤمن يقول للرب في كل مشكلاته :

لقد قدمتها لك يارب . صمت من أجلها وصليت . وسلمتها لك . وأنا واثق أنك ستعمل . كيف ستعمل ؟ ومتى ؟ لا أعرف . ولكنى أعرف تماماً أنك لابد ستعمل الخير . وسأري عملك الآن أو بعد حين .

هذا أمر أراه بالإيمان وبالحب والثقة ، وأراه بخبراتي الطويلة معك ، تحت رعايتك ...

في التسليم يفعل الإنسان هكذا ، ولا يقلق من جهة الوقت .

إن الله سيعمل في الوقت الذي يراه مناسباً ونافعاً . بدا لك أنه قد تأخر مسألة التأخير هذه مسألة نسبية تتوقف على نوعية تفكير الإنسان .

في حياة التسليم اترك الوقت لله ، ولا تحدد له مواعيداً ، فهو أدري بعمله ، وهو أكثر منك معرفة بالوقت الصالح .

ثق بعمل الله ، مهما حاربك الشيطان باليأس . ومهما قال لك في شماتة " لا فائدة " ! إنك مادمت قد سلمت أمورك لله ، فقد سلمتها للقادر على كل شئ ، الله محب البشر ، صانع الخيرات ، الكلي الحكمة والمعرفة ، الذي قد نقشك على كفه ...

حقاً إن صفات الله الجميلة هذه ، تدعوك إلى حياة التسليم بالأكثر ، وتدعوك إلى الاطمئنان مهما بدت أمامك عوائق .

إن الله هو هو ، ووعوده هي هي ، ومحبته وحكمته هي هي . وهو يعمل حتى لو بدا لك الأمر متوقفاً. في حياة التسليم لا تعتمد على حواسك ولا على إدراكك الخاص . إن كنت قد طلبت من الله طلباً ، ثق أنه في اللحظة التي سمعك فيها قد بدأ يعمل لأجلك حتى قبل أن تطلب .

بحياة التسليم ، سلك الرسل في كرازتهم وفي خدمتهم .

ذهبوا إلى بلاد لم يروها من قبل ، ولا يعرفون لغتها ، وليس فيها كنائس ولا مؤمنون ولا أية إمكانيات .

ولكنهم بحياة التسليم كانوا يثقون أن الله سيدبر الخدمة وينجحها . ولم يكن يعينهم كيق ؟.

وبحياة التسليم عاش إباؤنا الرهبان السوام بدون أية معونة بشرية .

عاشوا تائهين في البراري والقفار . ومرت على الكثيرين منهم عشرات السنوات لا يرون فيها وجه إنسان . ومع ذلك كانوا سعداء في حياتهم التي سلموها للرب ، ورأوا ورأت الأجيال كيف كان الله يعولهم روحياً ومادياً في حياة التسليم التي عاشوها .

إن الذي يحيا حياة التسليم ، لا يهتم ، لا يحمل هماً ...

إنه قد ألقي على الله همومه ، منذ أن سلمه حياته بكل ما فيها ، ولم يعد يحمل هماً بعد ذلك ... إن الذي يهتم بالكل ، يهتم به أيضاً .

مادام أبوكم السماوي يعلم جميع احتياجاتكم ، ومادام هو يرعاكم فلا يعوزكم شئ ، إذن لماذا تهتمون !؟

لا تهتموا بما للغد ، فإن الغد يهتم بما لنفسه " (متى6 : 34) . إن إله الغد هو الذي يدبره . كما دبر أمساً وقبلاً من أمس ...

جميل أن نسمع عن يوحنا المعمدان أن ملاكاً خطفه في طفولته إلى البرية لينقذه . أو فيلبس الذي عمد الخصى الحبشي ، حمله روح الرب فوجد في أشدود (أع8) . أو أن القديس مقاريوس الكبير لما تعب في البرية في الطريق قال " أنت تعلم يارب أنه ما بقيت في قوة " وللحال وجد نفسه في الأسقيط.

إن روح الله الذي قاد الآباء قديماً ، قادر أيضاً أن يقودك ، إن سلمته حياتك فادخل في حياة التسليم ، اختبروا الرب وذاقوه ، وتقوي إيمانهم بالأكثر لكي يدخلوا في درجة أعمق في حياة التسليم . وكانت حياة التسليم تقودهم كل يوم إلى اختبار جديد . وحياة الاختبار تثبتهم في حياة التسليم .

وهكذا كلما زادوا تسليماً ، زادوا اختباراً . وبالاختبار يقوي إيمانهم ، فيزداد تسليمهم . ونعمة تقودهم إلى نعمة ...

بالتسليم تحيا في سلام . أما كثرة الاهتمامات ، فتتعبها كثرة الهموم .

إلى متي تظل حاملاً هموماً ينوء تحتها ظهرك . القها على الله . أليس هو القائل " تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم " (مت11 : 28) .

إن الله الذي حمل أثقال العالم كله ، من آدم حتى الآن وإلى أخر الدهر أكثير عليه أن يحمل همومك ...

هناك إنسان قد يعيش في الكنيسة مضطرباً يحمل هموماً . وبدلاً من أن يترك الله يحمل همه ، يحمل هو هموم الله ، إن صح هذا التعبير !! فلماذا يا أبني تتعب نفسك ؟ ولماذا تتعب النفس بكثرة حديثك عن الهموم . سلم الأمر لله الذي سيحملك ويحمل الكنيسة وكل همومك وهمومها ، دون أن تقلق .

حسن أن تختبر الرب ، حينئذ تحكي عنه لابنائك وأحفادك وتلاميذك .

تحكي ليس فقط عن إله الكتب ، إنما عن إله الخبرة والعشرة والمذاقة ... إله كل يوم ، وكل لحظة ، وكل حادث . تحكي عن الله الذي لم يتخل عن أولاده مطلقاً ، والذي قال عنه داود النبي " أبى وأمي تركاني ، أما الرب فضمني " .

مساكين الذين لم يذوقوا الرب . وكيف يمكنك أن تذوقه ؟ بالاختبار ... وكيف تختبره ؟ بالدخول في حياة التسليم .

سلمه حياتك ، كما يسلم طفل يده لأبيه ، ليقوده في زحمة المواصلات في أحد الميادين ... أو كطفل يتسلق بكتف أمه ، ويشعر بأنه ، وهو على كتفها ــ في عمق الأمن والراحة والسلام .

لنرجع إذن إلى حياة الطفولة الروحية ، في بساطتها وثقتها ، وتسليمها وسلامها .

" إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأطفال ، لن تدخلوا ملكوت الله " . ومن أشهر صفات الأطفال ... التسليم وعدم الثقة بالذات ، بقدر ما يثقون والأب والمعلم ...

وفي حياة التسليم ، لا تجادلوا ، ولا تشكوا .. إنما ثقوا أن الله يحمل .

جربوا حياة التسليم ، وما فيها من فرح واطمئنان وسلام . واقتنوا خبرة روحية من تسليم حياتكم للرب

لقد تأمل أحد القديسين في عبارة " تركنا كل شئ وتبعناك " فقال : إن تركنا كل شئ ، هو تركنا لأهويتنا أرادتنا ...

اقرأ مقال " اتركيني الآن " في كتاب " انطلاق الروح " ...

صل وقل : أنا يارب سهرت الليل كله ، ولم اصطد شيئاً . لكني في حياة التسليم ، على إسمك ألقي الشباك وأنا واثق أنها ستمتلئ سمكاً . إله البحر سوف يملؤها ...

حياة الشكر

نحن على أبواب عام جديد ، جعله الله عاماً سعيداً . فماذا ترانا سنقول لله فيه ؟

اعتاد الناس أن يطلبوا ما يريدون ... وليس في هذا خطأ . إنما الخطأ في أن قليلين هم الذين يشكرون على احسانات الله السابقة .

أو إن شكروا ، يكون شكرهم ضئيلاً إلى جوار طلبهم . فيطغي الطلب على الشكر . وقديماً قال أحد الآباء الروحيين .

" ليست موهبة بلا زيادة ، إلا التي بلا شكر " ...

لذلك أود في هذا المقال أن اركز على موضوع الشكر ، حتى يكون عنصراً بارزاً في صلواتنا في ليلة رأس السنة . لأنه من المخجل أننا نطلب في كل مرة طلبات جديدة ، دون أن نشكر على العطايا السابقة ...

اشياء كثيرة نشكر عليها

اشكر على احسانات الله إليك ، وإلى أحبائك ومعارفك ، واحسانات الله إلى الكنيسة كلها ، وإلى كل المجتمع الذي تعيش فيه ...

ولا شك أنك ستجد نقطاً بيضاء كثيرة تحتاج إلى شكر ... وعلى الأقل ، من الآن اجلس إلى نفسك ، وحاول أن تتذكر بالتفاصيل كل ما صنعه الله من أجلك ومن أجل أحبائك ...

ليس فقط في العام المنتهي هذا ، وإنما فيما سبقته من أعوام ، بل حياتك كلها ...

اشكر الله لأنه لم يعاملك بحسب معاملتك له ، ولم يجازك على كثير من الخطايا التي تعرفها عن نفسك ، بل على العكس سترك وأعانك ، وفتح لك بيته ، ومنحك من أسراره ...

لا تظن أن شكرك لله هو خاص فقط بما صنعه معك من معجزات ، بل الشكر يشمل كل شئ هناك تفاصيل دقيقة في حياتك تحتاج إلى الشكر يشمل كل شئ . هناك تفاصيل دقيقة في حياتك تحتاج إلى شكر . وقد لا تلتفت إليها .

ماذا تعلمنا الكنيسة

إن الكنيسة المقدسة تعلمنا أن نشكر على أشياء قد لا يخطر ببالنا أن نشكر عليها ولكن كتب الصلوات تذكرنا بها . فنحن نقول في صلاة الغروب : نشكرك يا مليكنا المتحنن ، لأنك منحتنا أن نعبر هذا اليوم بسلام ، وأتيت بنا إلى المساء شاكرين ، وجعلتنا مستحقين أن ننظر النور إلى المساء " ...
ما هذا الحساسية العجيبة في الشكر إياها وبالمثل تعلمنا أن نقول في صلاة باكر " نشكرك يا ملك الدهور ، لأنك أجزتنا هذا الليل بسلام ، وأتيت بنا إلى مبدأ النهار " ...
إننا نشكر الله على كل دقيقة نحياها . إنها هبة من الله ، فرصة وهبها لنا لنعمل فيها خيراً ...
بل إن مجرد وقوفنا للصلاة ، أمر نشكر الله عليه ، لأنه وهبنا أن نتحدث إليه ، ومنحنا النعمة التي ننحل بها من اهتمامات الدنيا ، لنقف أمامه ، وبخاصة في الأوقات المقدسة . وهكذا تعلمنا الكنيسة أن نقول في صلاة الساعة المقدسة التي فيها أفضت روحك القدوس ... " .
وعبارة ــ أقمتنا ، هنا ، تعني أننا نشعر بأن نعمة هي التي دفعتنا إلى الصلاة ، وساعدتنا على اتهامها ، وليست هي فقط اتجاهات أرادتنا ، التي ربما لو تركت لذاتها ما كنا نصلى ...
بل الكنيسة تعلمنا أن نبدأ كل صلاة بالشكر . ليس فقط في صلاة الأجبية بل أيضاً صلاة القداس الإلهي وصلوات جميع أسرار الكنيسة . بل حتى في حالة الوفاة ، حينما نصلى على الذين رقدوا وفارقوا عالمنا ، مع شدة حبنا لهم ، نبدأ صلاتنا بالشكر أيضاً .
ونقول في صلاة الشكر على كل حال ، ومن أجل كل حال ، وفي كل حال " ...
إنها صلاة تدخل في حياة التسليم ، وفي الشعور بأن " كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الرب " (رو8 : 28) ...
ولعل هذه العبارة مأخوذة من قول الكتاب : " شاكرين في كل حين ، على كل شئ " (أف5 : 20) .
إنها درس لمن يحبون حياة التذمر ، أو عدم الرضى ، ساخطين على أمور كثيرة ، بينما يمكن في حياة الإيمان أن نشكر على كل شئ ، قائلين نشكر ــ مهما حدث لنا ــ كله للخير .

نشكر على النعم والضيقات

غالبية الناس يشكرون على النعم فقط . وقليلون هم الذين يشكرون في الضيقات . إنما يشكر في الضيقة ، القلب الواسع الذي لا يضيق بالضيقة . ويشكر فيها من يحب الله ، لا يمكن أن يتذمر على شئ سمح به ، بل يثق بصلاحه وعنايته ورعايته ويشعر أن الضيقة لابد تنتهي بخير .
أعلى من الشكر في الضيقة ، الشكر على الضيقة .
الشكر في الضيقة يدخل في فضيلة الاحتمال أو فضيلة التسليم ، شاعرين أنها ضيقة ولكن نشكر عليها . لأنه إن كان الله قد رضي بها لنا ، فلماذا لا نرضى بها لأنفسنا ؟ ...
أما الشكر على الضيقة ، فمعناها محبة الضيقات ، والشعور بأنها بركة وليست ضيقة .
ومثال ذلك التلاميذ : الذين لما حبسوهم وجلدوهم ثم اطلقوهم " خرجوا فرحين لأنهم حسبوا متسأهلين أن يهانوا لأجل اسمه " (أع5 : 41) . ومن أمثلة هذا قول القديس يعقوب الرسول " احسبوه كل فرح يا أخوتي ، حينما تقعون في تجارب متنوعة " (يع1 : 2) . طبيعي أن الذي يشكر على الضيقات ، لابد يشكر على النعم . وهنا نسأل :
أتراك تشكر على كل نعم الله ؟ أم أن هناك نعماً من الله خفيت عليك فلم تشكر عليها ، أو نسيتها فلم تذكرها ؟ ...

ما أكثر احسانات الله إليك التي لا تعرفها ! إنك ربما تشكر لأن الله نجاك من ضيقة معينة تعرفها ، ولكن هناك ضيقات أخري كانت في طريقها إليك ، ومنعها الله ...
ربما دسائس كانت مدبرة ضدك ، وأنت لا تدري ، ومنعها الله فلم تحدث ، وأنت لا تدري ، وهذه لا تشكر عليها ، عن عدم معرفة ...
ربما خطية زاحفة إليك لتسقطك ، ومنعها الله من الوصول إليك . ربما شيطان كان سيغريك ليفني إيمانك ، وانتهره الرب ، فلم يأت إليك إطلاقاً . وأنت لا تدري ولا تشكر .
إن الله كما أمرنا أن نعمل الخير في الخفاء ، هو أيضاً يفعل خيراً لأجلنا في الخفاء .
والخير العلني الذي يعمله معنا ، إنما لكي يشعرنا بمحبته ، فنحبه لأنه أحبنا قبلاً لذلك مهما شكرنا الله ، لا يمكننا أن نوفيه حقه من الشكر .
يكفي أنه جعلنا هياكل لروحه القدوس . وسمح لروحه أن يسكن فينا ويعمل فينا (1كو3 : 16 ؛ 1كو6 : 19) .
يكفي أنه سمح أن يكون لنا أباً ، ونكون نحن أبناء ... هذا الأمر الذي قاله عنه القديس يوحنا الرسول " انظروا أية محبة أعطانا الآب ، حتى ندعي أولاد الله " (1يو3 : 1) .
إذن ليتنا نشكر على كل شئ : على النعم الروحية ، وعلى النعم المادية . على النعم التي نراها ، والتي لا نراها ...
ونشكر على الضيقة أيضاً ، لأن الضيقة هي أيضاً نعمة ...
ربما تقول لنفسك : أشكرك يارب من أعماق قلبي على هذا المرض ، لأنه قربني إليك . جعلني أعود إلى صلواتي ، وجعلني أحاسب نفسي وألومها على خطاياها . وأشكرك على المرض من أجل محبة الكثيرين التي تحيطني بها في مرضي ...
أشكرك أيضاً على هذا المرض ... لأنه أعطاني فرصة أخلو بك فيها ، ولأنه أعطاني ركة الألم ، وأشعرني بتقصيري السابق في زيارة المرضي . بل أعطاني بالأكثر الاستعداد لأبديتي ... حقاً ما أكثر بركات هذا المرض . وما أحق أن أشكر عليه .

عقبات أمام الشكر

1 ــ أحياناً لا نشكر ، لأننا ننظر إلى النقط المضيئة ف حياتنا ، بل نركز في المتاعب وحدها .
تركيزنا في المتاعب ، يجلب لنا الحزن والقلق والتذمر والتشاؤم ... وكل هذا لا يعطي طبعاً أي مجال للشكر ...
وأنا أريدكم أن تبدأوا عامكم الجديد بفرح وبشاشة ، لذلك تذكروا كل الأشياء المفرحة التي مرت بكم ، واشكروا عليها .
2 ــ ونحن أحياناً لا نشكر لأننا ننسب الأشياء المفرحة في حياتنا ، لغير الله . إذا نجحنا ننسب ذلك إلى ذكائنا ، أو إلى مجهود مدرسينا ، أو إلى سهولة الامتحان . وتختفي معونة الله في كل ذلك .
وكذلك إن شفينا ننسب ذلك إلى الأطباء . وإن وقفنا في عملنا ، ننسب ذلك إلى قدراتنا وكفاءتنا . وإن نجونا من حادثة ، نرجع ذلك إلى مهارة السائق . وبالتالي يختفي الله من أسباب أفراحنا ، فلا نشكره على شئ .
3 ــ واحياناً لا نشكر على شئ ، إلا إذا فقدناه أو حرمنا منه ، لا نحس النعمة التي نحن فيها ، إلا إذا ضاعت منا ، فلا نشكر الله على وجود الوالدين ولا نشعر ببركاتهما إلا إذا توفي أحدهما . ولا نشكر على ما نحن فيه من صحة ، ولا نعرف قيمتها إلا إذا مرضنا . بل لا نشعر ببركة وجود النور في الحجرة ، إلا إذا انقطع النور في الحجرة ، إلا إذا انقطع التيار الكهربائي .
4 ــ واحياناً لا نشكر ، لأن الأمر أصغر من أن نشكر عليه ، أو هكذا نراه .
.هنا نتذكر قول أحد الآباء الروحيين " الذي لا يشكر على القليل ، كاذب هو إن قال إنه يشكر على الكثير " .

أو من الجائز أنه أمر طبيعي أو عادي ، لا يستحق الشكر ! ولماذا لا نشكر على الأمور الطبيعة الجميلة ؟ لماذا لا نشكر الله على الطبيعة الجميلة ؟ لماذا لا نشكر الله على الطبيعة الجميلة ؟
لماذا لا نشكره على الجو إن كان صحواً ؟ هل ننتظر إلى أن يكفهر الجو ، ثم نشعر أننا فقدنا شيئاً ؟
وهنا وأقول في عوائق الشكر .
5 ــ إننا كثيراً ما نفرح بالنعمة . ونكتفي بالفرح دون أن نشكر ...
نفرح بالخير الذي نحن فيه ، دون أن نشكر على هذا الخير . كتلميذ يفرح بنجاحه ، أو فتاة تفرح بخطوبتها ، أو موظف يفرح بترقيته ، دون أن يتقدم أحد هؤلاء بالشكر إلى الله ...
إن الله ليس محتاجاً إلى شكرنا ، ولكننا نحن نحتاج إلى ذلك . لماذا ؟
إننا بالشكر ، نتذكر احسانات الله إلينا ومحبته لنا ، فتزداد رابطتنا به عمقاً ونحبه ، وهذا مفيد لنا روحياً . كذلك ندل بهذا الشكر على نقاوة قلوبنا ، لأن عدم الشكر فيه عدم عرفان بالجميل ، وعدم تقدير من أحبنا .
6 ــ واحياناً نحن لا نشكر ، لأننا لم نتعود ذلك في حياتنا .
إن كنا لا نشكر أخوتنا البشر على خدماتهم لنا ، فطبيعي إننا قد لا نشكر الله أيضاً . وكما قال الرسول : إن كنت لا تحب أخاك الذي تراه فكيف تحب الله الذي لا تراه ؟ (1يو4 : 20) ونفس الكلام نقوله عن الشكر .
لذلك عود نفسك أن تشكر غيرك على كل أمر يعمله من أجلك مهما كان ضيئلاً ثم بعد ذلك قل في داخل نفسك : أشكرك يارب لأنك أرسلت لي من يساعدني ، ومنحت هذا الإنسان قدرة على أن يخدمني .
وهكذا تشكر الله والناس في نفس . تشكر أخاك الإنسان لأنه كان العامل المباشر المرئي . وتشكر الله لأنه مهد كل هذا بطريقة غير مرئية لك .
7 ــ وأحياناً نحن لا نشكر ، بسبب أنانيتنا ...
لا نفكر إلا في ذاتنا ، فإن أخذت ، تكون قد اكتفت ، ولا تفكر في اليد التي أعطتها . كإنسان جائع ، يوضع أمامه طعام ، فيأخذ في التهامه ، دون أن يفكر قيمن قدمه له ، أو في شكره على ذلك .
كذلك نحن ننشغل بذواتنا في أخذها ، دون أن نتطلع إلى وجه المعطي . كإنسان فتح له الله أبواب الرزق ، فتراه ينشغل بالرزق ، وبجمعه وتكويمه وإنمائه ، ولا يتفرغ ولو لحظة لكي يشكر من وهبه الرزق .
8 ــ ونحن العطية : وننسي المطعي ، وننسي الشكر ، ولو دربنا أنفسنا على الشكر ، لكان هذا التدريب يحفر في ذاكرتنا أشياء لا ننساها :
منها إن كل خير نعيش فيه هو عطية من الله : الحياة والصحة ، والعمل والمال ، وكل شئ ... ومادام هو عطية إذن فلنشكر معطيها .
9 ــ واحياناً لا نشكر بحجة أن ما نشكر عليه هو من الأمور الذاتية الشخصية ...
وهنا نخلط بين الذات والمواهب ... فأنت تفكر حسناً ، ولا تشكر على موهبة التفكير التي وهبك الله أيضاً حقاً منحك الذكاء والفهم . ولكنك لا تقول مع المرتل " مبارك الله الذي أفهمني " .
لا تظن أن الذكاء شئ ذاتي . إنه موهبة من الله تحتاج إلى شكر . وكذلك موهبة أخري كالشعر والموسيقى والجمال والقوة ...
وكذلك كل حياتك الروحية ...
10 ــ وأحياناً لا نشكر ، لأننا لا ندرك حكمة الله ...
أمور كثيرة تمر بنا ، ولا نشكر عليها ، بل على العكس قد نتضايق منها ، أو نتذمر بسببها . وكل ذلك لا ندرك حكمة الله فيها . ولو أدركناها لشكرنا الله كثيراً .
العيب فينا إذن . لنا عيون ولكنها لا تبصر الخير في كل ما يمر بنا من أحداث ومن أمور ...
إن بيع يوسف الصديق وإلقاءه في السجن ، كان وراءه خير ، ربما لم يره يوسف في ذلك الحين ولم يشر عليه إلا بعد أن تم ...

11 ــ وأحياناً نحن لا نشكر على خير ، بسبب المقارنة ...!
لا نشكر على ما أعطانا الله ، لأننا نرى أن غيرنا عنده أكثر منا ، أو ما هو أفضل ... أو لأن غيرنا أخذ مثلنا وهو لا يستحق ...
مثال ذلك : موظف في شركة يتقاضى مرتباً ما كان يحلم به ، وهو أضعاف أضعاف مرتبات بعض زملائه في وظائف عادية . ومع ذلك تراه لا يشكر الشركة ، لأن بعض موظفيها يأخذون مرتبات أكثر منه ...! وبالتالي لا يشكر الله ...
قارن نفسك بمن هو أقل منك ، فتشكر الله . ولا تقارن نفسك بمن هو أعلى ، لئلا تتذمر .
كإنسان مليونير لا يشكر الله ، لأن هناك من هو أكثر منه الملايين ، كلما قارن نفسه به ، يتضايق ، ويشعر أن ما عنده قليل وتافه ، ولا يستحق الشكر إطلاقا . وهذا يقودنا إلى نقطة متشابهة وهي :
12 ــ هناك من لا يشكر ، بسبب الطموح : باستمرار له تطلعات أعلى من مستواه ، وله رغبات أكثر مما في يديه ، وكلما اتجه إلى هذا الطموح ، استصغر ما عنده ، واصبح لا يشكر عليه .
والطموح في حدود الاعتدال ، وفي عدم شهوة العالم ليس هو خطية ولكن ...
ولكن الطموح لا يمنع الشكر . اشكر الله على ما معك ، فيعطيك أكثر . كذلك لا يجوز أن الطموح يجعلك تحتقر ما وهبك الله إياه . فإن كنت تطمح أن تكون استاذاً في الجامعة ، فليس معنى هذا أنك لا تشكر الله الذي جعلك في هيئة التدريس ، وساعدك على الوصول إلى درجة استاذ مساعد ...
كثيرون هم ضحايا الطموح الخاطئ ، وبسببه ينسون احسانات الله ، ويعيشون في حزن وتذمر !
أما الطموح الروحي فليس له ضحايا ، إن عاش أصحابه في حياة ألا تضاع شاكرين الله ، وراغبين في الامتلاء من حبه ...
13 ــ وأحياناً البعض لا يشكر ، لأن من طباعة التذمر ، أو الجشع ، أو محبة العالم ...
وهؤلاء يعيشون في الخطية ، وليست لهم صلة بالله ، ولا يعترفون بفضله عليهم . إنما كل همهم هو متعة العالم . وكما قال الكتاب " كل الأنهار تجري إلى البحر . والبحر ليس بملآن " (جا1 : 7) .
افرح بما في يديك ، واشكر الله . ولا تقل : ملء يدي لا يكفى . أريد أيضاً امتلاء جيوبي وخزانتي !
لأن الطمع ، يمنع الشكر ، بلا شك وإن لم يتعود الإنسان حياة القناعة ، فمن الصعب عليه أن يصل إلى حياة الشكر ...
14 ــ وأحياناً يكون عدم الشكر ، بسبب ضعف الحياة الروحية كلها .
فهذا الإنسان لا يشكر الله مثلاً ، لأنه لا علاقة له بالله إطلاقا ، لأنه لا علاقة له بالله اطلاقاً . فلا شكر ، كما أنه لا صلاة ، ولا قراءة كتاب ، ولا حضور اجتماعات روحية ، ولا شركة مع الله في شئ .
ويحتاج هؤلاء إلى أن يدخلوا في الحياة مع الله . وحينئذ ، حينما يشكرون الله الذي أعطاها فضل معرفته ، سيشكرونه على باقي الأمور .

فضائل تنطق بالشكر

إن الفضائل يرتبط بعضها بالبعض الآخر ، كما أن الخطايا ترتبط ببعضها البعض . فالشكر يرتبط بالقناعة . والذين يعيشون في القناعة دائماً يشكرون .
والشكر يرتبط بالتواضع . فالإنسان المتواضع يشعر أنه لا يستحق شيئاً ، لذلك يشكر على كل شئ مهما كان قليلاً .
والشكر يرتبط بالإيمان . فالإنسان بالإيمان يثق أن الله حافظ ومعين ومحب . وأنه يحول كل شئ إلى خير . لذلك يشكر على كل شئ .
والشكر يرتبط بالفرح والسلام . إنهما وليدان له . فكلما يشكر يمتلئ قلبه سلاماً وفرحاً . وكذلك إن كان في قلبه سلام وفرح ، فحينئذ سيشكر .
والإنسان الشاكر ، بالشكر ينجو من أمراض ومشاكل كثيرة تحيط بالمتذمرين غير الشاكرين .
فلنبدأ هذا العام بالشكر . وليكن عاماً سعيداً لنا ، ولكنيستنا ووطننا . وكل عام وجميعكم بخير .

الفصل الثاني عشر

الباب الضيق

الباب الضيق .
ما هي هذه الضيقات ؟
إنكار الذات .
التعب من أجل الرب .
الباب الضيق للكل .
تقييم الضيق .

الباب الضيق

من علامات الطريق الروحي أن تدخله من الباب الضيق . وهذا هو تعليم الرب نفسه :

" ادخلوا من الباب الضيق ... ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه " (متى7 : 13 ، 14) .

إذن من علامات الطريق أن تتعب من أجل الرب . وأن تبذل . وأن تحتمل ، ولا تبحث عن راحتك هنا ... وأن تسلك في طقس لعازر المسكين . وليس زميله الغني ...

والضيقات التي تحتملها هي علامة على أنك جاد في محبة الله . وأنك مستعد لبذل كل شئ لأجله

حياتك كلها على الأرض هي مجرد اختبار لك : هل أنت تفضل رو حياتك وأبديتك وعلاقتك بالله على كل شئ آخر ؟ وهل أنت مستعد أن تدفع الثمن ؟ هنا تبدو الضيقة كاختبار لك في مدي تمسكك بالرب وهنا تبدو الضيقة كضرورة اختباريه وكعلامة أساسية في الطريق الروحي . لأنه بأي حق تكأفأ في السماء وتنال الأكاليل ؟ .. إن كنت قد عشت في نعيم على الأرض . وتريد أن تنال الحياتين معاً على الأرض ومتعة السماء !! أليست تتعرض بذلك لقول أبينا إبراهيم " أنك استوفيت خيراتك في حياتك " (لو16 : 25) .

لذلك إن سلكت في طريق الله ، ووجدت كل شئ سهلاً أمامك ، وأنت في راحة دائمة ، بلا ضيقات ولا تعب ، اسأل نفسك : هل أنا قد ضللت الطريق ؟!

قطعاً أكون قد ضللت لأن طريق الرب ليس هكذا سهلاً وبلا تعب . ألا يوجد شيطان يحارب ؟ ألا توجد عوائق من العالم ومن المادة والجسد ؟ ألا توجد مقاومة من أعداء الخير ؟!

من غير شك لو كانت تصرفاتي لا تعجب الشيطان ، ما كان يتركني مطلقاً في راحة ! إذن لماذا هو ساكت عني ؟!

إنها مسألة تدعو إلى شك ..! ثم من من القديسين عاش حياته كلها في راحة وبلا تعب ؟ لا أحد على الإطلاق . كل القديسين قد دخلوا من الباب الضيق من أجل محبتهم لله " ووهب لهم لا أن يؤمنوا به فقط ، بل أن يتألموا أيضاً من أجله " (في1 : 29) .

لذلك فإن هذه الضيقات والآلام إنما تهمس في أذنك قائلة : اطمئن .. أنت سائر في الطريق السليم وهكذا تفرح وتسر وتطمئن كلما رأيت ضيقة في طريق الرب . لأنه هكذا هي علاماته ... ولكن :

ما هي هذه الضيقات

هي أولاً مقاومة هذا الجسد المادي لرغبات الروح " لأن الجسد يشتهي ضد الروح ، والروح ضد الجسد " (غل5 : 17) .

وهكذا يدخل الإنسان الروحي في صراع لإخضاع الجسد . وكما قال القديس بولس الرسول : " أقمع جسدي واستعبده " (1كو9 : 27) ... وهذا القمع قد يطول عند البعض وقد يقصر . حسبما تكون حربة قوية أو ضعيفة ...

إخضاع الجسد باب ضيق تدخل منه ، ولا تداريب روحية كثيرة ...

ولعلنا نذكر أن أبوينا الأولين آدم وحواء لم يدخلا من هذا الباب حينما أكلا من الشجرة . وعيسو أخو يعقوب لم يدخل من هذا الباب حينما باع بكوريته (تك25 : 34) .. وكذلك رفض بنو إسرائيل الدخول من هذا الباب حينما تذمروا على الطعام السمائى واشتهوا أن يأكلوا لحماً . (عد11 : 4) .
وعكس كل هؤلاء أفلح دانيال النبي حينما وضع في نفسه أن لا تنجس بأطياب الملك وفضل أن يأكل القطاني هو والثلاثة فتية (دا1 : 8 ، 12) .
لهذا دخل الروحيون في تداريب الصوم ــ أيضاً في تدريب السهر ، بالصوم قاوموا شهوة الجسد في الأكل ، وبالسهر قاوموا شهوته في الراحة والنوم . وحفظوا أنفسهم ساهرين في عمل الصلاة والتأمل.
ولم يقتصروا في الصوم على مظهرياته . وإنما اهتموا قبل كل شئ بإخضاع الجسد .، لكي يشترك مع الروح في عملها .
واشركوا الجسد في عمل الروح القدس أيضاً بالمطانيات " السجود المتتابع " لكي يخشع الجسد كما تخشع الروح ويشترك معها في الخضوع لله وتمجيده وهكذا يقدم العبادة لله . الإنسان كله روحاً وجسداً

ومن أهم النقاط في إخضاع الجسد الحفاظ على طهارته وعفته .

إن الذين يسلكون في شهوات الجسد إنما يدخلون من الباب الواسع باب المتعة الجسدية التي قال فيها سليمان " ومهما اشتهيته عيناي لم أمنعه عنهما " (جا2 : 10) .. هذه المتعة التي يرفضها الروحيون ، وهم يقاومون حتى الدم مجاهدين ضد الخطية (عب12 : 4) .

وفي إخضاع الجسد ، مما يقاومه الروحيون أيضاً : متعة الحواس ...

الحواس التي تريد أن تشبع رغباتها في النظر والسمع والمذاق ... فيكبح الروحي جماحها . ويسيطر عليها . ويتحكم فيها . وهكذا يجاهد . ولا يعطي الجسد راحته . بل كما قال الرسول : " كل من يجاهد ، يضبط نفسه في كل شئ " (1كو9 : 25) . وضبط النفس هو دخول من الباب الضيق . فالشخص العادي يحاول أن يمتع نفسه . أما الإنسان الروحي فإنه يراقب هذه النفس . ويضبطها حسناً . ويقمع جسده ويستعبده . وكذلك نفسه . ولا يستسلم لرغباتهم ولا لشهوات الجسد .
فالرسول قد اعتبر شهوة الجسد جزءاً من محبة العالم (1يو2 : 16) ومحبة العالم عداوة لله (يع4 : 4) . إذن فمن علامات الدخول من الباب الضيق . كبح شهوات الإنسان حتى لا تنحرف والدخول إيجابياً في محبة الله وشهوة ملكوته . وإعداد الجسد بما يليق كهيكل للروح القدس (1كو6 : 19) .
وماذا أيضاً من علامات الباب الضيق ؟ ...

إنكار الذات

قال السيد المسيح في ذلك .. إن أراد أحد أن يأتي ورائي . فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني .. (متي16 : 24) .

يضع الله أولاً ، في قمة اهتمامه . والناس ثانياً . ونفسه آخر الكل .

لاشك أنه باب ضيق أن ينكر الإنسان نفسه ويتجاهلها في كل شئ . يحتمل اللطمة على خده . فيحول الآخر .. وإن سخره أحد ميلاً . يمشى معه ميلين . وإن أراد أحد أن يخاصمه ويأخذ ثوبه . يترك له الرداء أيضاً (متى5 : 39 ــ 41) .

إن احتمال الإساءة والمغفرة للمسيء ربما لا تكون أمراً سهلاً على كثيرين فكم بالأولي تكون محبة الأعداء والإحسان إلى المبغضين (متى5 : 44) .

الإنسان الروحي يحتاج أن يحتمل كل شئ . ويتنازل عن أشياء كثيرة ويرتقع فوق المستوي العادي ويبغض نفسه من أجل الرب الذي قال ... من يهلك نفسه من أجلي يجدها .. (متى16 : 25) .
إن الأمر ليس سهلاً على المبتدئ في الطريق الروحي . وقد يتضايق أولاً إلى أن يدرب نفسه على الحب الكامل . وما أصدق قول الكتاب :

" بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله .. " (أع14 : 22) .

يحتاج من يسير في طريق الله أن يصعد على الصليب باستمرار ، حسبما قال الرب " يحمل صليبه ويتبعني " . وفي هذا قال القديس بولس الرسول " مع المسيح صلبت ، لكي أحيا لا أنا بل المسيح يحيا في " (غل2 : 20) .

ما أعمق عبارة " لا أنا " ... لا يستطيع أن يقولها إلا الذي دخل من الباب الضيق ...

على الذي تدرب أن يختفي دائماً لكي يظهر الرب ، ولكي يظهر باقي الناس .

ويقول " لا أنا " أيضاً الإنسان المتواضع الذي في كل موقف يصر أن يكون آخر الكل وخادم الكل ، ويجلس دائماً في المتكأ الأخير ، كما قال الرسول " مقدمين بعضكم بعضاً في الكرامة " (رو12 : 10) .

يقول " لا أنا " الإنسان الوديع المتواضع ، الذي يكون مقتنعاً تماماً داخل نفسه أنه لا شئ ...!

ومن يقدر على هذا إلا الذي يدخل باستمرار من الباب الضيق .. لا يقيم رأيه في أمر من الأمور ، وعلى فهمه لا يعتمد " (أم3 : 5) .

يفضل غيره على نفسه في كل شئ ويضع تحت الكل .. لا يقاوم ولا يكون حكيماً عند نفسه .. (رو12 : 16) . ويدين نفسه لكي يبرئ غيره . يحمل خطايا الآخرين . ليكونوا هم أبرياء وهو المذنب . وفي عمق محبته يفدي الكل كما فعل المسيح .

وماذا عن الباب الضيق أيضاً ؟ إنه يشمل بلا شك ...

التعب من أجل الرب

يتعب في تنفيذ الوصايا التي قد تبدو صعبه في تنفيذها ...

ويتعب من أجل راحة الآخرين : ولنأخذ مثلاً لذلك موسى النبي : كان من السهل عليه جداً أن يبقي في بيت فرعون كأمير يتمتع بالجاه والغني والمركز . ولكنه حسب عار المسيح غني أفضل من جميع خزائن فرعون ... وماذا أيضاً ؟ إنه .. " فضل أن يذل مع شعب الله ، عن أن يكون له تمتع وقتي بالخطية " (عب11 : 25) .

وكنبي وراع . تعب كثيراً في قيادة شعب صلب الرقبة . واحتمل من هذا الشعب التذمر والعصيان . وحمل هذا العبء زماناً طويلاً بصدر رحب يحتمل أخطاء الآخرين .

كل الأنبياء ، وكل الرعاة والخدام تعبوا من أجل الرب .

إننا نمجدهم الآن . ولكنهم في عصرهم عاشوا في ضيقات مريرة ، خذوا مثالاً لذلك القديس أثناسيوس الرسولي الذي دافع عن الإيمان بقوة وبفهم عميق .. قيل له في بعض الأوقات " العالم كله ضدك يا أثناسيوس " .

وخذوا مثالاً آخر هو القديس بولس الرسول بالنسبة إلى باقي الرسل " في الأتعاب أكثر في الضربات أوفر .. في السجون أكثر . في الميتات مراراً كثيرة ... في تعب وكد ، في أسهار .. في جوع وعطش . في أصوام مراراً كثيرة ، في برد وعري ... (2كو11 : 23 ــ 27) .

وقال هذا القديس عن نفسه وعن زملائه في الخدمة وفي الضيق :

" في كل شئ نظهر أنفسنا كخدام الله ، في صبر كثير ، في شدائد في ضرورات في ضيقات في ضربات ، في سجون في اضطرابات ، في أتعاب في أسهار في أصوام بمجد وهوان ، بصيت رديء وصيت حسن " (2كو6 : 4 ــ 8) ... " مكتئبين في كل شئ لكن غير متضايقين .. متحيرين لكن غير متروكين .. حاملين في الجسد كل حين أماته الرب يسوع " (2كو4 : 8 ــ 10) .

وهنا ملاحظة نريد أن نسجلها وهي أن قاعدة " الباب الضيق " هي للكل ، لكل مؤمن مهما علا مركزه

الباب الضيق للكل

حتى القديسة العظيمة مريم اطهر أهل الأرض كلها . دخلت هي الأخرى من الباب الضيق . فعاشت في يتم وفي فقر : وولدت إبنها في مزود بقر . وتغربت عن بلادها ... وتحملت الآلام الكثيرة وهي تري إبنها وحيدها مظلوماً من الناس . ومصلوباً وهو القدوس الكامل . وتحقق فيها قول سمعان الشيخ " وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف " (لو2 : 25) وكما جازت العذراء في الضيقة ، اجتازها أيضاً القديس يوحنا الرسول أحب تلاميذ الرب إليه . سجن وجلد مع باقي الرسل ونفي .

وكل الشهداء والمعترفين دخلوا هم أيضاً من الباب الضيق ، لذلك رفعتهم الكنيسة فوق كل القديسين . وفي كل عذباتهم والآمهم برهنوا على عمق محبتهم للرب فكافأهم في كوره الأحياء بمكانه أعلي من أن توصف .

تقييم الضيق

إن الله لا ينسى مطلقاً أي تعب أو ضيق يحتلمه مؤمن من أجله .
إنه يقول حتى لملاك كنيسة أفسس الذي ترك محبته الأولي : " أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك .. وقد احتملت ولك صبر ، وتعبت من أجل أسمي ولم تكل " (رؤ2) وبقدر ما يتعب الإنسان هنا على الأرض ، تكون مكافأته في الأبدية السعيدة كما قال الرسول : " إن خفة ضيقتها الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر مجد أبدياً " (2كو4 : 17) . وقال أيضاً " إن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا " (رو8 : 18) .
لهذا كان الذين لا صادفهم ضيق من أجل الرب ، يضيقون هم على أنفسهم ، في جهادهم من أجله ومن عملهم الروحي .
نقطة هامة أخرى أقولها عن الباب الضيق وهي : أن الباب الضيق قد يكون ضيقاً في أوله فقط ، ثم ما يلبث الإنسان الروحي أن يتعوده ويجد فيه لذة روحية .

الفصل الثالث عشر

رحلة نحو الكمال

النمو الكمال

عوائق النمو

1 ــ حروب الشياطين .
2 ــ البيئة المعطلة .
3 ــ الاكتفاء في الروحيات .
4 ــ الإرشاد الخاطئ .
5 ــ التقليد الخاطئ .
6 ــ الكبرياء .
7 ــ تدبير النعمة .
8 ــ التحول إلى الإداريات .
9 ــ الاهتمام بالفضائل الظاهرة .

النمو والكمال

يظن البعض أنهم قد وصلوا إلى الله حينما يتركون الخطية ، ويسيرون في الطريق الروحي .

ولكن ترك الخطية ، إنما يمثل فقط الجهاد السلبي في الحياة الروحية ، فماذا إذن عن الإيجابيات ؟ .. إنها طريق طويل ...

لذلك فالحياة الروحية لا تقف مطلقاً عند حد . إنها سائرة باستمرار . تنمو في كل حين وتتقدم . وهكذا تكون حياة النمو هي إحدى خصائص ومعالم الطريق الروحي ...

بماذا شبهها السيد المسيح ؟ إنه يشبه ملكوت السموات بإنسان " يلقي البذار على الأرض ، وينام ويقوم ليلاً ونهاراً ، والبذار يطلع وينمو ... أولاً نباتاً ، ثم سنبلاً ، ثم قمحاً ملآن في السنبل " (مر4 : 26 ــ 28) .

وهكذا شبه الإنسان الروحي بالشجرة التي تنمو باستمرار ولا تتوقف لحظة واحدة عن النمو ...

والشجرة تنمو بطريقة هادئة ، ربما لا تلحظها وأنت تمر عليها كل يوم . ولكنها تنمو باستمرار ، ويظهر نموها بعد حين ... وقد قيل " الصديق كالنخلة يزهو . كالأرز في لبنان ينمو " (مز92 : 12) .

إنه ينمو في كل عناصر الحياة الروحية ، ينمو في معرفة الله وفي محبته . وينمو في حياة النقاوة وفي الصلاة والتأمل .

ونلاحظ هنا ملاحظة هامة وهي :

الذي لا ينمو ، هو عرضة للفتور ، بل عرضة لأن يرجع إلى الوراء .

إنه كالسيارة التي طالما هي سائرة تكون محتفظة بحرارتها . فإن وقفت ، وقفت حرارتها أيضاً . كذلك السير في الحياة الدائم في الحياة الروحية ، يعطي حرارة للقلب ، تشمل كل العلاقة مع الله والناس .

ولكن إلى أين يمتد الإنسان الروحي في نموه ؟ إنه يمتد نحو القداسة ، كما قال القديس بطرس الرسول :

" كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة " (أف1 : 4) .

المسألة إذن ليست مجرد توبة ، وإنما هي حياة قداسة تليق بالمؤمنين . بل إن كلمة قديس كانت تطلق على المؤمنين في العصر الرسولى ، كما يقول بولس الرسول في آخر رسالته إلى فيلبي التي كتبها من رومه :

" سلموا على كل قديس في المسيح يسوع ... يسلم عليكم جميع القديسين ولاسيما الذين من بيت قيصر " (في4 : 21 ، 22) .

فهل أنت تعيش في هذه القداسة ، واصبحت عضواً مع جميع القديسين ؟ أم مازلت تقوم وتسقط ، وتتردد بين الحياة مع الله والحياة مع العالم ؟ .

إن القداسة ليست معينة لأفراد قلائل في القمة ، إنما هي هدف الجميع " مكملين القادسة في خوف الله " (2كو7 : 1) . لأنه " هذه هي إرادة الله : قداستكم " (1تس4 : 3) .

وفي عظة الرب على الجبل ، اشترط النقاوة لكي تري الله في الأبدية ، فقال :

" طوبى لأنقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله " (متي5 : 8) .

فهل وصلت إلى نقاوة والقداسة التي بدونها لا يعاين أحد الرب ؟ .

ولعلنا نقول هنا أيضاً إن القداسة وحدها لا تكفي ، بل لابد من النمو أيضاً في القداسة حتى يصل الإنسان الروحي إلى الكمال .

والمقصود طبعاً هو الكمال النسبي ، لأن الكمال المطلق هو لله وحده . إنما الكمال النسبي هو الكمال الذي يستطيع الإنسان أن يصل إليه في حدود إمكانية ونسبة إلى ما وهبة الله له من نعمة ، وما تحيط به من ظروف . وعن هذا الكمال قال الرب :

" كونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل " (متى5 : 48) .

إذن يلزمك في حياتك الروحية ، أن تنمو في النقاوة والقداسة حتى تصل إلى الكمال إلى كمال قدرتك ، إلى كمال السيرة حتى تعود إلى الصرة الإلهية التي سبق الله فخلقك عليها (تك1 : 27) .

ولكن من هذا الذي يستطيع أن يصل إلى الكمال ؟ .

إن كنت لا تستطيع ، فمهما فعلت ومهما جاهدت في حياة الروح ، قف أمام الله كخاطئ ومقصر ، لأنك مطالب بالكمال بينما أنت بعيد عنه هذا البعد .

ولهذا عندما كان القديسون يقولون عن أنفسهم إنهم خطاة ، لم يكن ذلك منهم نوعاً من المبالغة أو من التواضع إنما قالوا ذلك لشعورهم بالتقصير أمام الكمال المطلوب ...

ولما كان الكمال غير محدود ، لذلك كان النمو الروحي ، غير محدود أيضاً .

لقد شبهت فيه الإنسان الذي يسعى إلى الكمال ، بإنسان يطارد الأفق ...

يقف فيرى أمامه بعيداً ، حيث تنطبق أمامه السماء على الأرض . فيذهب إلى هناك ، فيرى أمامه عند النهر ، فيذهب إلى النهر ويعبره ، ليره الأفق أمتد إلى الجبل ... وهكذا إلى غير نهاية ...

مادام الأمر هكذا ، فتأمل إذن قول الرب في الإنجيل :

" متي فعلتم كل ما أمرتم به ، فقولوا إننا عبيد بطالون " (لو17 : 10) .

وقد أمرنا في الكتاب بوصايا عديدة جداً لم نفعلها حتى الآن ... وحتى إن كنا قد نفذنا جميع الوصايا ، فواجب أن نقول إننا عبيد بطالون " إننا إنما عملنا ما كان يجب علينا " (لو17 : 10) ، ولم نتجاوزه إلى الكمال ...

صدقوني أن درجة [عبيد بطالين] هي درجة كبيرة لم نصل إليها بعد .

لاشك أن الطريق طويل أمامنا ، ولم نسر فيه شيئاً . ونحن محتاجون بكل أتضاع القلب أن نبدأ .

وهناك آية أخري في الكتاب وقفت أمامها منذهلاً ، وهي قول القديس بولس الرسول في رسالته إلى أفسس " وأنتم متأصلون ومتأسون في المحبة ، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو " .

" وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة ، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله " (أف3 : 18 ، 19) .

يعلم الله أنني لا أزال وقفاً أمام هذه الآية منذهلاً ، لم أصل بعد إلى شئ من أعماقها العجيبة . وسأحاول أن ارجع إلى تأملات الآباء فيها ، لعلى أعرف . فإن وصلت إلى شئ سأخبركم لأن ههنا الروح يعمل ، وليس العقل ولا الفكر ...

هذا الامتلاء ، من ذا الذي يمكنه أن يصل إليه ؟ ... مطلوب منا جميعاً ، كما يأمرنا الرسول قائلاً في نفس الرسالة " امتلئوا بالروح " (أف5 : 18) .

لقد قال في موضع آخر " اسلكوا بالروح " (غل5 : 16) . ودعانا أن نكون لنا ثمار الروح (غل5 : 22) . ولكن هنا درجة أكبر يجب أن نصل إليها في نمونا وهي الامتلاء بالروح ...

إذن فالطريق طويل أمامنا ، ويحتاج إلى جدية كبيرة للسير فيه .

يحتاج الإنسان الروحي أن يجتاز مرحلة التوبة ، إلى مراحل النقاوة والقداسة ، إلى الدخول في العلو والعمق ، وإلى معرفة المسيح الفائقة المعرفة . وينتقل من السلوك بالروح ، إلى كل ثمار الروح ، إلى الامتلاء بالروح ... إلى الكمال ...

لهذا نري القديس بولس الرسول يقول : **" ليس أني قد نلت أو صرت كاملاً ولكني اسعي لعلي أدرك " (في3 : 12) .**

بولس الرسول الذي صعد إلى السماء الثالثة ، إلى الفردوس (2كو12 : 4) الذي تعب أكثر من جميع الرسل الأثنى عشر ، وسافر وبشر وكتب أربع عشرة رسالة ، وألقى في السجون وتعذب من أجل الرب ، وصنع آيات كثيرة ، وكانت له كثرة من الاستعلانات ، وتكلم بألسنة أكثر من الكل ، يقول أخيراً " لست أحسب أنني قد أدركت . ولكنني أفعل شيئاً واحداً " ونسأله ما هو فيجيب :

" أنسي ما هو وراء ، وأمتد إلى ما هو قدام ... " (في3 : 13) .

ينسي كل هذه المواهب الفائقة ، وينسي كل هذا التعب في الخدمة ، وينسى اختطافه إلى السماء الثالثة ، ويسعى نحو الغرض ، يسعى لعله يدرك ... يدرك ماذا يدرك " جعاله دعوة الله العليا في المسيح يسوع " (في3 : 14) . يدرك هذا الامتلاء العجيب ...

لذلك فإنه ينصحنا قائلاً **" اركضوا لكي تنالوا " (1كو9 : 24) .**

ويقول معنا " وأنا أركض هكذا " (1كو9 : 26) . ويقول أيضاً " فليفتكر هذا جميع الكاملين منا " (فى3 : 15) .

إذن هي دعوة ليست للأشخاص العاديين فقط ، بل للكاملين أيضاً ... دعوة للجميع أن يسعوا نحو الغرض ، لكي يدركوا ...

هناك درجة أخرى موضوعة أمامنا . كأولاد لله ، وكلنا ندعي أننا أولاد الله يقول القديس يوحنا الرسول :

" كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية ... ولا يستطيع أن يخطئ ، لأنه مولود من الله " (1يو3 : 9) .

ويقول في ذلك أيضاً " كل من ولد من الله لا يخطئ ، بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه " (1يو5 : 18) .

فهل وصلت إلى هذا المستوي الذي لا يستطيع فيه أن تخطئ ، والشرير لا يمسك ؟ هنا مستوي خاص ، ليس هو مقاومة الخطية والجهاد معها والانتصار عليها ، إنما مستوي إنسان قديس لا يستطيع أن يخطئ ...

من وصل إلى هذا الكمال ؟

ومع ذلك لا أريد فقط أن أقدم لك مستويات العهد الجديد بكل ما تحمل من سمو ، إنما انتقل بك إلى وصية في العهد القديم وهي :

" تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل قوتك " (تث6 : 5) .

من ذا الذي قد وصل إلى محبة الله من كل القلب . وعبارة [كل] تعني أنه لا يوجد في القلب شئ سوي الله ... لا توجد أية محبة أخري في القلب تنافس محبة الله . ولا شك أن هذا يعني الموت الكامل عن العالم ، ويعني التجرد ، وامتلاء القلب بمحبة الله ...

فهل بدأت هذا الطريق ؟ .

هل بدأت بمخافة الله التي هي الخطوة الأولي الموصلة إلى المحبة ؟

وذلك كما يقول الكتاب " بدء الحكمة مخافة الرب " (أم9 : 10) . ومخافة الرب تعني طاعته والخضوع لوصاياه . بهذا تصل إلى الله وتدخل إلى ملكوته . يقول الكتاب في هذا : " ملكوت الله داخلكم " .

فهل تشعر بهذا الملكوت داخلك ؟ وهل بدأت حالياً بمذاقة الملكوت ؟ هل أخذت عربونه في حياتك الحاضرة ، حتى تتمتع بملئه في العالم الآخر ؟ .

ابدأ إذن بمذاقة الملكوت .

وحينما تصلي وتقول " ليأت ملكوتك " اطلب أن يأتي ملكوته على كل قلبك وكل فكرك ، وعلى حواسك وجسدك ومشاعرك . وحينئذ تغني تقول " الرب قد ملك " (مز96) .

ولكن لعلك تسأل بعد كل هذا ؟ ماذا أفعل والطريق طويل أمامي ؟

الأمر لا يأتي باليأس ولا بالحزن ، ولا بعبارة [إذن لا فائدة مني] ...

كل هذه حيل من الشيطان ، يريد بها أن يوقعك في صغر النفس ، حتى تبطل الجهاد يائساً ، أو تشعر الحياة مع الله . إنما أهم نصيحة توجه إليك هي :

إن أطول طريق أوله خطوة . ابدأ إذن بهذا الخطوة .

ابدأ بهذه الخطوة ، مهما كانت قصيرة ، ومهما كانت ضعيفة ، ومهما كانت فاترة . وحينئذ عندما يري الله رغبتك في الحياة معه ، سيرسل لك معونات إلهية من عنده ، وتفتقدك نعمته ، ويعمل فيك روحه القدوس بكل قوة .

والله الذي عمل في القديسين وأوصلهم هو قادر أن يعمل فيك ...

لكن نعمة الله ليست تشجيعاً لك على الكسل ، وعلى التهاون والإهمال إنما هي تعمل معك . وبهذا تدخل في شركة مع الله ، في العمل لأجل ملكوته ... ملكوته فيك وفي غيرك .

الله قادر أن يرفعك دفعة واحدة ، كما فعل مع بعض قديسي التوبة ...

كما عمل مع أوغسطينوس ، الذي نقله من عمق الخطية ، إلى عمق التأمل في الإلهيات ، وإلى عمق محبة الله ...

وكما عمل مع مريم القبطية التي أخذها من الدنس إلى الرهبنة وإلى السياحة فصارت من القديسات العظيمات .

وإن أراد لك الله التدرج في حياة الروح ، فلتكن مشيئته .

هكذا فعل مع القديس موسي الأسود إذ قاده تدريجياً إلى التوبة . وبالتدريج منحه الفضائل الروحية . ونزع منه قساوة القلب ، ومنحه محبة لجميع الناس ، ووداعة عجيبة . وتواضع قلب وصار إنساناً آخر .

المهم إذن أن تقدم قلبك لله ، لكي يملأه الله بمحبته .

قل له : أنا يارب غير قادر أن أصل إلى محبتك ، إذ توجد محبات أخرى عالمية ومادية وجسدية تجتذبني وأنا ضعيف أمامها . لذلك أريد أن تمنحني محبتك كعطية مجانية من عندك كمجرد هبة ، كما يقول الرسول :

" لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطي لنا " (رو5 : 5) .

وفي نفس الوقت الذي تطلب فيه أن يعمل الله معك ، اعمل أنت أيضاً معه ، أعمل بكل ما تستطيع ، ولا تكسل مطلقاً في روحياتك ، وكن جاداً . افتح قلبك لكي يملأه الله . واحرص ألا تفتحه لمحبة خاطئة .

وابعد بكل جهدك عن كل ما يبعدك عن الله ...

والقليل الذي تقدمه إلى الله ، سيقبله كما قبل فلسي الأرملة ، ويكون عزيزاً عنده .

إن الله يعرف تماماً مقدار إمكانياتك ولا يطالبك بأكثر ، تصل بها إلى أعماق أكثر .
وهكذا يقودك خطوة خطوة إلى حيث يريد لك بنعمته . لا تنظر إذن إلى نهاية الطري وتيأس . إنما أنظر إلى هذا الخطة الواحدة ، كيف تخطوها حسناً ...

وكلما كنت أميناً على القليل ، سيقيمك الله على الكثير ، حسب وعده الصادق .

أما كيف تكون أميناً في القيل ، فهذا ما أود أن أحدثك عنه بالتفصيل في مناسبة أخري إن شاء الله .

عوائق النمو

تكلمنا في المقال السابق عن النمو في الحياة الروحية ، ولزومه ، وكيف أنه علامة مميزة للسير السليم في الطريق الروحي .
وقلنا في هذا المجال إن النمو الروحي هو مرحلة إلى الكمال .
ويهمنا الآن أن نسأل :

هل كل إنسان ينمو في روحياته ؟ وهل كل نمو روحي يستمر ؟

الواضح تماماً أن النمو يتعطل أحياناً بالنسبة إلى كثيرين ، فيتوقفون عند درجة معينة في حياتهم الروحية . بل ربما يرجعون أحياناً إلى الوراء . فما هو السر في كل هذا ؟ وما هي العوائق التي تقف أمام النمو الروحي .

العوائق تختلف من شخص لآخر .

ولكننا سنحاول في هذا المقال أن نتحدث ن كثير من العوائق العامة التي تقف في طريق النمو . ونذكر منها .

١- حروب الشياطين

إن الشيطان لا يقف ساكناً إن وجد إنساناً يمتد إلى قدام باستمرار في طريقة الروحي ، فلابد أن يقف ضده .

ويسمى هذا أحياناً حسد الشياطين .

إنهم يحسدون الذين يتقدمون في محبة الله ، لأنهم أي الشياطين قد فقدوا هذه الصلة الجميلة بالله ، وفقدوا ملكوته .
لهذا فإنهم يحاربون ليس فقط النمو الروحي ، إنما الطريق الروحي كله . لذلك يقول سفر يشوع بن سيراخ .

يا ابني تقدمت لخدمة ربك ، فهيئ نفسك لجميع التجارب ...

والكنيسة تورد هذا الفصل وهذه الآية في طقس سيامة الراهب ، لأن الداخل في حياة الرهبنة ، إنما يحاول أن يبدأ في حياة الكمال .
وكذلك ترتب الكنيسة هذا الفصل في صلاة الساعة الثالثة من يوم ثلاثاء البصخة ، لأن السيد المسيح مقدم على إكمال عمل الفداء العظيم ، وداخل في عمق التجارب ...
لذلك فكثيراً ما يسير الإنسان الروحي ، بكل ما يملك من جهد ، وبكل عمل النعمة فيه ، وينتصر ويستمر نموه . والبعض يحوز في هذا الحروب ويضعف ، ولا يستطيع أن يتقدم أكثر في نموه ...
إن الشيطان لما وجد عمل الفداء قد أوشك أن يتم ، أثار عنف حروبه على التلاميذ ، فقال لهم السيد المسيح .

" هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة " (لو22 : 31)

وفي تلك الغربلة وقف النمو الروحي للتلاميذ ، بل رجع غالبيتهم إلى الوراء ! وأمثال هذه الغربلة أو هذه الحروب مرت على كثير من القديسين والأنبياء ، لأن الشيطان لا يترك أحداً بدون حرب ...

فإن تعرضت لهذه الحروب ، فلا تتضايق . إنها شئ طبيعي ...

إنها من طبيعة الطريق الروحي ، من طبيعة الشياطين .

ولكن قاوم بقدر ما تستطيع ... وفي كل درجة جديدة تصعدها في السلم الروحي ، توقع محاربة لا يقافك واستعد .

وفي كل تدريب روحي جديد تسلك فيه لنموك ، إن وجدت حرباً فاطمئن .

لولا أن الشيطان يخاف من هذا التدريب ، ما كان يقاومه ويحاربك فيه . إنها ظاهرة صحية بالنسبة إليك ، وظاهرة مرضية من الشيطان . ولكن الحرب شئ ، والسقوط شئ آخر .

وتاريخ الآباء الرهبان والسواح حافل بالحروب الروحية لمنع نموهم ...

إنها مجرد محاولات من الشيطان ، قد تنجح حيناً ، وقد تفشل .

ولكنه عدو للنمو ، لابد أن يحاربه على أية الحالات ، وليحدث ما يحدث والشيطان ليس هو العائق الوحيد أمام النمو الروحي ، إنما هناك أعوان له كثيرون في ذلك ونذكر في المقدمة .

٢ - البيئة المعطلة

البيئة السيئة تعطل النمو الروحي . لذلك تخير أصدقاءك ومعاشريك ومرافقيك في الطريق ...

إنهم قد يوقفون نموك ، بل قد يرجعونك إلى الخلف .. وكما أن الصديق الصالح يجذبك معه إلى فوق كذلك الصديق الخاطئ إلى أسفل ويعطل نموك . والزوج غير الروحي ، يمنع الزوجة روحياً . وكذلك تفعل الزوجة غير الروحية مع زوجها . إنهما يشتركان معاً في حياة واحدة . ومن شروط المرافقة الموافقة . وإن لم تكن هناك موافقة فالنمو الروحي يتعطل ، أو قل الحياة بسبب البيئة المحيطة .

أبونا إبراهيم أبو الآباء تعطل نموه حيناً بسبب البيئة المحيطة .

تعطل لما تغرب في جرار ، وكان يعلم أنه " ليس في هذا الموضع خوف الله البتة " وخاف أن يقتلوه من أجل امرأته (تك20 : 11) . ودفعه الخوف إلى أن يقول عن سارة إنها أخته ، فأخذها أبيمالك ...

وإذا بهذه البيئة التي لا يوجد فيها خوف قد عاقت نمو هذا النبي العظيم ، بل أوقعته في أخطاء نقائص.

ونفس الوضع حدث للوط البار ولكنه بنسبة أكبر . في أرض سادوم .

وفي ذلك قال عنه القديس بطرس الرسول " كان البار ــ بالنظر والسمع ــ وهو ساكن بينهم ، يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة " وقال عنه أيضاً إنه كان " مغلوباً من سيرة الأردياء في الدعارة " (2بط2 : 7 ، 8) .

إذن فالبيئة الخاطئة والضغوط الخارجية يمكن أن تعطل حتى الأنبياء والأبرار .

لأنه إن انتصر البار حيناً ، فربما إذا ضغطت عليه البيئة " يوماً فيوماً " حينئذ تتعذب نفيه البارة ويقف نموه .

لذلك في ممارساتك الروحية احترس من استصحاب أحد يعوق نموك .

وفي اليوم الذي تتناول فيه ، أو في يوم اعترافك ، وأنت في حالة روحية نامية ، احذر من صديق وزميل يدخل معك في حديث قد يعكر نقاوة ذهنك وقلبك .

لقد استفاد آباؤنا من الوحدة .

عاشوا وحدهم ، بهياً عن البيئة التي تشغلهم أو تعوق نموهم ، فتفرغوا لعملهم الروحي مع الله دون عائق من البيئة ...

وكذلك عاش كل محبي الوحدة حتى في العالم ، ولا يعرجون بين الفرقتين ، لا يقضون حيناً في حرارة روحية ، وحيناً آخر مع أساب تبرد حرارتهم .

وفي مثل الزارع ، نسمع عن الأشواك التي تخنق الزرع بعد نموه (متى13) .

فاحترس أنت ، وابعد عن الأشواك حتى ينمو زرعك المقدس دون أن تخنقه البيئة المحيطة . وفي نموك تذكر قول الشاعر الذي قال :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم .

من الأسباب الأخرى التي تعطل النمو الروحي ، سياسة الاكتفاء .

الاكتفاء في الروحيات

حيث يصل الإنسان إلى مستوي روحي معين ، دون أن يتقدم بعده ، ويظن أن هناك المنتهي ، دون أن يفكر في تخطئ هذا المستوي إلى ما بعده .

أو بمحاربة الشيطان بأن ما فوق هذا المستوي هو لون من التطرف .

ولكن آباءنا القديسين لم يحدث أن قنعوا في حياتهم الروحية بما وصلوا إلية . بل كانوا باستمرار يجاهدون إلى وضع أفضل . فبولس الرسول الذي اختطف إلى السماء الثالثة ، قال " انس ما هو وراء ، وامتد إلى ما هو قدام " (فى3 : 13) .

إن الذي يقف نموه : هو معرض أن يرجع إلى الوراء .

لذلك حاول باستمرار أن تنمو ، ولا تكتف مطلقاً بما أنت فيه . ولكن بحكمة ، ضع أمامك المستويات العليا التي وصل إليها الآباء ، لكي يحفزك هذا إلى مزيد من الجهاد ، واعرف قاعدة هامة وهي :

هناك فرق كبير بين النمو والتطرف .

والحكمة هي الميزان بينهما . ولكن الشيطان قد يستخدم إحدى العبارتين بدلاً من الأخرى لمحاربتك .

هناك سبب آخر يعوق النمو ، وهو :

٤ ـ الأرشاد الخاطئ

الإرشاد الخاطئ يعوق النمو الروحي ، إذا كان المرشد غير متمرس في الروحيات ، أو كان له غرض خاص .

فهناك مثلاً مرشدون من يسترشد بهم إلى الحرفية في تنفيذ الوصايا مثلما كان يفعل الكتبة والفريسيون . وقد قال السيد الرب :

" أعمي يقود أعمي ، كلاهما يسقطان في حفرة " (متى15 : 14) .

لهذا ، سعيد هو الشخص الذي يكون تحت قيادة حكيمة واعية مختبرة كذلك على الإنسان أن يفحص كل شئ ، ولا يتمسك إلا بالأفضل (1تس5 : 21) .

كذلك لا تسمع نصيحة كل أحد ، ولا تطلب إرشاد كل أحد . وكما قال أحدهم :

فخذوا العلم على أربابه واطلبوا الحكمة عند الحكماء .

ومن الأسباب الأخرى التي تعوق النمو الروحي : التقليد الخاطئ .

٥ ـ التقليد الخاطئ

ونعني به التقليد الذي يلبس فيه الإنسان شخصية غيره بلا إفراز . أو التطبيق الحرفي لما ورد في بستان الرهبان أو في سير القديسين ، دون معرفة ما يناسبك أنت شخصياً ، أو الدرجات المتوسطة التي فيها ذلك القديس ، حتى وصل إلى المستوي الذي ورد في سيرته .

وقد يكون التقليد لما ورد في الكتب أو تقليداً لأشخاص أحياء أو لأب الاعتراف ...

بينما يكون لكل من هؤلاء طبيعته الخاصة ، أو أسلوبه الذي يناسبه هو نفسياً وروحياً . وقد لا يناسب من يقلده ...

وقد يكون الداعي إلى التقليد ، أب الاعتراف نفسه حينما يريد أن يكون أولاده صورة منه ، مهما كانت طبائعهم ونتيجة لسيرهم في طريق يناقض طبائعهم يعاق تقدمهم الروحي .

مثال ذلك أب يحب الحياة الاجتماعية والخلطة ، وله أبن روحي يحب الهدوء والسكون ، إن أجبره على السير في الخلطة ، وله إبن روحي يحب الهدوء والسكون ، إن أجبره على السير في الخلطة روحياته ، والعكس صحيح ...

سبب آخر لتوقف النمو الروحي هو :

الكبرياء

ربما ينمو الإنسان حسناً في الطريق الروحي ، حتى إذا وصل إلى مستوي معين ، يبدأ في مقارنة نفسه بمن هم اقل منه ، فيرتفع قلبه ، وحينئذ تبعد عنه بسبب الكبرياء فإما أن يسقط نموه .

إن مواهب الرب لا تعطي إلا للمتضعين . الذين يرتفعون بسببها .

أما الإنسان المتواضع ، فإنه مهما ارتفع في الطريق الروحي يحسب نفسه لا شئ ، مقارناً بذاته الدرجات العليا التي للقديسين ، لذلك يدعو نفسه خاطئاً . ويري الرب اتضاعه ن فيعطيه المزيد من النمو .

كذلك الشخص الذي ينمو فيعجب بنفسه ، قد يكتفي بما هو فيه ، فلا يجاهد لنوال ما هو أكثر ، فيقف نموه .

إننا نخشي من الكبرياء ، ليس في وقوف النمو فحسب ، بل للخوف من السقوط أيضاً .

وفي ذلك يقول الكتاب " قبل الكسر الكبرياء ، وقبل السقوط تشامخ الروح " (أم16 : 18) ، فإن كنت سائراً في الطريق الروحي ، احترس لئلا تكبر في عيني نفسك ، فتسقط .

ومن أمثلة تأثير الكبرياء في وقوف النمو ، إنسان تفتقده النعمة وترفعه إلى فوق فينسب ارتفاعه إلى مجهوده الشخصي وبره الذاتي ، لا إلى عمل الله فيه .

فنفارقه النعمة ، لأنه ينسب إلى نفسه ما يناله من معونة النعمة .

وإذ تفارقه النعمة ، لا يمكن أن يتقدم خطوة واحدة ، بل قد يرجع إلى الوراء ، ربما يكون وقوف النمو بتدبير النعمة .

٧ ـ تدبير النعمة

ربما تبعد لا بسبب كبرياء الشخص ، إنما خوفاً عليه من الكبرياء .

وحينما ترتفع النعمة عنه يضعف وقد يسقط في أخطاء كثيرة ، حتى تكون هذه لإيليا النبي العظيم حينما خاف من إيزابل (1مل19 : 14) .

وهو لم يخف من آخاب الملك ومن كل أنبياء البعل والسواري وانتصر على الكل انتصاراً عظيماً على جبل الكرمل (1مل18) .

وربما حدث مثل هذا لداود النبي العظيم ، الذي حل عليه روح الرب ، وعاش في حياة الصلاة والمزامير . وسقط بعدها في بعض خطايا المبتدئين ...! وساعده ذلك على حياة الانسحاق والدموع فيما بعد .

وربما يكون من أسباب وقوف النمو .

٨ ـ التحول إلى الاداريات

كان يترك الإنسان العمل الروحي ، ويتحول إلى العمل الإداري ، فشغله الإداريات عن خلاص نفسه وخلاص غيره ، وتوقعه في أخطاء عديدة توقف نموه .

كراهب متوحد في الجبل ينمو في روحياته ، ويأخذونه ويضعونه في وظيفة .

وأمور التدبير ليست خطية في ذاتها ولكنها تشغله عن العمل الروحي فيقف نموه ومن أجل هذا ، كان آباؤنا القديسون يهربون من الوظائف ليتفرغوا لله .

أو مثال كاهن ناجح في عمله الروحي يتولي الأمور الإدارية في الكنيسة فتعطله عن روحياته وتوقف نموه .

فإن انشغل أحدكم بالإداريات ، فليختبر نفسه فيها : هل هو استمر في نموه ، أم توقف ، أم هبط مستواه .

سبب آخر يوقف النمو الروحي وهو :

٩ - الاهتمام بالفضائل الظاهرة

كأن يهتم إنسان بالنمو العددي ، وليس بالنمو الروحي في كل ممارساته الروحية .

يهتم بعدد المزامير ، وليس بروحانية الصلاة بها . ويهتم بعدد المطانيات ، وليس بأدائها الروحي ... ويهتم بمظاهر الصوم في فترة الانقطاع ونوع الأكل وكميته ، وليس بما في الصوم من إخضاع واعطاء فرصة للروح .

وهكذا يهتم بالشكليات وليس بالعمق فيتوقف نموه . إذ يهتم بكثرة الصلاة وليس بعمق الصلاة ، وكثرة القراءة ، وليس بالتأمل والعمق .

أما أنت فاهتم بالروح ، وبالنمو الداخل وبالفضائل المخفاة غير الظاهرة وقد يكون سبب وقوف النمو :

١٠ - الفهم الخاطئ

وكما قال القديس الأنبا أنطونيوس إن أعظم الفضائل : الإفراز ، أي الفهم السليم في أمور الروحيات . فكثير من الأشخاص فشلوا في روحياتهم ، لأنهم لم يفهموا الطريق الروحي جيداً ، ولم يكن لهم مرشد روحي حكيم ، واعتمد على مجهودهم البشري أكثر مما اعتمدوا على الله بالصلاة .

كتب أخرى للبابا شنوده

1 ــ انطلاق الروح .
2 ــ 5 كلمة منفعة في 4 أجزاء .
6 ــ 9 الوصايا العشر في 4 أجزاء .
10 ــ العظة على الجبل .
11 ــ تأملات في الميلاد .
12 ــ من وحي الميلاد .
13 ــ كيف تبدأ عاماً جديداً .
14 ــ 18 تأملات في أسبوع الآلام (5 أجزاء) .
19 ــ آدم وحواء ــ قايين وهابيل .
20 ــ يونان النبي .
21 ــ مارمرقس الرسول .
22 ــ تأملات في حياة الأنبا أنطونيوس .
23 ــ القمص ميخائيل إبراهيم .
24 ــ شريعة الزوجة الواحدة .
25 ــ الكهنوت .
26 ــ الخلاص في المفهوم الأرثوذكسي .
27 ــ بدعة الخلاص في لحظة .
28 ــ حروب الشياطين .
29 ــ الحروب الروحية .
30 ــ الغضب .
31 ــ إدانة الآخرين .
32 ــ تأملات في مزامير الغروب .
33 ــ يستجيب لك الرب (مز20) .
34 ــ يارب لماذا (مز3) .
35 ــ التلمذة .
36 ــ الغيرة المقدسة .
37 ــ الوجود مع الله .
38 ــ الله وكفي .
39 ــ حياة الإيمان .
40 ــ حياة التوبة والنقاوة .
41 ــ اليقظة الروحي .
42 ــ السهر الروحي .
43 ــ الرجوع إلى الله .
44 ، 45 سنوات مع أسئلة الناس (ج1 ، ج2) .
46 ــ حياة الشكر ــ صلاة الشكر .
47 ــ روحانية الصوم .
48 ــ مقالات روحية .
49 ــ الهدوء .
50 ــ معالم الطريق الروحي .

فهرست

مقدمة 5

الفصل الأول : الهدف الروحي وثباته 7

الهدف الروحي 8

لماذا خلقنا الله 9

ثبات الهدف الروحي 14

الفصل الثاني : تبدأ وتستمر 21

البدء 22

المهم أن تستمر 23

نهاية السيرة 24

أختبر الحروب 26

ليس له أصل 27

الاصلاح الداخلي 28

الفصل الثالث : مخافة الله والتغصب 33

بدء الحكمة مخافة الله 34

محبة الله ومخافته 34

تداريب 40

التغصب هو البداية العملية 42

ما هو التغصب 43

التغصب والنمو 44

فصيلة مرحلية 45

فوائد التغصب 47

نصائح وتداريب 48

الفصل الرابع : السلوك الروحي واستقامته 51

السلوك الروحي 52

هل الجسد خطية 53

خضوع الجسد للروح 54

الجسد والخطية	56
الأهتمام بالروح	57
علاقة روحك بروح الله	58
الاستقامة	**60**
معني الاستقامة	60
الاستقامة ضد التطرف	60
الاستقامة ضد الباطل	62
الاستقامة ضد الرياء	64
الخداع ضد الاستقامة	66
التحايل ضد الاستقامة	67
الاستقامة والثقة	68
الفصل الخامس : القيم والالتزام	**69**
القيم والتقييم الروحي	70
الغرض والوسلية	70
معني النجاح	71
الاهتمام بالأبدية	72
الروحي والجسد	75
الصلاة	75
أنت والغير	76
الراحة والتعب	78
الالتزام	**79**
الالتزام بالعهود	80
عدم الالتزام	81
صفات الملتزم	83
الفصل السادس : الحكمة والإفراز	**87**
أهمية الحكمة والإفراز	88
الحكمة من أسماء المسيح	89
الحكمة والروح القدس	89
حكمة الله وحكمة العالم	89
مصدر الحكمة	91
أهم مجال تلزمه الحكمة	93
الحكمة تعطي المفهوم السليم	95
الحكمة والإفراز	**97**
ما بين الذكاء والحكمة	97
معطلات الحكمة	99
الحكمة بين الصمت والكلام	102
الحكمة بين الكآبة والفرح	103
الحكمة والإفراز . 3	**105**
خطورة الآية الواحدة	105
الإفراز في التداريب الروحية	106

الإفراز في القراءة والتطبيق 107
مثال الطيبة والحزم 108
الإفراز بين الخوف والحب 110
الفصل السابع : العمل الإيجابي والعمل الداخلي 113
العمل الإيجابي: أهميته في مقاومة الخطية 114
أهمية محبة الله 115
الوصول إلى محبة الله 117
فائدة العمل الإيجابي 120
العمل الداخلي ــ أهميته 122
العمل الداخلي في التوبة 123
في التربية وفي الخدمة 124
في الصلاة والصوم 126
العمل الداخلي في القراءة ــ في الصمت 127
فوائد العمل الجوانى 129
الفصل الثامن : الأمانة 131
أهمية الأمانة وحدودها 132
الأمانة نحو الله 134
أمانتك تجاه نفسك 138
أمانتك تجاه الآخرين 143
الأمانة في القيل 145
كيف يمكنني 145
الخدمة والتكريس 146
الإرادة والفكر 148
المحبة 149
الجسد والروح 150
الصلاة 152
أمثلة عديدة 153
الفصل التاسع : الجدية والتدقيق 155
الجدية 156
أهمية الجدية 156
صفات الإنسان الجاد 158
محاربات الشيطان 162
حياة التدقيق 163
أهمية التدقيق 164
مجالات التدقيق 165
محاربات التدقيق 170
الفصل العاشر : حياة الانتصار 171
الانتصار في الحياة الروحية 172

أهمية الانتصار وبركاته 172
لست وحدك في الحروب 173
لا تخف مهما سقطت 175
مقومات الانتصار 177
فصل النور عن الظلمة 179
أوامر إلهية وكنسية 180
فصل أخطر في الأبدية 183
ماذا تفعل إذن 184
الفصل الحادي عشر : حياة التسليم وحياة الشكر 187
حياة التسليم 188
خصائص حياة التسليم 189
حياة الشكر 197
أشياء كثيرة نشكر عليها 197
ماذا تعلمنا الكنيسة 198
نشكر على النعم والضيقات 199
عقبات أمام الشكر 201
فضائل تتعلق بالشكر 206
الفصل الثاني عشر : الباب الضيق 207
ما هي الضيقات 209
إنكار الذات 211
التعب من أجل الرب 212
الباب الضيق للكل 214
تقييم الضيق 214
الفصل الثالث عشر : رحلة نحو النمو والكمال 215
النمو والكمال 216
عوائق النمو 224
1 ــ حروب الشياطين 224
2ــ البيئة المعطلة 226
3 ــ الاكتفاء 228
4 ــ الإرشاد الخاطئ 229
5 ــ التقليد الخاطئ 229
6 ــ الكبرياء 230
7 ــ تدبير النعمة 231
8 ــ التحول إلى الإداريات 232
9 ــ الاهتمام بالفضائل الظاهرة 232
10 ــ الفهم الخاطئ 233
كتب أخري للمؤلف 234